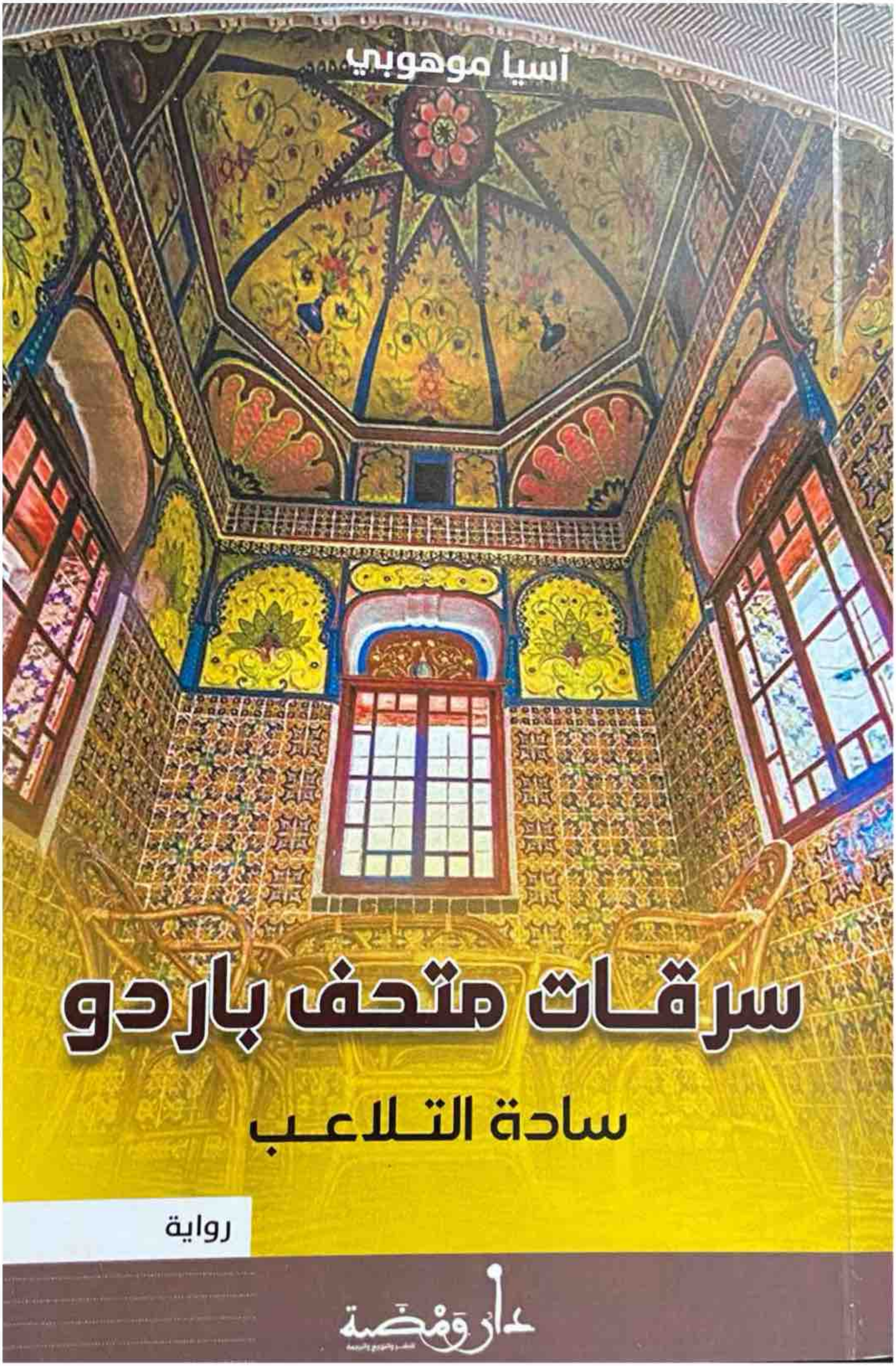

آسيا موهوبي

سرقات متحف باردو

سادة التلاعب

رواية

دار ومضة

سرقـات متحف باردو

سادة التـلاعـب

عنوان الكتاب: سرقات متحف باردو سادة التلاعب

المؤلف (ة): آسيا موهوبي

السداسي الثاني 2023

رقم الإيداع: 978-9931-22-222-4

الناشر: دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة

إيميل: wamdaedition@gmail.com

هاتف: 00213657300415 / 034550887

المقر: جيجل - الجزائر

المدير العام: د. سميرة قنون

المدير التنفيذي: ليلى لوكريف

تدقيق وإخراج فني: فريق ومضة

تصميم: ايمان عبد الحكيم

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يمنع نسخ أو استعمال الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية

أو أية وسيلة نشر أخرى من دون إذن خطي من الناشر

آسيا موهوبي

سرقـات متحف باردو

سادة التـلاعـب

روايـة

للنشـــر والتوزيع والترجمة

يندرج هذا العمل ضمن أدب الجريمة التاريخي

وبغض النظر عن الأماكن المعروفة والشخصيات الواقعية والأحداث التي تعرضها الرواية، فإنّ جميع الأماكن والشخصيات والوقائع التي ذكرت من نتاج مخيلة المؤلفة، أو تم استخدامها تخيليا لأغراض روائية. وأي تشابه بين الأحداث التي جرت أو أسماء الأماكن أو الأشخاص فهو بمحض الصدفة.

"الأمة التي لا تحافظ على تراثها هي أمة آيلة للزوال

والأمة التي تنسب تراث أمة أخرى إليها هي أمة منبوذة"

"واقلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب"

الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس

تمهيد

بـدأ الغـزو الفرنسـي للجزائـر سـنة 05 جويليـة 1830، تـلاه جلـب المسـتوطنين إلى المنزل الجديـد فعمـدت السـلطات الفرنسـية آنـذاك إلى مصـادرة أراضـي السـكان الأصـليين (الجزائـريين) عـن طريـق مجموعـة مـن القوانين التعسـفية، لإقامة مسـتوطنات للوافدين الجدد والذين كانوا ذوي أغلبية أوروبية ويهودية. وبعد قيام ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 التي طردت فرنسـا من الأراضي الجزائرية حيث كان الخـروج الأخير في 5 جويلية 1962، اتفقـت فرنسـا على إعطـاء المسـتوطنين الفرنسـين والأوروبيين والأشـخاص الـذين ولـدوا خـلال فتـرة الاحـتلال مـن (1830 إلى 1962) وقـد عرفـوا باسـم الأقـدام السـوداء، الحـق في الاختيـار بين الجنسـية الفرنسـية أو الجزائرية فيمـا عمـد الـبعض إلى الخـروج مـع فرنسـا، اختـار الـبعض الآخـر البقـاء في الجزائر والتمسك بالجنسية الجزائرية بصفتها البلد التي ولدوا فيها، غير أن الكثير منهم شـهدوا صعوبة في الاندماج مع السكان الأصليين إلى الآن، الذين كانوا يرونهم كمخلفات من الاسـتعمار، فيمـا اسـتطاع آخـرون أن يـذوبوا في المجتمع.

بلدك يحتاجك

كانت تقام في هذه الأثناء مسرحية البنت الخجولة والعاشق الجريء التي اتخذت السماء خشبتها، أبطالها هم الشمس والغيوم.. الشمس التي تؤدي دور الفتاة الخجولة ما تنفك أن تظهر قليلا لتختفي وتبلع بين براثين السحب الكثيفة، هذه الأخيرة التي أخذت دور الفتى العاشق الذي يغرق محبوبته بالكلام الساحر الجميل، وهكذا أصبح هذا الثنائي الذي لطالما بجّلته الأساطير الإغريقية يعيد تأدية هذا المشهد مرارا وتكرارا تحت السماء الخريفية لمدينة جيريفيل الحدودية. لكن للأسف لم يكن يستهوِ هذا المنظر المألوف عادة والذي يلعب في الساحة السماوية أي أحد من الجالسين في المقهى الطلق المطل على الجبال الشاهقة الخضراء، الراسيات كالأعمدة التي تمتد من السماء إلى باطن الأرض لتنخر فيها قوامها ولتبسط سيطرتها على المكان. كان المقهى الرصيفي لبلدة جيريفيل يمتاز بطاولاته صغيرة الحجم من الخشب الرخيص المتآكل الذي يعبر عن السنون التي قضاها في خدمة الإنسان، المقربة لبعضها البعض تاركة ممرات صغيرة بين الكراسي والطاولات ما يسمح للنادل بالمرور لتلبية الطلبيات وصب القهوة تارة وللزبائن ومرتادي المقهى تارة أخرى، أما الأرضية فكانت رثة من وطئ الأحذية.. غزا خشب البلوط الذي تزخر به المنطقة جميع أثاث وتفاصيل المقهى من الجدران إلى الأبواب والنوافذ المشرعة كالشراع إلى التأثيث الأنيق ذي الطراز القديم، غير أنه كانت هناك قطعة فاخرة من الأثاث تميزه تسمى تلك التحفة باسم غريب كغرابة شكلها "اثواف" أي الخشبة المقدسة فكانت الأسطورة تقول بأن الأرواح الطيبة تسكن الخشب وأن الشجرة تشعر بمشاعر الإنسان.. لذا السكان المحليين كانوا يتبركون بها تجنبا للحسد والعين وسوء الطالع، فكان من الجلي لأي شخص عندما يلمح أي

إشارة أو إحساس غير سليم من قبل جاره أو صاحبه يقوم مباشرة بطريقة عفوية بالنقر على الخشب، أو الإمساك به تفاديا لاي مشاعر سلبية دفينة يمكن أن تلم به. بالنظر إلى العمران الخشبي الذي يميز البلدة بإمكانك أن تجزم بأن للبلوط مكانة مميزة وسحرية هنا لم تكن هناك نهضة عمرانية بارزة من دون الخشب، العمائر والبيوت كلها كانت مكسية به.. البعض راح يزرع بذوره أمام منزله أو مكان إقامته أو يتم تعليقه عند المدخل أو أمام عوارض الباب ليحميه من الشر، راح الخبازون يطهون أنواعا متعددة ومغايرة من الخبز فوق لوحه، فيما يتم استخدام البلوط لبناء الجسور والمنازل والمنشئات العمرانية. أما الفنانون المحليون فيجعلون من خشبه صورة متقنة من إبداعهم في النقوش والأنماط فريدة التي تهبها للنور أيديهم فكانت بالتقريب لا تخلو أي صنعة من البلوط أو السنديان. حتى انه يقدمون عصيره هنا ! ليس لذيذا جدا لكنه صحي ويمتاز بفوائد لا تعد ولا تحصى من حيث تعزيز التئام الجروح.

كان المقهى في هذه الأثناء يبث موسيقى شعبية رائجة في المنطقة عبر راديو المقاطعة، راح البعض الآخر يستمع لها كالمنتشي بالمخدرات مستشعرا كلماتها بنظرة فخر لانتمائه لهذه الجغرافيا والبعض الآخر تمسك بها كموضوع جاري الحديث عنه.. لكن الشخص الذي كان يجلس في ركن المقهى لم يكن يثيره أي شيء تقريبا سوى الطاولة التي كانت في الزاوية والتي يحيط بها ثلاثة أشخاص. أطرق أذنيه تأسفا من الضجيج الذي يحكم على المقهى بقبضتيه مانعا إياه من استراق مجرى حديثهم، لكن الضحكة العالية التي اطلقها أحدهم من تلك الطاولة من بين شفتيه جعلته يتحلى ببعض الشجاعة، لينهض واقفا قاصدا الطاولة بينما تختزل عينيه كل إصرار الناجحين في هذا العالم. كانت مريم بودي المحققة الخاصة تحكم قبضتها على مجاديف قاربها داخلة في بحر التفكير والتمعن في شاطئ هذا

المكان، المقهى ليس مكانا عاديا، سواء كنت جالسا في مقدمته أو متخذا ركنا في احد جانبيه، لا يمكن لأحد أن يستغني عن المكان الثالث في المجتمع بعد البيت والعمل، الفراغ الذي كان يحكم مشاعر الناس كان لابد له أن يملأ في كاس يومه الفارغ، من خلال التفاعل الاجتماعي والثرثرة والنميمة كله بهدف تقليص أعباء دورة الحياة التي ينغمس فيها الفرد لحد الغرق. يتخذ البعض الآخر المقاهي والكافيتيريات ملعبا ثقافيا محملين بالصحف وبعض الكتب لمناقشة ما في جعبتهم من أفكار، لتسمع صريخ ألسنتهم التي تترامى من كل اتجاهات ومن يغلب صوته تتسنى له دقيقة ونصف كي يدعم طرحه الناقد للكتاب بدعائم وحجج، ويداه التي تتحركان كالحمام الزاجل بين أروقة الطاولات تجعل الآخرين مشدودي الانتباه، الشيء الذي يجعلانه في الأخير راضيا رافعا رأسه باعتزاز لسيادته للموقف بينما يجول باحثا عن التقدير في عيني مجالسيه، الذين يكتفون بالصمت دون الإدلاء بأي تعليق، البعض الآخر ينعزل معتنقا الصمت دافنا رأسه في جريدته ليبدو كالمشهد الاعتيادي من الحياة. بينما يرى معظم الناس المقاهي كفضاءات للترفيه وهو ما يجعلهم يتناولون مختلف أصناف المشروبات الموجودة أو مكان لشرب القهوة، نظرا إلى مكانته المتميزة في حياة الناس.. تفحصت المحققة بتمعن رائدي المقهى الجالسين وهذا الشيء الذين تفضله اكثر من شيء آخر النظر إلى قسمات وجوه الناس وحركاتهم.. هبت بها ضحكة مارشملو المزعجة مساعدها ذو الرأس المربع الذي يشبه حلوة الخطمي، لتكسر غلال هدوئها بطريقة مفاجئة وغير مرغوبة لفت رأسها بسرعة ناحيته وعلامات الحنق متربعة على عرش جبينها، كانت على وشك إبداء انزعاجها منه لتلمح فجأة غيمة أو ظلا حجب عليها النور أعادت الالتفات لوضعيتها السابقة، لتلمح رجلا غائر العينين وذو ذقن يوحي بالإصرار يميل إلى النحافة وشيء من الوسامة واهم شيء يميزه هو الصلع في مقدمة رأسه، أما ملابسه كانت

كلاسيكية جدا لمكان كالمقهى، وقف على عتبة الطاولة كالضيف الذي يطلب الإذن للدخول، استغرق الأمر عدة ثواني قضاها في نقل عينيه العسليتين بين الثلاثة الجالسين كالنحل الطنان الذي ينتقل بين مختلف الأزهار حتى تتبين له الزهرة الغنية بالرحيق، حطت عيناه على مريم بودي ليتكلم بصوت عميق موجه كلامه لها وهو يخلع قبعته من مكانها:

- المحققة الخاصة مريم بودي؟

بدت الحيرة على وجهها ولكنها كانت حريصة على إخفاء دهشتها لترد:

- من يطلبني؟
- صباح الخير آنستي ادعى مايز براون وانا فنان تشكيلي تابع لمتحف باردو في جيريفيل.. قاطعته خديجة:
- أه، أجل أنت مايز براون الرسام الشهير صاحب لوحة الوقت الضائع

قالتها بصوت مفتون وهي تطالعه من اغمص قدميه إلى رأسه بنظرات المفتونة، كالطفلة الصغيرة التي سقطت عيناها على أكوام من الحلوى اللذيذة، ثم تابعت في حماس:

- أنا من اشد المعجبات بفنك

و بحركة عفوية أخرجت دفترها الأصفر وأرفقته بقلم وعيناها تتوهجان بسعادة، أكملت حديثها لفنانها المفضل:

- هل يمكنك أن توقع لي؟

شاخصها مارشملو بنظرة دهشة غير متوقعة مشدوها لكنه لم يرد أن يحرجها اكثر من الحالة المجنونة التي هي فيها امتلأت نفسه بالتقزز من

الذي يحدث أمامه فهو يمقت دراما المعجبين، زمجر بصوت خافت وهو الذي وصل إلى ذروته بعد أن لمح السمة التي كان يلبسها ذاك الفنان على وجهه " التكلف والاعتداد بالنفس "!. اخذ مايز براون الورقة برقة من يدي خديجة الممدودة برجاء ليعلن توقيعه بإتقان، تداركت مريم بودي نفسها وطلبت من ضيفها بأن يشاركهم جلستهم إن رغب فما كان منه إلا أن يلبي دعوتها وهو المدفوع بشيء من عدم الراحة، بعد أن رحبت خديجة المفتونة بالفكرة كترحاب الجدة بحفيدها بعد وقت طويل من الزيارة، اطبق الصمت على الجلسة لثواني قرر أن يكسره بعد أن جال ببصره في المقهى وقال كأنّه سيقدم عرض فني من معارضه التي ينظمها عادة في المتحف بعد أن شكر مضيفيه على السماح له بمشاركتهم الجلسة المغلقة:

- في حقيقة الأمر لم آتي إلى هنا كي احتسي قهوة أو أدردش أو اعرض لوحاتي على أي أحد وإنما أنا هنا بمهمة خاصة.. أتم كلامه بعد أن حضي بانتباه الجميع.. أنا أوجه دعوة خاصة لك أنسة بودي لزيارة متحف باردو وهذه الدعوة من طرف مدير المتحف الكونت رينارد لومير، وسيشرفنا استقبالك كضيفة في القصر طوال مدة إقامتك، تفضلي البرقية، فيها تذاكر القطار وكل المستلزمات التي تحتاجينها كي تصلي في الوقت المناسب، والذي يصادف مساء يوم الثلاثاء. ينتظرك الكونت على العشاء.

أتم بسرعة ودفعة واحدة كلامه كأنّه مستعجل. لم تؤخذ مريم بودي الكثير من الوقت هي أيضا لتمسك الظرف الذي كان يمتد من يديه بارزة العروق، اعتدلت في مقعدها لتتفحص الموقف من كل زواياه وأمعنت التفكير في الأمر لترد بنبرة فيها القليل من الشك:

- سيكون من دواعي سروري أن ألبي دعوة الكونت الموقر لكني حاليا أعالج قضية في غاية الأهمية وسيعوزني الأمر عدة أيام أخرى لأنتهي منها

وسأكون في خدمتكم فور غلق الملف، لأنه ليس من عادتي أن أتعامل مع قضيتين في آن واحد أو أترك واحدة من أجل أخرى هذا الأمر سيجعل الناس تراني إنسانة غير محترفة البتة.

أردف الرسام وهو يظهر علامات عدم الرضى من كلامها متخذا وضعية السلب برأسه:

- القضية التي أرسلت من أجلها هي أيضا في غاية الأهمية والخطورة ادرك انه من العسير الرد حاليا فأرجو أن تقبلي بالدعوة بعد أن تطلعي على الظرف وما يحتويه وبعدها يمكنك اخذ القرار وسيتفهم الكونت قرارك في الأخير.. انزل رأسه ورفع حاجبيه بسخرية ليكمل.. اعني لن يتقبل عدم حضورك بالسهولة فهو الكونت اخذ يهز رأسه يمينا وشمالا كأرجوحة.. ولكن في الأخير سيتقبله ويوظف غيرك.

هب واقفا دفعة واحدة ومن دون سابق إنذار ليخرج بطاقة مزخرفة بالألوان وضعها على الطاولة ساحبا إياها نحو المحققة التي كانت تطالع حركاته بكل هدوء:

- تفضلي هذه بطاقتي سأكون سعيدا اذا اطلعتني على جوابك في حال قررت المجيئ من عدمه.. التفت للبقية وقال.. طاب نهاركم آنساتي، سيدي.

و قبل يد خديجة التي لازلت متمسكة بدور المعجبة المغرمة ويد مريم بودي التي ابتسمت له مودعة إياه بدورها ليخرج من جماعتهم بحركات مستعجلة وخطى اقل ما يقال عنها سريعة. معه حق فقد كانت الضوضاء تصم الآذان ولم يبدو عليه انه معتاد على هذه الضوضاء، توقف ليرمقها بنظرة خاطفة ثم أكمل طريقه.

- يا له من رجل مستعجل !

كان هذا أول انطباع لاحظته مريم بودي على هذا الفنان، فإذا كنا نجهل شخصية الإنسان فحديثه يكشف لنا الكثير من الأسرار عنه. أما بخصوص الجالسان بجانبها فكانا يتبادلان السخرية فيما بينهما والتزمت هي الصمت بينما تصغي لحديثهما.

- يا لبشاشته المصطنعة.

ارفق مارشملو رده بحركة تهكمية، بينما قالت خديجة بلطف وهي تمسك كلتا يديها:

- يا له من رجل جذاب وفنان مبدع.

انفجر مارشملو ضاحكا ثم تحدث بصوت عال وهو يهز رأسه بشدة:

- كفاك تفاهة، أنت حتى لا تعرفين الرجل ولا تعرفين شيئا عن الرسم أو الفن

عبست بوجهها ورمقته بنظرة ازدراء قبل أن ترد عليه بنبرة اتهامية:

- و ما ادراك أنت عن ما اعرف ولا اعرف، بل أنا من اشد المولعين بعالم الفن واعرف جميع الرسامين المعروفين، حتى إن منزلي يتزين بإحدى لوحاته.

حدق فيها بعدم تصديق:

- يا للهراء، بمجرد شرائك لوحة ما لا يجعلك الأمر عارفة بعالم الرسم والفن ومن ثم من أطلعك على أنها لوحة أصلية وليست مقلدة؟

رافع إحدى حاجبيه بتعجب، شعر نحوها بالشفقة، غريب كيف ينصب على الناس باسم الفن واللوحات الأصلية لتغدو بعد فترة مقلدة من الأسواق المحلية. استمر الجدال وتقاذف السخرية والاستهزاء لدقائق، نفذ صبر مريم بودي لتمسك بالرسالة من جانبها الخلفي الذي كان مغروسا فيه طابع وتوقيع الكونت، وقد كان عبارة عن تاج وسيفان يتوسطان التاج ومطبوعة بالشمع ثم فكرت في قرارة نفسها، أيعقل بأن في عصرنا هذا لازالت هذه الطوابع موجودة وهي التي كان في اعتقادها بأن كل الأشياء القديمة والكلاسيكية قد اندثرت بلا رجعة، لكن يبدو بأنّها كانت مخطئة، فهناك أشياء ستأبى أن تذهب وستفرض وجودها من خلال هزمها الأزمنة، حتى لو كان الجميع مهووسا بالأشياء الحديثة والتقنيات التي توصل إليها الإنسان الحديث مما يرسخ البرمجة العمياء في عقولهم ونفوسهم الخاضعة للحداثة. بعد دقائق، قاطع نقاش خديجة ومارشملو صوت مريم بودي التي كانت تتكلم في الهاتف في شيء ما لتتغير وجوههم المحيرة إلى الدهشة، اجفلوا في مقاعدهم عند سماعهم لجملتها الأخيرة:

- مسيو مايز سأكون في الموعد المحدد.

عندما انتهت من المكالمة سألها مارشملو المدهوش:

- ما الذي جعلك تغيرين قرارك؟

- نعم صحيح لماذا غيرت قرارك بهذه السرعة؟

تكلمت خديجة وهي تمد ذراعيها فوق الكرسي الخشبي ضيق القاعدة المهتر، لتناولهم مريم الظرف ليطلعوا عليه بدورهم، توسعت حدقة أعينهم غير مصدقين ما يقرؤونه:

- " بلدك تحتاجك "

قالها الاثنان بصوت واحد وبرنة واحدة وبصوت عالي واكثر جسارة، مما جعل الجميع من في المقهى يلتفت لهم..

جميعنا نرتدي أقنعة

كانت الساعة تناهز الثانية عشر بعد الظهر عندما استقلت مريم بودي القطار السريع المؤدي إلى قصر الكونت، الرحلة لم تكن طويلة فقد كان القطار الذي يشبه الثعبان في تصميمه سريعا كسرعة البرق في السماء. كان مارشملو وخديجة مشدوهين من الرسالة أما هي فكان الشعور العالي بالمسؤولية الذي اغتمرها عند قراءتها لتلك الكلمات ضخما جدا، فقد كان حبها للقضايا المتعلقة بالأمن القومي كالحب الأول الذي لا يشبع منه، اتفقت المجموعة بإكمال الأعمال العالقة نيابة عنها في البلدة، ريثما تنظر في الشأن التي دعيت مستعجلة بسببه. كان ذيل قطار السكة الحديدية يغطي مساحات واسعة من تلال ومروج جيريفيل بينما يتناغم مع الأعشاب من حوله ليغلب اللون البني على الخطان المتوازيان اللذان يسير عليهما الحصان الحديدي، لتتوهم أن الأخير يمشي فوق مراعي خضراء، بل يخيل لك عند النظر له من اعلى كأنك تلج إلى متاهة أليس في بلاد العجائب. أما الطرق الجبلية فراحت تكتسح الربى يمينا وشمالا بطريقة متشعبة وعظيمة تجعلك توحد الله في جميل صنعه، حتى التدخل الإنساني الظاهر للعيان في الإبداع لم يزدها جمالا بل عقدها اكثر، كان هناك افتقار إلى التنظيم وبدورهم البشر يميلون إلى تعقيد الحياة أكثر.. الرياح العاتية التي هبت جعلت الشجر تتمايل في كل اتجاه كأنها ترقص على السيمفونية السادسة لبيتهوفن تلك التي أهداها للطبيعة، جعلت عيناها حبيسة لرقصة الطبيعة حتى أغمضت عيناها تدريجيا تكاد تغفو من النعاس..

- مكان مناسب لكتابة رواية بوليسية

أعادها إلى الواقع صوت عجوز طاعنة في السن تجلس بجوارها لم تفطن حتى متى طارحت كنبة القاطرة أمامها، ردت بعد أن أعادت فتح عيناها المغمضتين وارتخت ملامحها أكثر:

- نعم، قد تكون رواية بوليسية رومانسية، ستكون رواية ناجحة عن قصة حب مأساوية ذات أحداث دامية حول شخص ضحى من اجل حبيبته أو شيء من هذا القبيل، فهذا المكان له جو درامي أكثر.
- أوه بالطبع، هو كذلك فعلى بعد محطتين فقط يوجد اكبر المتاحف في البلاد ربما قد تكونين سمعت عنه من قبل "متحف باردو".

أومأت برقة لترد بتواضع:

- بالطبع، فهذه وجهتي القادمة على ما اعتقد.. آثرت مريم بودي أن تجاريها الحديث كي تستخلص منها بعض المعلومات حول المكان:
- هل تكتبين في هذا النوع؟

تكلمت العجوز وهي تخرج من حقيبتها الواسعة البالية التي قاربت على فقدان لونها البني من كثرت الاستعمال خيوط بنفسجية اللون وإبرتان، كانت بصدد بدء الحياكة:

- كنت فيما مضى أما الآن فانا مجرد قارئة.

تأملتها مريم بودي بينما تمارس الحياكة بخفة وهدوء، كانت ذات وجه بشوش ولكن توحي بالحزم في وقت الجد، جبهتها العريضة أخذت مساحة من وجهها، غير أن انفها الدقيق غطى قليلا على تلك المنطقة، كانت تتكلم وكأن كل الوقت في العالم أمامها. ابتسمت المحققة وقالت ناظرة لها مطولا:

- أنا أؤمن بأن الشيء الذي نحبه لن نمل منه حتى لو عصفت الأيام بنا نحو الشيخوخة، لا استطيع تخيل يوم تقاعدي، فحياتي رتيبة جدا بدون عملي.

طالعتها العجوز من تحت عينيها لتردف وكأنها تذكرت شيئا ما:

- لقد ذكرتني بأيام شبابي، قد كنت أقول تقريبا نفس الكلام. حياتي المملة كانت السبب رئيسي لتوجهي نحو كتابة الروايات البوليسية، المغامرة والمجازفة التي كنت احكي عنها كأنني أعيشها في حياتي لم تكن سوى جزء من مخيلتي، فمن لا يعرفني سيقول يا لحياتها الحية بينما كانت حياتي ميتة من الروتين والعادات اليومية السيئة السقيمة، لا تغريك الأيام عزيزتي ففخرنا يتحول تدريجيا إلى براكين غضب عارم، عندما لا يتم الاعتراف به وتقدير إنجازاتنا، فكل الأشياء تنتهي صلاحيتها، لقد انتهى الكلام داخلي من فرط كثرته.

أكملت جملتها الأخيرة كأنها تقرا الصفحة الأخيرة من كتاب. تكلمت مريم بودي وهي توجه وجهها إلى نافذة القطار التي تغطي نصف الجدار الملاصق لها، وقالت في نبرة فيها شيء من المزاح:

- سيدتي، يبدو انك مثل البذور الصالحة التي لا تجد لها تربة مواتية، فالزهرة التي لم تكمل ازدهارها لا يعني أبدا أنها نصف زهرة أو أنها ناقصة فربما تكون الشمس قد ظلمتها بحرمانها من دفء أشعتها، وان النحل والفراشات قد عكفوا عن جعلها موطن لسد جوعهم.

حدقت العجوز فيها مبهورة من كلماتها الحاذقة وقد عرفت بأنّها أمام امرأة لاتحد عنها في الذكاء:

- بل أنها بشاعة الاعتياد، قد تكون في داخلك مقبرة لكنك ملزمة بالظهور بوجه مرح على شكل مغالاة كأنك ذاهبة لحفل زفافك.

نظرت المحققة باهتمام وتمعن للعجوز المتفانية في غرز الإبر بالقماش بسرعة قياسية، ولمحت شيء من الحزن السري قد مر بسرعة الرصاصة عندما تطلق من قناص متمرس، ارتأت أن تربت عليها تخفيفا مغيرة الموضوع، غير أنها سرعان ما أبصرت بطائر جريح يرفرف من شجرة إلى أخرى باحثا عن ملجا ليندس فيه، لكنه ما فتِئَ أن استقر فوق جدول وشاهدته مريم بودي وهو ينحني فوق المياه كي يسد ضمأه، لكن ارجله المصابة لم تسعفه فراح ضحية مياه الجدول الجبارة، كان الطائر كممثل مسرحي وهو يقوم بجميع خطواته بدقة محفوظة عن ظهر قلب ومهارة فائقة وخبرة فنية، كانت أسراب الطيور المصاحبة له تنتحب وهي تتمايل بطريقة دائرية مناشدة الرياح بطريقة درامية ليكتمل المشهد وتنزل السماء ستار المسرحية عبر زخات الأمطار الخريفية السميكة..

- كل شيء في هذه البلدة منوط بالفن. كما تعلمين لكل منطقة تقاليدها، كيف يقرأ الناس، طريقة جلوسهم أو كيف يأكلون، ستحسبينهم أناس عصريين جدا لكن في تفكيرهم وأسلوب كلامهم ستجدينهم كلاسيكيين جدا..

- حتى في طريقة إجرامهم؟

رفعت العجوز رأسها وهي توجه عيناها للفتاة الشابة التي تقابلها من الناحية اليمنى وأجابتها بضحكة خبيثة:

- جميعنا نرتدي أقنعة وبشكل خاص أهل الفن.

لم تفهم مريم بوجه الدقة ما عنته عبارتها الأخيرة ولم يكن لها الوقت للفهم من الأساس سوى وضعه في مؤخرة رأسها للتفكير فيه في وقت لاحق، لأنّ القطار بدا يبث صوت امرأة عبر مكبر الصوت معلنتا عن الوصول للمحطة المرجوة قبل أن يضيع صوتها بين ضجيج المسافرين. فوجدت مريم بودي فرصة مواتية للتعبير بكلمات تسيل رقة عن الحديث الشهي الذي تقاسمته مع محدثتها قبل مغادرتها القاطرة، غير أن التعليق الذي قذفته العجوز من ثغرها كالأمواج التي يقذفها البحر الصاخب حملتها للنظر ناحيتها باقتضاب وذهول:

- طاب يومك أيتها المحققة.

وانطلق القطار بعدها بسرعته المعهودة إلى الوجهة التالية وترك المفتشة تتقفى أثره بعيناها المشدوهتان إلى أن غاب في براثين الغياهب.

خرجت مريم بودي من المحطة المغمورة بالمسافرين الذين يتقاطرون إلى المكان مثل النمل على السكر، وأصوات "التوك توك" وصافرات مختلف خطوط السكك الحديدية منها التقليدية والإكسبرس تصدح بأقطار المكان، لتمتزج العصرنة مع العراقة كأركان نهضة هذه المقاطعة، هذا الانطباع الأول الذي يمكن لإنسان يحسن الفهم كمحققتنا واسعة الاطلاع والتحصيل أن تستنتجه. برئت مريم بودي من أي غرور ومغالاة أو تواضع مزيف أو غطرسة، فقد كانت ممتنة جدا لما آلت إليه حياتها المهنية المغمورة، كانت تمتاز بالتواضع بعد القوة وعدم اليأس والمثابرة وعدم قبول الظلم، إنجازاتها كانت اكبر من أن تذكر أو يكتب عنها، فقد كانت أول محققة سرية خاصة تستعين بها الدولة في القضايا المستعصية، التي لم تستطع أن تحلها الشرطة، نذكر بالخصوص الجريمة الأخيرة التي وقعت في كاتدرائية نوتردام الإفريقية في الجزائر، والتي بفضل ذهنها الحاد وبديهتها

الحاضرة وتفطنها الدائم استطاعت أن تكشف عن عصابة دولية يقودها رجل أعمال إيطالي مشبوه، يدير تهريب الذهب والألماس في إفريقيا. شدها منظر بهي الطلعة لساعة تتوسط المحطة هي الأضخم من نوعها، كأنها تعود لزمن سابق ما يدفعك للوقوف وتأملها والغرق فيها ونسيان أي شيء آخر، كأنها وجدت الأحجية التي كانت تحيرها منذ زمن، فجمال التفاصيل الدقيقة المنقوشة والفريدة كانت تلخص جمال منظر طبيعي في الريف السويسري، كان مكتوب فوقها بخط كلاسيكي قديم غربي "كن رهن ساعتك حتى لا تغلبك عقارب السوء" أعجبتها العبارة لأنّها ترمز إلى شيء ذو مغزى غير بريء. لم تبقى طويلا تحت سلطة الساعة العظيمة لأنّ أحدا ما أو شخصا مجهولا نادى عليها. أخذت تلتفت وهي تدور من كل جهة كالبوصلة إلى أن توقفت حينما رأت رجلا يهرول ناحيتها على ناصية الطريق المقابل، عرف بنفسه ببطء وبأنفاس لاهثة على أنه المساعد الشخصي للكونت، وكان اسمه غالدي ثيرون، صافحها بتحفظ وشاهدت الدهشة تستولي عليه وهو يتفحصها من رأسها لأخمص قدميها، يبدو أنه كان ينتظر عجوزا وليس امرأة شابة. نظر إليها مأخوذا ورمقها بشبه ابتسامة عندما عرف ما تفكر فيه وقال بصوت خجول:

- آسف لم أتخيلك هكذا!

تكلمت مريم بودي بلهجة رسمية:

- هكذا
- امرأة جميلة، اقصد امرأة شابة.

بدا طويل القامة كعمود إنارة وشاحب، له شيء من الفكاهة والنكهة في صوته ذكرها بمارشملو إلى حد ما، كانت الرائحة العطرية التي تفوح منه

نفاذة لدرجة أنها تستطيع أن تخنقك اذا وقفت أمامه لوقت طويل، راح يعتمر قبعة مخملية، أزاحها بمجرد أن ألقى عليها التحية ليظهر شعره الأسود الكثيف. تكلما بإيجاز، ثمّ أخذها إلى سيارة سوداء من نوع رولز رويس اقل ما يقال عنها شديدة اللمعان اكثر من الزجاج، فتح لها باب السيارة بكل أدب كولد مطيع لأمّه ووضع أمتعتها التي كانت عبارة عن حقيبة ضخمة في صندوق السيارة ليرتمي بعدها على كرسي القيادة الذي قام بضبطه بكبسة زر ليتناسب مع طوله. طوال الرحلة التي كانت مدتها نصف ساعة اخذ يعرفها على المدينة كأنّه يقدم لها نبذة مختصرة أو تمهيد لفتح حديث، وراح يصب بين الكلمات شيء من المزاح لتلطيف الجو وقد كانت ممتنة له لأنه يحاول خلق طقس مريح لها، ما ساهم في تخفيف تعب الرحلة هو المقاعد المصنوعة من الجلد الثمين. إنّ نعمة الرفاهية لا تطال جميع الناس هذا ما كانت تخبر به نفسها. كان غالدي إنسانا شديد المرح كالأطفال وهو يقص لها طرائف الناس عن الكونت وكيف أنهم يغتابونه بسبب صرامته ويرسم حوله المثل العليا كأنّه يقوم بحملة انتخابية لمترشح. أما هي فكانت مشغولة بدراسة حركاته فقد كان يشبه الولد الصغير وافر النشاط واكتفت بالابتسام مرة على مرة، لكنه قد لمح عيناها وهما تتفحصانه لتتغير لهجته الرقيقة إلى الجدية. ابتسم بارتباك وهو يعيد عيناه للطريق قائلا:

- أرجو أني لا أضجرك بكلامي أيتها المحققة.

كانت مريم بودي تحسن الإصغاء ولهذا قالت في ارتياح ظاهر:

- إن لمجلسك إيناس ولحديثك إمتاع، أنا جد مسرورة بحلو ألفاظك وحس فكاهتك، لكن يخطر لي من الغرابة أن يرسل الكونت مساعده الشخصي ليقلني.

- لقد عهد لي بهذه المهمة لأنّ الكونت إنسان كلاسيكي وتحكم جل تصرفاته الأعراف والتقاليد وله من استقامة الفكر ما للعالم من علم هو لن يسمح أن يأتي ضيفه في سيارة أجرة أو مشيا بل يفضل أن يرسل من يقله ويكون من اقرب الناس إليه، لأنّ الضيف سيكون على مسؤوليته وهذا هو التقليد المتبع وإذا حدث له شيء سيء سيكون هو الملام عليه. وقد أوصاني بالعناية بك وأن أحفظ لكِ جميل سبل الراحة، فإذا احتجت أي شيء أرجوك اخبريني.

كان كالوفي بما يحفظه بحيث استرسل في الكلام كمن تم تلقينه حرفا بحرف مثل الولد الصغير الذي يحفظ دروسه بإتقان. شيعته المحققة بنظرات شاكرة وبابتسامة عريضة:

- إنّك بارع الفضل وجميل الأخلاق وناصح الجيب[1]، هذا أيضا من كرم شيم الكونت وطيبة نفسه والمروءة النادرة التي يتميز بها، لقد بدأت تتكون لي نظرة عن الكونت فالعطايا تشبه صاحبها. قالتها بغير تردد أو تحفظ.

أومأ رأسه في استحسان وهو يقول كأنّه يشدي به [2]:

- للكونت ينابيع فضائل وله فائض من الكرم، لا يمزح في مثل هذه الأمور لأنه يعرف حجم المسؤولية التي على عاتقه خصوصا بعد ما جرى. فهو يحس بذنب جم، لكن حتى الشخص الصالح تتنكر له الأيام وتعطيه وجهها المتجهم ولن يسلم من تقلبات الدهور.

---

1 - ناصح الجيب : أمين
2 - يشدي به : يتغنى به

لقد أيقنت مريم بودي أن الذي أمامها يا إما حَسنُ النية وصادق العاطفة أو مغالي في التملق.

- المهم أن تسعفك الأيام في يوم ما.

نظر متسائلا:

- يبدو بأنّك من الأشخاص الذين يرون الجانب المشرق لكل شيء.
- بل أن تتوقع الأفضل في كل شيء حتى في مصيبتك، فهناك دائما اليد الإلهية الخفية التي تنهضك عند كل سقوط.

أطبقت السكينة على الموقف لينظر باهتمام وتمعن، كان صوته عميق على نحو استثنائي وعيناه لا تحيد عن الطريق عندما قال:

- أنا متحصن ومستعد لكل شيء حتى إن تركني الحظ يوما ما.

رمقته مريم بودي بنظرة لها معنى، فقد استصغرته منذ قليل إلا أن مخايل الذكاء تلوح عليه كثيرا.

- الحظ المتردي عشته من قبل لعلمك، فالحياة ليست شجرة تحقيق الرغبات. فلا تطل الوقوف على ما يهدمك وإنما على ما يبنيك.

قال بقلب مخنوق وذهن غائب:

- معك حق لن امثل أدوار لا تليق بي ولن احتال على نفسي.

أخرجت مريم بودي ورقة مجعدة من داخل جيب معطفها الأسود لتدون شيء ما تحت أنظار الأخير ثم قالت بصوت هادئ:

- أيمكنك إخباري بفصل الخطاب وما حدث؟

هز كتفيه بغير مبالاة ليجيب بإحجام[3]، فقد كان حريصا في حديثه على ألا يذكر أي شيء:

- افضل أن يكون الكونت هو الذي يسيق لك الخبر بنفسه، فهو الذي طلبك.

ترك المسألة للمزيد من النقاش لتقول بجدية وقد بدا عليها القلق العميق:

- هل الأمر شديد الخطورة لهذه الدرجة؟

قال وكانه غير واثق كيف يصيغ الجملة وهناك اضطراب في صوته:

- أجل، إنه أمر شنيع. بالمناسبة لن تنتظري كثيرا لمعرفة السبب لأننا قد وصلنا.

رمقته بنظرة مستفسرة لتصف السيارة أمام بوابة ضخمة، راح يكتب شيئا ما بجوار حائط البوابة لتنفتح الباب العظيمة وتفرج عن اجمل قصر ممكن أن تشاهده بحياتك.

---

3 - احجام : امتناع

لا ينبغي أن تخدعنا المظاهر

قاومت مريم بودي بشراسة عدم النظر بذهول للقصر الذي يشبه قصور أفلام ديزني الشهيرة، لكنها لم تفلح وراحت تحدق فيه كالسائح الذي يزور معلم ما لأول مرة واكتفت بعدم الكلام. كان القصر يشبه في تصميمه قلاع ملوك فرنسا الخيالية، وبما أن الكونت من طبقة النبلاء فهذا يفسر تصميم قصره الذي يتماثل بقصور الطبقة الأرستقراطية. يتميز بقبة زرقاء تعلوه كقبعة رجل الثلج، وتحلى بلمحة من اللون الآجوري الرمادي الذي كان سائدا فيما مضى ولم يعد له وجود في وقتنا هذا. هذا أن دل على شيء فهو يدل بالتأكيد على أن التصميم قديم قدم الأزمنة المتعاقبة. النوافذ الكبيرة التي تشبه بوابة لعالم أخر ارتخت في مساحة كبيرة لتبدو كلوحة ليلة النجوم لفانسنت فان غوخ، بينما راحت الأدراج العتيقة المؤدية إلى باب القصر بالتفرع إلى قسمين متقابلين من الجهة اليمنى واليسرى بهدف الوصول إلى باب واحد، مثل العجينة التي نستطيع أن نخرج منها العديد من الأشكال لكن يبقى اصلها واحد. لم تفهم أبدا مفتشتنا لماذا يتميز البنيان بكل ذاك التصعب والتضييق، ربما لأنّ الإنسان كائن تتجذر فيه متلازمة التعقيد الذي يظن بأنّها احسن طريقة لإضافة الأناقة وأفضل الحلول بينما حقيقة الأمر أن البساطة هي أحسن طريق ممكن أن يسلكه. من جهة مقابلة، غدت الأرض تفرش بساطها المعشب من كل جهة. تستطيع أن ترى حدائق عظيمة من وراء القصر وهناك سور حديدي مزركش بنقوشات الورود، سائر دائر حوله وبعض الكاميرات المعلقة الغير مرتبة في فروع الأشجار المقابلة للقصر مثل الخفافيش التي تختبئ في الظلام وتنتظر الوقت المناسب لتهجم على فريستها لكن من سوء حظها انك تستطيع أن تلمح بريق عينيها من بعيد.. لاحظ السائق تفحص عيناها للقصر ولم تنتبه

له إلا عندما قدم من جهتها ليفتح لها الباب، ساروا نحو الباب معا الكتف بجانب الكتف غير انهما افترقا ليتخذ كل منهما الدرج المقابل للآخر. شعر غالدي بالقليل من الدهشة لتصرفها لكنه اكمل طريقه بسلام ليجدها قد وصلت قبله. عبس وراح ليستفسر عن وصولها للدرج بهذه السرعة لكن كانت مريم بودي قد دقت الباب قبله لتفتح خادمة شابة الباب وثيابها تشع نظافة. انصرف عن سؤاله الأول واستفسر عن مكان الكونت لتجيبه الخادمة بصوت فتي:

- إنّه في مكتبته كالعادة.

سمع وقع خطى الخادمة وهي تمشي بعيدا، تردد صوت إيقاع الكعب في أرجاء القصر نتيجة للأرضية الرخامية، ساروا في الممر المؤدي إلى المكتبة في صمت لكن المحققة لم تنسى أن تطوق بعينيها المكان فقد كان القصر جميلا اكثر من الداخل. كان يكسو الديكور الداخلي لون البن وكذلك الأدراج المؤدية إلى الطوابق ذات الإضاءة القوية، وبعض الأثاث الأنيق من الطراز القديم، وبعض التماثيل الخشبية المجسمة، جمة العدد ومختلفة الهيئات منها لامرأة غلباء[4] في عنفوان شبابها فيها وصائف حسان، كالبدر وجهها بينما جفونها كالسيوف، لم تشبه تلك النساء ساكنات القصور. لم يختلف أهل الحكمة عندما شبهوا المرأة الفاتنة بالنار لأنها تشعل لهيبا في قلبك لا يمكن إطفائه إلا بالاستحواذ عليها، وإن لم تتمكن منها ستعيش حياتك كلها على ذكراها. كان القصر يعج بمظاهر الثراء الفاحش والقطع الثمينة. مشوا طويلا حتى نست من أين جاءت، وصلوا إلى أخر الرواق أين يوجد باب خشبي فخم تجمله نقوش جميلة. قرع غالدي ثيرون عدة طرقات على الباب ليسمع صوت خشن من وراء الباب يسمح لهم بالدخول.

---

4 - غلباء : عظيمة

- النساء أولا.

قالها بنبرة فرنسية فخمة تجعلك تأخذين انطباعا على أن هذا الرجل يفهم في الذوق العام والتعامل مع النساء. ولج الاثنان للداخل ليلمحوا الكونت قابعا خلف مكتبه العتيق الفخم متخذا لفافة تبغ في فمه وهو مقطوب الحاجبين عاكفا عن العمل وجمهرة من الكتب والمؤلفات تحيط به فوق المكتب، لذا نستنتج انه لم يكن من النوع المنظم. جالت عينا مريم بودي الغرفة واستنشقت رائحة الحطب التي يتخللها اللون الأصفر كالزعفران، كانت تشبه المكتبة بحق، غرفة فسيحة لديها جدران من الكتب في كل جهة تموج بعباقرة التفكير، تغريك للاسترخاء بجوارها رفقة كتاب. ولوحات لفرسان من القرن الماضي يلبسون أذرعا حديدية ويتوسط خصرهم رماح وسيوف والخيل من ورائهم، فكان ديكور المكتبة خالي من البهرجة عدا عن أريكة ذات لون بني محروق مصفر وتلك الآنية زهية الألوان الموصوفة فوق طاولة صغيرة، أما صورة الكونت فمعلقة من وراء مكتبه تتوسط الغرفة، جعلها معلقة هناك لكي يلمحها من يدخل المكتبة لأول مرة مثل نقطة جذب في بوصلة، كان الكونت لا يختلف كثيرا عن الصورة المرسومة له، يتمتع بلحية رمادية خفيفة وراس اصلع وانف يشبه المنقار وبنية جسمانية ضخمة. استحسنت الديكور الداخلي الدافئ ممزوج بين حطب البلوط الفخم. نهض الكونت بمجرد دخول الاثنين عليه في عزلته:

- حضرة الكونت اقدم لك ضيفتك المنتظرة الآنسة والمحققة مريم بودي.

مشى الكونت ناحيتها بابتسامة عريضة على شفتيه، كان أنيق الهيئة. مد يداه بيدها وعندما حاوطها بكلتا يديه المكتنزتين قال:

- حضرة المحققة مرحبا بك في قصرنا المتواضع، آمل أن الرحلة لم تعهدك مشقتها وان مساعدي كان لطيف الرفقة لك.

هم يقبل ظهر يدها. كان يختار ألفاظه بعناية بينما اكتسى وجه مريم بودي بشيء من الاحمرار، أجابت ببطء بعد أن استملحت كلامه:

- شكرا أيها الكونت اقدم وافر الشكر على هذا الاستقبال المميز، لقد كان مساعدك من احسن الرفقة. أنست به وأعجبت بظرافته وانا جد سعيدة لوجودي معك وتلبية دعوتك، فمثلك لا يرد.. أكملت كلامها بعد أن هز رأسه بتفهّم.. لا أريد أن أقول أي كلام يخلو من الفائدة ولكن تؤرقني الرسالة التي أوفدتها لي ولكي أكون محددة أكثر تلك الكلمات كانت كالحمل الثقيل على قلبي.

نظر إليها الكونت بتفهم وأشار لمساعده ليفهم هذا الأخير ويستأذن للانصراف بعد أن أدى رسالته.

- يعجبني فيكِ انكِ تدخلين إلى صلب الموضوع بدون تضييع أي وقت، احب هذه الصفة بكِ

بمجرد أن انصرف مساعده دعاها الكونت للجلوس بعد أن طلب منها ما تشربه لكنها لم تكن في مزاج لضخ أي شيء في بطنها المتمغص، لمحت نافذة مطلة على حديقة جميلة. جلسا مواجهين لبعضهم البعض كلاعبي شطرنج أو دبلوماسيين على وشك بدا مفاوضاتهم، ليتكلم قائلا:

- لكي تفهمي كل شيء أريد أن أعود بك إلى جذور هذه القصة، أولا أريد أن أعرِف بنفسي وبعملي بوجه التحديد.

اطرقت رأسها كعلامة إيجاب ليكمل كلامه:

- أنا الكونت رينارد لومير أنتمي إلى طبقة النبلاء في جيريفيل. وبحكم الطبقة التي أنتمي إليها أصبحت من رعاة الفنون الأثرياء وقد عهد لي بتسيير وإدارة متحف باردو اهم متحف في البلد الذي يجمع كل التراث التاريخي والإنساني والثقافي للجزائر. بالإضافة إلى العديد من الشركات التي لن يسعفني الوقت لذكرها ولك أن تتخيلي حجم المسؤولية التي تصب على عاتقي، خصوصا وأن هذا الكنز يغري الحاقدين على بلدنا من كل صوب. وبالفعل حدث شيء سيء لم يكن بالحسبان وما كنت أخشاه، لقد بدأت السرقات.

قالت بفضول شديد:

- سرقات؟

مسك كارها غليونه واخذ رشفة منه ليكمل:

- لقد بدأت اهم اللوحات في الاختفاء.. بدت دلائل الاهتمام على وجهها ليكمل مرة أخرى.. استعنت بالشرطة في بادئ الأمر مع الحفاظ على سرية القضية لكن بمجرد وقوع ثاني سرقة ادركت أن الشرطة وحدها ليست كافية. خمسون نعجة دون راع لا تؤلف قطيعا كما يقولون.
- ولهذا دعيتني إلى هنا؟ لإماطة اللثام عن السرقات؟
- نعم لأنني متأكد أن السرقات ستحدث مرة ثالثة ورابعة.
- وسأكون أنا بالمرصاد لها؟

عكف يشجعها بدون شطط أو مغالاة:

- تماما، أنت من المحققين الخاصين البارزين والقلائل حتى لا أقول المنعدمين في بلدنا، إنجازاتك سباقة وحسك الوطني اعلى من الكثيرين ولان الذكاء هو افضل صفة لك.

هزت رأسها وقالت موضحة:

- الوطنية وحدها لا تكفي، اعتقد بأن هذه اهم قضية سأعالجها في حياتي.
- تأكدي انه لن يكون بلا مقابل سأحرص أن أعوض عن وقتك بمكافأة قيمة، ولكن أرجو أن تحل هذه المشكلة قبل نهاية الشهر.

سالت بتردد:

- لماذا؟
- لان المشكلات حفر والعاقل من يسارع للخروج منها.
- لا اعتقد بأن هذا القول يمثل الحقيقة أيها الكونت.

هز كتفيه وأجاب:

- حسنا معك حق، لقد نسيت باني أمام امرأة حذقة الذكاء.. تبسمت فيم اكمل.. سيقام المعرض السنوي لتراث المنطقة وستعرض جميع التحف والقطع الفنية، ولك أن تتخيلي اذا عرف الناس أن اهم القطع في تراثهم قد سرقت، وأين في بلادهم وتحت وصاية الكونت لومير! إنها الفاجعة، لا أريد أن أواجه جمهورا حانق.

فكرت قليلا ثم قالت معترفة:

- يا لها من نكبة مفجعة ستكون فضيحة مدوية أنت في موقف لا تحسد عليه أبدا.

رد متحسرا وهو يزيل الغليون من فمه:

- سأجرد من كامل الامتيازات.. تدارك نفسه.. اعني سمعتي وتاريخ عائلتي سيلطخ!

قالت المحققة بلهجة الاحتجاج وهي ترمي بشعرها للوراء:

- لكن أيها الكونت أخر الشهر قريب جدا لا اعتقد أنني سأتمكن من حل لغز هذه القضية في هذه المدة القصيرة.

حك رقبته، انحنى نحوها وردد من دون تردد:

- أنا كلي ثقة بك أيتها المحققة، ولو حسب المزارع ما زرع[5]، سأكون حريصا أن لا ينقصك امر، كل شيء رهن تصرفك.

قالت مريم بودي بمزاح مبطن بجد:

- سيكون حتما تحديا لمواهبي كمحققة سرية. سيتعين علي إبراز مجدي، لكن أولا أنا بحاجة للاطلاع على التقارير الأولية التي بحوزة الشرطة.

أمعن النظر إليها في إعجاب:

---

5 - لو حسب المزارع ما زرع : مثال يضرب للحث عن الاقدام

- سأتصل بشرطي المقاطعة وسأطلب منه التعاون معك لحل هذه القضية، كما سبق وذكرت لك كل شيء رهن تصرفك يمكنك الركون إلي في أي شيء تحتاجينه.

سالت بفضول:

- أريد أن اطرح عليك سؤالا مهما، هل تشك في احد ما؟ اعني شخصية اجتماعية بحجمك وبمثل مكانتك لديه كل الأشياء التي يحسد عليها هل تشك في احد خصومك؟

قال بحزم:

- نعم بطبيعة الحال، أي شخص سيء السمعة في هذه المقاطعة، فمن يحاول سرقة بلاده هو شخص بلا شرف ومجرم. الخصم الحقيقي لن يكشف لك نفسه إلاّ في نهاية تحطيمه لك، لذا لا اعرف من بالتحديد ولا يوجد للأسف أي دليل لإدانة أي شخص.

غمغمت واطرقت رأسها مفكرة لتجيب:

- يتعذر الجزم بهذا الأمر، اذا لم نستطع معرفة حوافز السرقة. فلا يسرق الجميع لأنه خائن لبلده أو فقير يحتاج إلى المال هناك دائما حوافز أخرى داخلية مخفية كمناصبة العداء، أنا لا أريد أن أثير زوبعة في فنجان أو أوزع الاتهامات صدقني أيها الكونت، لكن لا ينبغي أن تخدعنا المظاهر وألّا نستهين بشان احد.

كأنها مست وترا حساسا لديه. بدت دلائل الخيبة في وجهه، تهاوى على مقعده وقال بصوت صارم:

- أنا أدرك بحكم خبرتك أنّك صادفتِ أناسا مجرمين من مختلف الطبقات والأشكال ولا أكتمك في شيء، قد فكرت في هذا الاحتمال طويلا من قبل مجيئك لا أريد حقيقة أن اصدق بأن أحدا من عائلتي أو من المقربين مني قد يكون له يد في الموضوع أو متورط. لأنّ هذه القضية كبيرة جدا وخطيرة.

ترددت قليلا ثم استطردت من جديد:

- لم اقل شيئا عن عائلتك أو من المقربين ولكن أن كنت تعتقد ذلك فيجب أن تكون مستعدا لجميع الاحتمالات سيدي لن يستثنى احد من التحقيق، فشمس الحقيقة آيلة إلى الظهور في أخر المطاف حتى لو اخرتها بعض السحب.

قال في شرود:

- سأصلي أن لا يحدث هذا الاحتمال، فوالله سيقسم ظهري.. تحدث بحذر.. ولكن أن حدث ما أنا خائف منه ستجدينني صارما كالعدالة، وأيا كان سيواجه غضب وعقاب من جهتنا قبل أن تتمكن منه الشرطة.

قالت المحققة في لهجة رقيقة:

- يسرني أن اسمع هذا منك أيها الكونت، هذا يدل على انك إنسان واقعي وصادق لكن افضل أن لا نتدخل في عمل العدالة فهي احق بتقديم العقاب.

سُمع دقات خفيفة على الباب لينتصب في جلسته، كانت الخادمة التي نبهت بشان موعد تناول العشاء.

- شكرا مادلين أنا آت.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءا. بينما راح يقول بلطف وأدب:

- ستشرفينني لتناول العشاء وسأعرفك على الجميع.
- بالتأكيد أيها الكونت.

قالتها وعلى شفتيها ابتسامة لطيفة. قدم لها ذراعه لتتأبطها بأناقة، ولكنها عمدت قبل مغادرتها المكتبة أن ترمي بوجهها اطراف المكان لترى شيء أثار اهتمامها قبل أن تخرج من الغرفة. كان الجميع يحاوط طاولة العشاء الفخمة المنظمة على نحو جيد منتظرا وصول الكونت وضيفته لينطق احد الحضور:

- لا اعلم لما قرر والدك أن يقحم شخصا غريبا لا نعرفه في القضية وكانه يريد جلب المزيد من الأنظار نحونا.

رمقته الأخيرة بنظرة متفهمة:

- أنت تعرف الكونت لا احد يمكن أن يغير رايه ولا حتى أنا واذا كان هذا الشيء سيساعده لكشف الغموض ومكان المسروقات لما لا نستعين براي خبير اذا، بما أن جهود الشرطة لم تأتي باي ثمار لحد الآن كفانا انتظارا وآن الأوان لإماطة اللثام عن هذه القضية.

ليجيب الرجل الآخر:

- لا اصدق بانني سأقول هذا لكنني اتفق مع دانييل فيما قاله، معرفة المزيد من الأشخاص عن ما حدث يجلب المزيد من الأعين علينا ومن ثم ما أدرانا بأن هذه المحققة ستتمكن من معرفة مكان المسروقات حتى الشرطة

لم يحالفها الحظ لكشفها. كان من الأفضل لو بقي الأمر ضمن نطاق العائلة والشرطة فقط.

لتتكلم تلك التي تعبث بهاتفها دون أن ترفع عينيها من عليه:

- غريب أن هذا الكلام يصدر منك أنت الذي تجلس على هذه الطاولة ولست فردا من العائلة حتى.

أكملت حديثها بابتسامة ساخرة لكن يبدو بأن هذا الكلام وقع كالصاعقة على المرأة التي تقابلها، تلك المرأة التي تنظر نحوها بعينين مشدوهتين:

- سكيل ! أين آدابك !! ما هذه العدائية المفاجئة أنا لم أعهدك سليطة اللسان هكذا.. رمقتها بنظرة غاضبة.. هيا اعتذري من مايز.

قالت في احتجاج:

- ماذا؟ أنا فقد عبرت عن راي مثل أي شخص أخر على هذه الطاولة.. تأففت.

- تعبرين عن رايك بأدب مثل الخلقة والان اعتذري من السيد.

قالتها معاتبة، هزت سكيل رأسها وقلبت عينيها لتجيب ملتفتة بتهكم:

- أنا آسفة.

لم يبدو عليه الانزعاج بل سعة الصدر عيناه لا تتحولان عن التي دافعت عنه. رمقته الأخيرة بابتسامة خجولة تشكره فيها عن رحابة نفسه. لقد كان حريصا على اتقاء الغلط اشد حرص.

- على ماذا أنت أسفة عزيزتي سكيل؟

قالها الكونت في لهجة أبوية بينما دخل فجأة بخطى ثابتة ومن دون سابق إنذار كضيف غفلة وهو يتأبط ذراع امرأة جميلة ذات شعر اسود قصير.

قالت المرأة متداركة الموقف بسرعة:

- لأنها تأخرت قليلا في المجيئ.

قال الكونت بغير اهتمام:

- نعم كالعادة ليس بجديد.

كانت رائحة اللافندر تملا الجو بعبقها. تابع مشيته الراقية حتى أوصل مريم بودي مثل رجل نبيل إلى مقعدها جاذبا لها الكرسي لتجلس. تبين أن زاوية المقعد التي اختارها لها مفتوحة على جميع الشخصيات الحاضرة باستطاعتها رؤية الأوجه الخمسة بدقة المرايا. بعد أن شكرت الكونت على نبله راحت تشاهده يجلس على كرسيه كالزعيم الثوري الذي يشبه الملوك في تجليه[6] كان مهيب الطلعة. بسط منديله على المائدة مثل اتيكات الملوك. أما الأعين التي تتفحصها من الجهتين كسرت بلحظة صمت يصحبها صوت الكونت الذي ظهرت عليه الجدية ليشرخ فضول المتعطشين من حوله لمعرفة أخبار السيدة.

- عائلتي العزيزة أعرفكم على ضيفتي المنتظرة المحققة مريم بودي.

---

6 - تجليه : عظمته.

كانت متعودة على تشخيص الأنظار حولها في مختلف المناسبات وتتلذذ بما تخلجه من نفوس الناس من هيبة ووقار، أن تكون محط أنظار الجميع هي افضل ثاني شيء تعشقه المرأة بعد المال. سواء كانت أنظارا محملة بإعجاب أو كره فهي ترضي غرورها أما المال فيحقق لها الاستقرار المادي في حياتها. بسط الكونت كفه وهو يشير نحوها مقدما إياها كما يقدم المذيع ضيفته المشهورة. ابتسمت ابتسامة خفيفة ناحيته عندما سمعت إطراءه[7]:

- أحد أشهر المخبرين الخاصين في الجزائر ومن أبرعهم استطاعت بحنكتها وذكائها أن تحل أصعب القضايا المستعصية والأخطر من نوعها.. تناول شوكته ليبدأ الجميع في الأكل بينما راح يتم حديثه.. الكل يعلم لما هي هنا.

- أوه أنا لا اعلم.

قالت البنت الجالسة على يساره بفظاظة. بينما رد عليها بنبرة سلطوية:

- اذا ربما من الأفضل لكي أن لا تعرفي.

رمقتها المرأة المقابلة لها بنظرة تحذيرية لتعود وتمسك بشوكتها من جديد بينما راح ليكمل حديثه لكن المحققة تحدثت قبله موجهة كلامها للفتاة:

- عملي هو القيام ببعض التحقيقات الخاصة.

أومأت الأخيرة بتفهم كالصبية المطيعة.

- لقد قررت استدعائها استنجادا بها لتكشف الستار عن قضية السرقات وأرجو منكم أن تكونوا من المعاونين لها وليس العكس.

---

7 - اطرائه : تجاوز المدح.

شاهدت تلك النظرة المخزية التي رمقها بها احد الجالسين. عرفها الكونت عن عائلته الصغيرة بدءً من ابنته البكر أدا وزوجها دانييل اللذان كانا يجلسان على يمينه، ألقى الزوج نظرة سريعة عليها، نظرة شديدة التكلف بينما رمقتها الأخيرة بابتسامة لطيفة وهي تقول:

- مرحبا بك

عاد الكونت ليتكلم من جديد:

- و هذا مساعدي الذي تعرفتي عليه من قبل مايز براون وابنتي الصغرى سكيل.

طالعتها الابنة الصغرى لدقيقة لتعاود النظر مجددا نحو هاتفها. سار العشاء بنحو متكلف وهادئ سوى من بعض الاحاديث الجانبية القصيرة التي راحت تظهر لتنطفئ بعد دقيقتين من جديد على الأغلب مثل النار التي يتلاعب بها الريح. والاحاديث السياسية التي يكون الفوز بها دائما من نصيب نظريات المؤامرة التي راح الكونت يبدي سخطه منها لكنه سخط مبرر.. بعد نحو ساعة من انتهاء العشاء بدا الوقت مثالي لبعض الاحاديث الطويلة الجدية.

قدمت القهوة والشاي عجوز مكتنزة تعرف برئيسة الخدم السيدة أمينة. بينما انتهزت مريم بودي الفرصة لخلق بعض الاحاديث مع الابنة الكبرى التي كانت تجلس مقابلها في كنبة مستطيلة. حيث راح الرجال الثلاثة يناقشون بعض الأعمال بينهم ويتجاذبون اطراف الحديث في الجهة المقابلة من الغرفة. أما البنت الصغرى فقد انسلت وهربت مثل اللص بحجة تأدية الواجبات المنزلية. كانت الغرفة رحبة تساوي بيت مريم بودي في الحجم ومفروشة بطريقة تدل على الأناقة والترف، غنية بالأثاث وزاخرة باللوحات الفنية والصور التذكارية المصطفة في إطارات فوق الموقد، مختارة بعناية لتتناسب الديكور الداخلي. ارتشفت القليل من القهوة وبنظرة تمعن لفنجانها قالت بصوت بشوش:

- أمم مذاق القهوة لذيذ جدا

أجابت أدا بنبرة برئنة:

- أنا مسرورة لأنها أعجبتك فانا اختارها بعناية ومن النوع الجيد، لأنّ زوجي من عشاقها.

راحت صورتها تتشكل فوق كوب القهوة لتبدو كرسمة لريم[8] انبثق منه رقة بشرتها تماما فوق زجاج القهوة كما في الحقيقة.. ذو جمال استثنائي. دفعت مريم بودي الخصلة التي انحرفت فوق جبينها معيدة إياها للخلف استرسلت في إعجاب:

---

8 - الريم : الضبي الخالص البياض.

- يسرني انه لازال هناك من تقدر زوجها وتهتم بالتفاصيل التي يحبها.

ابتسمت بخجل واطرقت رأسها مفكرة لتجيب بلهجة غريبة:

- صحيح أتعرفين ما يقولون؟ الشيء الذي تعبت للحصول عليه ستقدسين وجوده في حياتك.

حركت يديها على طول جدار الفنجان، كان صوتها جذابا.

- كثير من الناس يعتقدون بأن الظفر بالمحبوب يقلل الحب.

كان في داخلها تيار من الأفكار مثل الطوفان فاسترسلت تقول:

- إن كثيرًا من الناس يتوهمون الحب لكن ذلك لا يدوم طويلا فبأول عقبة تواجههم ينكشف لهم أنّ حبهم مزيف. صدق الحب وقوته يقاس بتجاوز العقبات التي تظهر.

أدارت رأسها في نهاية الجملة باتجاه زوجها وطالعته بابتسامة مأخوذة مع احمرار بسيط في وجهها لتستأنف الحديث من جديد:

- بالمناسبة الأغلبية أو الأقلية ليست معيارا للقياس بنظري هناك مفاهيم مهمة تأبى الخضوع والانحصار في هذا المقياس بل تختلف من كل فرد مثل البصمة الوراثية..

لقد أيقنت مريم بودي في هذه اللحظة بأن التي أمامها إما امرأة مغرمة أو ممثلة درامية باهرة. لكن خيل لها أنها شاهدت نظرات شخص أخر نحوهما لم تفهمها بوجه التحديد ليدير وجهه بسرعة كمن ضبط متلبسا. سألت المحققة بعد تردد:

- سيسرني أن اسمع عن قصة حبكما وكيف بدأت.
- إنها قصة طويلة.

أجابتها بسرعة:

- لدي كل الوقت الذي احتاجه لسماعها.

أمسكت قلادتها وعبثت بها مبتسمة للذكرى:

- إن قصتنا لم تكن ذات بداية جيدة مثل باقي قصص الحب بل متشابكة جدا لأنه كان ممثلا بسيط في بداية حياته المهنية لكنه لم يكن كأقرانه بل كان مميزا، بل دعيني أقول متمردا ولم يكن بقدر الغنى نفسه الذي يتمتع به والدي. كابدنا العديد من العقبات لنكون مع بعض وفي الأخير تحقق هذا الأمر.
- هذا يفسر الأمر فالناس تحب المتمردين.

لقد ادركت مريم بودي أنها لن تصارحها إلا بالقدر الذي تراه مناسبا ولن تفيض بمكنوناتها إليها، وجعلت القصة تدور فقط في دائرة القصص الخرافية وصراع الفتيان الفقراء مع أبناء النعمة والفتى الفقير الذي يغرم بالأميرة ويكابد الصعاب للحصول عليها.

- صحيح بأن الحياة كلها مقاومات ليس في قصص الحب فقط مرة تقاوم البحر ومرة يغرقك الواد.

لم تكن مريم بودي تود أن تلقي الأسئلة الروتينية أو السخيفة فقد عمدت على مواصلة أسئلتها بانتقاء:

- كيف تعرفتما أنت وزوجك؟

- في المسرح الوطني لقد درسنا مع بعض التمثيل.

هذا يفسر الكثير، إنّها ممثلة ! قالت في نفسها.

- اعذريني على هذا السؤال لكن لما خاطرتي بكل شيء في مغامرة لم تكون تعرفين نهايتها اعتقد أن عنفوان الشباب يجلنا نعمل أشياء جريئة وخطيرة أليس كذلك؟

قالت بدون أن تضيع لحظة واحدة في التفكير:

- كونك محققة أنا متأكدة بأنّك تتبعين حدسك في أغلب الأوقات وهذا لا يفوتني طبعا أنا اؤمن أن النساء يتمتعن بحدس قوي وكان علي أن اتبع ذاك الحدس.

هزت المحققة رأسها متفقة وقالت بصوت ناعم:

- اتفق معك في هذا الأمر حتما نستطيع أن نقرا أي موقف في الحال مثل البوصلة.
- عقول ذكية وألسنة قوية.
- لهذا نشكل افضل المحققات في العالم. افضل حتى من الرجال.

راحت تضحكان كالمخمورتين.. لكن مريم كاسرة المتعة عمدت على مواصلة أسئلتها كالطفل الصغير المزعج الذي لا يكف عن طرح الأسئلة لأمّه.. بعد موجة الضحك تكلمت:

- هل لازلت تمارسين مهنة التمثيل؟

نطقت في رزانة:

- لا لقد عمدت بعد الزواج على ترك المسرح. لأنّ الفن عالم بحد ذاته عكس ما يراه الناس العاديين بأنّه مجال فقط. الفنانون هم فقط من يرون حقيقة هذا العالم هو مثل الساحر الذي يريدك أن تنتظر منه أن يخرج لك أرنبا من قبعته لكنه يكسر تنبؤاتك ويخرج تفاحة، وجب على من يمتهنه أن يكرس حياته له. الفن لا يقبل الإنصاف أو المشاطرة بل يريد كل حياتك أو لا شيء. لا أريد أن اجعله يبدو لك كالشرير في القصة لا الفن عالم اجمل بكثير من العالم الواقعي لهذا يهرب إليه الناس.

وضعت المحققة ساقا فوق أخرى كجلسة أنيقة وأحاطت يدها اليمنى على فكها وهي تضيق عينها:

- كلامك يبدو مخيفا لكن اعتقد أن لكل مجال حسناته وسيئاته.

غريب كيف تتنقل النساء بين الاحاديث مثل البرق تراهم يضحكون كالمخمورين ثم بسرعة القطار تجدهن يبكين أو خائفات. هذا شيء أيضا لا يستطيع الرجال اكتسابه مطلقا.

- و هل أنت ربة بيت حاليا؟
- لا، اعني اهتم بالتأكيد بكل شؤون البيت بمساعدة الخدم ولكني أيضا اهتم بشؤون المتحف. فبصفتي البنت البكر لأبي من واجبي أن أعمل لصالح العائلة قبل كل شيء.

هزت مريم بودي رأسها مدركة ما تقصده:

- أه، نعم العائلة رأس الهرم، أول الأشياء وقبلها. اذا أنت تعملين في المتحف ! ما نوعية عملك؟
- أنا أمينة معرض بالإضافة إلى أنّه لدي مقعد في مجلس الإدارة.

- و زوجك هل مازال يمتهن التمثيل أم عكف عنه أيضا؟

- حتى زوجي يعمل في المتحف، لقد اصبح المتحف عمل العائلة ولم يتخلى تماما عن المسرح والتمثيل فهو يعشق الفن ولكنه لا يقبل بالأدوار العادية يحب أن يختار الأدوار التي تناسبه.

نطقت وكأنها اكتشفت شيئا ما للتو:

- اذا تتشاركون كلكم العمل في المتحف؟

هزت رأسها مجيبة:

- نعم كلنا حتى مايز الذي اعتبره مثل أخي العزيز.

قالت وهي تلمس جانب انفها بعفوية:

- لقد ذكرتني بالمثل الذي يقول عندما يعمل الإخوة معا تتحول الجبال إلى ذهب.

كانت ستتكلم ليقاطعها زوجها الذي ظهر فجأة كالولد الصغير الذي يتطفل بالجوار حاوط كرسيها من الخلف كما يحاوط النور المصباح وشد كل منهما على يد الآخر أبرقت أساريرها فجأة ليقول بصوت عميق:

- عن ماذا تتكلمان؟ أرجو أنني لم أكن أقاطع شيئا مهما!

كان طويلا ووسيم ويرتدي بذلة أنيقة. باختصار مستكمل الرجولة نظرت إليه بارتياح لتجيبه زوجته:

- كنا نتكلم عن قصة حبنا..

أخذ يدها ليقبلها بلطف متنهدا:

- أوه أيتها المحققة لم اكن أظن أن قصص الحب تثير اهتمامك

أجابته بسرعة:

- فقط القوية منها.

ارخى نفسه على الكرسي ليخرج سيجارة وهو يقول:

- عندما يكون البطلان بقوة إرادتي وبفرط جمالها ستكون حتما قصة حب قوية.

- ما أشد غرورك

أجابته زوجته بعينين مشدوهتين.

- اتركيني اقص عليها زاويتي من القصة.

كان يتكلم كما لو كان يؤدي دورا على خشبة المسرح:

- سأشبع فضولك، كان هناك فتى صغير كل همه في الدنيا أن يصبح ممثلا معروفا ولكن بعد أن وقعت عيناه على هذه الفتاة.. أشار برأسه لزوجته.. اصبح كل همه في الدنيا أن يفوز بها ويسرق أموالها، بعد عدة مخططات ومكائد تم الأمر بنجاح.

كان يشبه نفسه بالصياد الذي ينصب شبكته ليصطاد بها ويغري الطعم ليقع في حبائل شباكه. نطقت أدا وعلى شفتها ابتسامة ساخرة:

- يا لك من كاذب ماهر

استرسل في لهجة واثقة:

- الكـذب لا يعتبـر جرمـا في القـاموس الجنـائي ألـيس كـذلك أيتهـا المحققة؟ فانا لا اعرف أن كنتم تحكمون على الناس اذا كذبوا.

هزت رأسها سلبا مستقيمة في جلستها:

- نحكم فقـط على الوشـاية الكاذبـة أمـا في حالتـك قـد يكـون لسـانك يكذب ولكن واقع حالك لا يكذب. وتذكر دائما البدايات لمحة عن النهايات.

كان حانقا مثل طنجرة الماء المغلي، مسح انفه بظهر يده دون أن ينبس ببنت شـفة. لقد كانت تكره الوقاحـة فهي علامة على أن شخصية الإنسـان خساسة[9]. سارعت زوجته لنجدته بعد الورطة المحرجة، تحدثت في هدوء:

- إنّ زوجي خفيـف الـروح ويميـل إلى المـرح لديـه حـس دعابـة يفـوق التوقعات.

عمدت إلى تحسين صورته لكنه لم يأبه، وقد علمت أن الأمر سيتفاقم اذا لـم تتـدخل. سـاد جـو مـن الشـقاق. مجيئ الكونـت نـاحيتهم اعطى لهـم مجـالا للتنفس قليلا لكنه اسـتأذن للذهاب إلى النـوم ولحقـه بعـده الثنـائي. ظلت تحـدق فيهم وهـم يبتعـدون أمـام ناضـريها إلى أن اختفـوا بالكامل وراء الباب وهي تفكـر في كونهم ثنـائي غـامض جـدا. قطع تفكيرها صـوت احتراق الحطب في النار لتدير وجهها بسرعة ناحية الموقد، لمحت مايز براون الذي كان في أواسـط العمر وهـو يجلب الألواح الخشبية كالفتى المطيع إلى المدفئة ليستقر الدفـء في الغرفة. كانت قد نسيت أمره تماما. تفطن إليها وسألها إن كانت الحـرارة تناسبها قبل أن تدعوه إلى الجلوس معها وارتشـاف القليل من

---

9 - خساسة : سافهة ووقاحة.

القهـوة. اعتـذر عـن القهـوة ليعوضـها بكـاس مـن النبيـذ لكنـه لـم يعتـذر للجلوس معها بل استطرد ماشيا ناحيتها وهو يبتسم:

- إن كنت بحاجة إلى ونيس سأكون من افضلهم.

هتفت وهي تبادله الابتسام، مرتشفة من قهوتها:

- هذا يعتمد على إجابتك عن أسئلتي.

ضيق عينيه ليجبها:

- اشعر بأنّك تقوديني في طريق مليء بالفخاخ لتحمليني على الإفصاح عن مكنوناتي.
- لك كامل الحرية في العودة من ذاك الطريق اذا شعرت بعدم الراحة.

لقد استيقن بأنّها لن تترك له مجال للهرب حتى يرضخ لها:

- سأجيبك عن طيب خاطر.. هتف بلهجة راضية معيدا كاس نبيذه إلى الطاولة.. تفضلي

تحـدثت بسـرعة كالمراهقـة التي تخـاف أن تغير أمهـا رأيهـا في السـماح لهـا بالخروج:

- لقد لاحظت أن العديد من رسوماتك تغزو القصر.

كانـت عيناهـا تتحـرك يمينـا وشـمالا تجـاه جـدران الغرفـة التي تتخللهـا اللوحـات مثلمـا تتخلـل النجـوم السـماء. تكلـم مـن غير أن يخفـي دهشـته وارتفاع حاجبيه:

- أنا منبهر! لقد استطعت التعرف على رسوماتي!
- لقد قمت ببعض التحريات عنك.. قلبت خصلة من شعرها القصير في إصبعها وأكملت.. لا يعز علي شيء اكثر من التنقيب عن حياة الناس.

تأملها بابتسامة جانبية:

- آمل انك لم تتحصلي عن شيء يعيبني.. قال بسخرية
- يمكنك أن تطمئن بهذا الشأن.. هزت رأسها ثم ألقت عليه سؤال.. لما توحي لي رسوماتك بأنّها درامية وحزينة؟ لا اعرف هناك هذا الانطباع حولها.
- يا له من سؤال عجيب.

استفسرت في فضول ليرد:

- لأن الكثيرين لن يستطيعوا أن يلحظوا ما تعبر عنه اللوحات.

طالبت بالمزيد من التوضيح ليكمل:

- سأجيبك عن طيب خاطر. قعد على شط أفكاره لدقائق ليقول بعدها.. أتدرين ما يقولون أن الجروح الصغيرة تلتئم بسرعة.. والجروح الكبيرة تؤبى أن تلتئم.. أكملت مريم بودي قوله. شعر وكأنها سرقت جملته لم يكن يحب أن يقاطعه احد أثناء حديثه انطلق يتكلم من جديد برنة الاسى واليأس كعجوز في ملجئ يترقب موته في أي لحظة:
- كل إنسان يعبر عن مكنونات نفسه في عمله أو موهبته خصوصا الفنان لا يلقي خلف ظهره مشاكله ستجدينه يعالجها بطريقته الخاصة فيجذب عصارة أفكاره أو خلاصة تجاربه حتى لو كان الأمر ثقيلا على قلبه. مرآة الفنان هو فنه، فما يطمح الإنسان في حياته إلا أن يحوز تربة خصبة يطرح فيها نتاج قريحته، عسى وأن تنتج له نواة صالحة.

- أنت تتكلم وكأنك شيخ على عداد الموت وأن نجاحك ورسوماتك عبء عليك ومقوضة لسعادتك، أريد أن أذكرك بأنّك مازلت على عتبة الحياة.

هتف بصوت مستنكر مشبكا يديه في بعضهما:

- أنا لا احسب رسوماتي عبء أو مكدرة لحياتي بل قطعة مني وثمرة من جني قلبي وهذا ما يسمح لي بالعيش بأن أمارس الشيء الذي أحبه. لكن الإنسان مهما بلغ القمة سيميل حتى يقع في النهاية هذه هي دورة الحياة منذ الأزل فهي تشبه لعبة الدوامة التي يلفها الصبي بخيط ثم يرميها أرضا لتدور وتعود له من جديد.

- لا اخفي عنك أن جلسات الفنانين مليئة بالأنس، كلها شاعرية، أحب احاديثكم وقربكم ومعانيكم.. ثم نطقت بصوت صريح مرة أخرى.. أنا أرى بأن الحياة كالمعركة فإما أن تغلبها أو تغلبك، تستطيع أن تغلبها اذا تمسكت بطريق الحق وستغلبك بالتأكيد اذا اخترت الباطل، فأقدارنا في النهاية متعلقة بالطريق الذي نسلكه وسنتقاضى ثمن الشر أو الخير الذي عملنا به في حياتنا.

- أما أنا فأرى الحياة مثل اللوحة التي تبالغ في تحسينها إلى اقصى حدود الابتذال ستهترئ وتتمزق في الأخير.

كان يتكلم وهو يحرك يديه في الهواء كي يوصل رسالته مفهومة. استأنفت المحققة حديثها:

- أريد أن اعرف عن تلك اللوحة هناك.. أشارت بيدها نحو لوحة منتصبة في الزاوية.. تلك المرأة في اللوحة لديها وجهان الوجه الأول جميل جدا وناعم يعبر عن الطيبة والوجه الآخر بشع ملئي بالغضب.

شهدت لمعة عينيه كعيني الفهد وإشراق وجهه مثل إشراق الشمس لم تشهدها من قبل كأن عواطفه قد اهتاجت:

- أنا مسرور أنها لفتت انتباهك فمعناها عظيم ترمز هذه اللوحة إلى المرأة ذو الوجه الملائكي والوجه الشيطاني المرأة هي الحياة والأوجه هي أقنعتها المموهة ولكل شخص الحرية في اختيار القناع الذي يناسبه للعيش.

قطبت حاجبيها مجيبة بسرعة:

- لما الجميع يتكلم عن الأقنعة لا أفهم!

تريث قليلا ليجيبها:

- لأنهم عرفوا الحياة على حقيقتها.
- بل هم الذين يخفون حقيقتهم خلف الأقنعة.. مضت تقول.. بالمناسبة ليس بالضرورة أن نختار احدى الأقنعة فهناك من يتفنن في تغيير الأقنعة حسب الظروف التي يقتضيها الأمر.

هز رأسه كعلامة إيجاب:

- أشاطرك الرأي الفرق بين الحسن والقبيح ابراة رفيعة تسمى الروح اذا كانت روحك جميلة حتى لو امتلكت وجها قبيحا فسيراك الناس جميلة أما اذا امتلكت نفسا دميمة فسيراك الناس بشعة حتى لو امتلكت جمال العالم.

لم تر التعبير العجيب على وجهه لأنها نهضت من كرسيها متجهة ناحية باب زجاجي كبير يختبئ خلف ستار رمادي منسوج بدقة أخذت بعضا من الستار لإبعاده لتحاول أن ترى بشكل واضح:

- الى أين يؤذي هذا الباب الزجاجي؟

التفت إليها ولكنه حافظ على نفس وضعيته في الجلوس:

- إلى الحديقة.

استطردت تقول:

- هل يمكن أن يدخل عبره شخص قادم من البوابة الرئيسية؟
- لا لا يمكنه إلا اذا قفز من فوق الجدار.

غريب فقد خيل لها أنها رأت خيال شخص ما في النافذة، هل كان هناك احد يسترق السمع ويتلبس في الظلام فيختفي في الخواء؟.. ارتابت للأمر، كان المكان معتما وخمنت أن الكاميرات تغطي هذه الجهة من القصر. خطفت عيناها ناحية القمر الساطعة كهالة من نور، كانت تمتلك عينا يقظة عكس الجالس معها. نظرت إليه من ركن عينيها، سارت ببطء نحو الموقد لتخرج من جيب فستانها لفافة تبغ مكدسة، ولعتها من نار الموقد وعكفت إلى مقعدها وهي مقطبة الحاجبين قبل أن تمسك عنها ثوبها الذي كان يعيقها في الجلوس مثلما تمسك الخادمة طرف ثوبها لتعجن الغسيل برجليها. نظر متسائلا:

- ما الذي يشغل بالك؟

يا له من حاذق وقوي الملاحظة، أخذت خصلة من شعرها المسكوب على جنبها لتضعها خلف أذنها، من جديد أجابته:

- متعبة قليلا من أثار السفر.

لم يفوت الفرصة ليسألها ذلك السؤال الذي لا طالما اختمرت فكرته برأسه، كان كلامه موزونا. ربت على وجنتيه متحدثا:

- ما الذي يحملك على هذا؟

ابتسمت وهزّت رأسها ببطء:

- على ماذا؟

- على تعريض نفسك للخطر والخوض في مجال صعب وخطير كهذا. هل الشهرة والنجاح يستحق عيشك في هذا الخطر الدائم؟ سكت ثم تابع.. قرأت بأنّك كدت تفقدين حياتك في القضية الماضية.

تلاشت ابتسامتها بسرعة وضحكت ضحكة عالية بفمها الرفيع تردد صداها في الغرفة مما جعله يتفاجأ لردة فعلها، تنهدت:

- تعرف ماذا يقولون الناس في هذا الصدد؟ "أنّ للقطط سبعة أرواح وللمرأة أرواح سبعة قطط"

نظرت له من جديد ساحبة نفس من النيكوتين الذي تستنشقه، مخرجة غيمة كبيرة من الضباب لترد عليه باستخفاف بينما راح الآخر يتمعنها بدقة:

- اجد لذة في الخطر لا أجدها في الأشياء العادية.

ارتفع حاجباه تعجبا من ردة فعلها كما يرتفع القوس في السماء العالية:

- يجب أن تكوني حذرة وان لا تستنفدي الأرواح الست المتبقية، أنا عكسك تماما المتعة الخطيرة لا تستهويني، أفضّل الأشياء بعيدة المنال.
- أحب الأشياء إلى الإنسان هي التي يحرم منها.

بعد أن اطمأن بعض الشيء قوست ظهرها وانحنت بجسدها ناحيته ليصبحا متقاربين وجها لوجه واستطردت:

- الآن حان دوري للسؤال.

تأمل تفاصيل وجهها وهي شديدة القرب منه كانت جميلة ولكن بطريقة خطيرة لم تحز على الجمال الناعم مثل المرأة التي يحبها أو كالنساء العصريات اللاتي يتفنن في صبغ شعورهن ووجوههن بالمواد التجميلية التي يحسبن أنها تحت خدمة جمالهن ولكنها العكس تماما تظلم حسنهن ويشق للناس النظر لهن، الجمال المتصنع لا يدوم أبدا له تاريخ انتهاء صلاحية قصير ويطمس جميع الملامح الطبيعية. كان انفها مستقيم شبيها بالرماح وعينها لوزيتان شرستان كالذرة الفريدة، وطفاء[10] الأهداب، أما الشامة التي تتوسط خدها الأيمن فكانت أعجب ما يرى الراؤون، تمنى لو تحوزها حبيبته أيضا. ببساطة كانت امرأة أرِية[11] التي إذا ظفرت بنظرة منها ملكت الدنيا. لقد أدركت بأنّه يتفحص قسمات وجهها لكنها لم تحفل بذلك فعينيه المستحسنتان تركتها ثقة بجمالها:

- تفضلي.

أجابها بهدوء لتسأله بفضول:

- ما الذي يجعل رساما موهوبا ذو فن عظيم مثلك يترك أوج شهرته من أن يجوب العالم احتفالا بنجاحه ويعزف عن الدنيا ويقتصر بالبقاء بقصر

---

10 - وطفاء : غزيرة الأهداب.
11 - أرية : عندما يجتمع الدهاء والبصيرة بالأمور.

في بلدة ما، ويرضى بوظيفة عادية اقل مما يستحق بكثير؟ أنت حتىَ لا تربطك صلة دم أو نسب بالكونت.

ليس هناك وصف أدق لحالته سوى انه اصبح كجرة مكسورة، امسك رمقه لم يبدو عليه الانزعاج كان يتمتع بمرونة الشيوخ الحكماء مثل العملة النادرة، امسك نفسه وارتشف من نبيذه ليجيبها بمثل مشهور:

- الخل المجاني أحلى من العسل.

فكر في قرارة نفسه ما الذي يجعلها تطرح هذا السؤال الغريب لم يرتكب أي هفوة لكنه لم يكن حريصا على نفي الغموض. ابتسمت ابتسامة عريضة وهي تهز وجهها:

- فعلا إنّ الوجوه واهمة.. خذ مثلا أنت ذو وجه ملائكي وفنان مشهور لكن روحك وتفكيرك شيطاني.

لعب بشعره وابتسم بسخرية:

- إن الكونت من رعاة الفنون الأثرياء وسيقوم بأي شيء ليتحصل علي في قصره.

كانت حريصة على إنصافه لسبب ما فقد قرأت في عينيه الواسعتين الحزينتين جيشا من العواطف والحزن يتصارعان في حدقته، أخذت يدها طريق لوجنته لتستقر عليها من غير تردد أو تحفظ تلك اليد الحانية التي تشبه يد الأم التي تمدها لصغيرها، قالت وكأنها تتحدث إلى طفل:

- سأقول لك لما لا تستطيع ترك كل شيء والذهاب بعيدا لأنك تجد متعة هنا لا تجدها في مكان أخر. يا ترى ما هي هذه المتعة؟

غمزت له في آخر الجملة. تغيرت عيناه المعبرتان الآن ليكسوهما السواد من جديد إيذانا بالحداد الذي يشبه الفحم في سواده، كان مثل اليتيم الذي بمجرد ظهوره في الحياة يموت أبواه، لقد تهرب منها وشحب وجهه وخانه النطق لكنه ابعد يداها بسرعة كمن يلوذ بالفرار، واقفا بهيئته المتأنقة وهو يقول بصوت مضطرب متفاديا النظر إليها وموجها رأسه ناحية النافذة، متأملا ظلمة السماء، سوى من ضوء القمر الخجول:

- كاد ينتصف الليل واعتقد أن جلستنا قد طالت.

تكلم كمن فقد شهيته عن الأكل. التلميح كان واضحا، تنهدت بارتياح وهي تقابل الكرسي ذو الذراعين الفارغ أمامها وقالت بلهجة إشفاق، أحست بأنّه ينفر منها:

- اعتقد أن عليّ أخذ قسط من الراحة.

بقي يحدق فيها بسكون مطلق وهي تنهض من الكرسي طالعته برثاء لتتكلم:

- هل يمكنك أن تفسح لي المجال للعبور؟
- طبعا اسف

تكلمت وهي تبتعد:

- طابت ليلتك.

أخذت تتمايل في مشيتها تمايل السكران من التعب ليتهالك الأخير على احد المقاعد مرخيا ربطة عنقه كأنها حبل مشنقة تنفرد بروحه، هام مكتئبا في الفراغ الذي تركته يصارعه لوحده منغمسا في أفكاره.

امرأة عجيبة

فتحت المحققة الخاصة عيناها على الضوء الساطع الذي ينساب من النافذة الزجاجية الضخمة، كان الضوء قويا مثل المصباح المسلط على المشتبه بهم في غرفة المتهمين مما سبب لها الإزعاج وجعلها تفرك عينيها مثل الصبي الذي توقظه امه للمدرسة وهو شبه نائم. لم تنم طويلا لهذا أحست بالتعب أخذت بعض الثواني من الوقت كي تستعيد إدراكها من النوم فقد نسيت أين هي. هبت واقفة كالسلك الحديدي المجعد بعد أن لمحت الساعة التي كانت تشير إلى التاسعة صباحا سمعت صوت قوي مزعج ذو ضوضاء تصم الآذان، لتلمح من النافذة عجوزا في أبواب الثمانين من عمره ذو شعر ابيض يعتمر قبعة من القش ويقوم بجز العشب الضار من الحديقة مثلما يفعل الحلاق بشعر زبائنه لكن سرعان ما ينمو مجددا اسرع واقوى. وقفت على أطراف أصابعها وهي تبتلع بأنفها نسيم الصباح البارد، كان صباح خريفي بارد لكن ما عسانا نقول عن الخريف سوى انه طقس ذو تقاليد استثنائية، تصوغ فيه الألحان والقصائد. الشمس كانت مفتوقة بفعل السحب كقالب الحلوى. أما الرياح الخريفية الصاعقة أبت إلا أن تحرك الأشجار يمينا وشمالا كالأرجوحة بينما كانت الحديقة مثل سجاد اخضر لملعب الجولف، منسقة على نحو جميل بأصناف الورود المختلفة. كان هناك طريق حجري طويل في وسط الحديقة يُمَكِن الناس والخدم من المشي فيه حتى لا يدوسوا بأرجلهم فوق العشب. لمحت مدبرة المنزل وهي تخط برجلها الطريق تسير بخطى بريئة محملة بكيس من الورود المقطوفة حديثا من الحديقة بمجرد أن لمحتها عاودتها ذكريات البارحة تصعد كالدرجات في غرفة تفكيرها.

البارحة في منتصف الليل إلا ربع..

خرجت المحققة من غرفة الاستقبال متجهة إلى غرفة نومها وما إن أدارت رأسها إلى الجهة اليمنى حتى تصادفت مع الابنة الصغرى للكونت سكيل وهي آتية من ناحية الدهاليز المؤدية للباب الخارجي والحديقة، كانت تمشي بحذر مثل القطة كما لو أنها لم ترد جذب الآذان نحو وقع قدميها، نظرت حولها بارتباك مثل طفل مشاغب قام بعمل سيء وخاف من ردة فعل امه، صعقت الفتاة لما رأت المحققة قبالتها وراح وجهها يتلون بأشكال قوس قزح بينما اتسعت حدقتا عيناها رعبا. ظهورها المفاجئ جعلها ترتعب، قالت بعد أن اطلقت شهقة خفية واضعة كف يدها على قلبها جامدة في مكانها كالتمثال:

- اممم مساء النور أيتها المحققة.. لقد نزلت كي اروي عطشي.. هتفت بلسان متلعثم كي لا تعرض نفسها للظنون. هزت مريم بودي رأسها في شك كبير وضيقت زوايا عيناها وهي تفكر.. غريب.. ملابسها توحي بأنّها لم تنم بعد شعرها البني كان منسدلا وفمها مصبوغ بأحمر شفاه شفاف. تفرست في شكلها بالكامل مما أدى بالأخيرة إلى القفز فوق السلالم مسرعة نحو غرفتها لم تترك لها المجال لتتكلم. كانت السلالم الرخامية من النوع الضيق الذي يشق فيها السير وخصوصا الجري أما مريم بودي فقد عمدت على الارتقاء فيها كأنها فرس وهذا يدل على شيء أنها لم تكن تظن أنها ستلتقي بأحد عند الأدراج، والاعتقاد الجازم الذي لا يقبل التشكيك هو الذي تتبعه التجربة، وما يمكن أن نستنتجه أنها ليست المرة الأولى وهي غالبا عادة أما المباغتة فجعلتها تتصرف بخطى غير مدروسة وبارتجال مما جعل عضلاتها تشتد. يكتسب الجسم الكثير من الطاقة عندما يباغت هذه حقيقة علمية قراتها في احدى المجالات الشهرية التي يطالعها مارشملو. لم تعرف مريم بماذا تفكر خصوصا أنها لم ترد بعد أن توزع الشبهات منذ اليوم الأول لها في القصر، لكن هذه المسألة لا تنافي استفسارها المطروح حول إمكانية كون

هذه الفتاة هي الشخص الذي كان يتنصت للمحادثة بينها وبين مايز. لم يدم إسهابها طويلا كما لن يدوم رقاص الساعة على إتمام الدقيقة حتى أصغت إلى وقع خطوات خلفها، أدارت رأسها بسرعة للوراء من فوق الدرج مثل الريح عندما يغير اتجاه الشراع لتشاهد مدبرة المنزل التي كانت على وشك أن تغير طريقها وتعود أدراجها عندما لمحتها تسمرت في مكانها كالقوس الذي يطلق لهدف معين حتى يستقر فيه نظرت بعينين مدهوشتين ووجهها فقد لونه عجزت عن المشي وانساب الخوف إلى روحها كأنها شلت لكنها استعادت رباطة جأشها وبادرتها بالقول كما لو أنها غير واثقة في خطوتها التالية:

- آنسة بودي لقد كنت ابحث عنك حتى اقدم لك غرفتك الجديدة لقد جهزت لك غرفة في غاية الراحة.

تبسمت مما أدى إلى بروز وجنتها المكتنزتين. طالعتها مريم بغرابة وهمهمت.. مشت ناحيتها وسبقتها مستطردة القول:

- اتبعيني من فضلك.

طالعتها بنظرات فضولية وحائرة بينما راحت تتأمل ظهرها من الخلف وهي تسير مفكرة من جديد، تصرفات أفراد هذا القصر غريبة ابتداء من الخدم إلى أصحابه. لقد انتشرت بذور الشك في مزرعة عقلها.

العودة إلى الحاضر..

تداركت نفسها عندما لمحت الأخيرة أمامها وهي تصب كاس العصير، قطعت حبل أفكارها بينما اكتفت الأخرى بالنظر إليها بعينيها الحادتين. صبت لها القهوة لها بقناع بارد، كانت سيدة نشيطة لا تميل إلى السكون بالرغم من امتلاء جسدها بالسمنة، وفي عينيها بريق يشع ذكاء وخبث. التقطت أنفاسها وقالت:

- بعد أن تفرغي من قهوتك أوصاني الكونت بأن أخبرك أن السائق سيكون تحت تصرفك، وبانتظارك ليصطحبك إلى الوجهات التي ترغبين بها.

اكتفت المحققة بهز كتفيها كإجابة لتنسحب الأخيرة في صمت. كما كان الحال بمجرد خروجها من الباب شاهدت المساعد الشخصي للكونت، غالدي ثيرون، الشاب المرح وسيارته السوداء بانتظارها حيته وقفزت في السيارة وعلى شفتيها ابتسامة ساحرة، بعد أن أخبرته بوجهتها تأملت الطريق الجميل الذي تغوص فيه السيارة كان طريقا مرصوفا بالحصى يؤدي إلى بطن الغابة ثم ما ينفك أن يظهر حوله نهر جميل، عمدت على انزال نافذة السيارة فأصبحت شعيراتها التي تحركها الهواء ترتعش كالريشة. كان النهر يظهر هادئ على السطح لكن يمكنك أن تخمن بأن جوفه مليء بالأسرار. استشعرت يد القدرة الإلهية في الإبداع والتي لم تخلق شيئا عبثا. لقد كانت جيريفيل من البلدات الأوفر حظ بالمناظر الطبيعية الجميلة التي تزخر بها، أحست أنها تمشي في طريق الفردوس كانت تستمتع بالمنظر حقا، الأشجار قد تعرت من غطائها الأخضر وأبت إلا أن تملئ الطريق به. كان انحتات ورق الأشجار مهمة بعض العاملين الذين راحوا يتوزعون في المكان كالنمل محاولين إزالته من الطريق. فكرت في شراء بيت في هذا الحيز الهادئ من البلدة لكن كالعادة حلمها لا يكتمل أبدا ويقاطع في كل مرة مثل الثمرة التي تفسدها الحشرات قبل أن يكتمل نضوجها، رآها غالدي تتمعن في النهر فأورد يقول مديرا رأسه بحدة ناحية النهر:

- لا يجب أن يخدعك بهدوئه فهو يفيض في فصل الشتاء على طول المنطقة مما يجعل أمواجه عظيمة المد.

وراح يشرح لها بيده كيف يهيج النهر ويغلق الطريق.. حضي باهتمامها لتنطق بتساؤل وهي تميل بوجهها إلى اليمين كي تبصر انعكاس عينيه في المرأة الأمامية للقيادة:

- أوه حقا، وكيف يتمكن السكان من الوصول للبلدة اذا كان الطريق الرئيسي مسدودا؟

- هناك دائما طرق جانبية نسلكها في أوقات العاصفة، طرق مختصرة لكنها سيئة ومتعرجة تحاوطها السهول والجبال.

عاودت النظر باتجاه النهر ذو اللون الفيروزي جماله يمنعك من أن تسيء له، واستطردت حالمة وعيناها تتمعنان البجعة التي تسبح فوق المجرى المائي:

- صوت هذا البجع مثل آلة موسيقية تلخص عزف أوركسترا لوحدها.

- نعم صحيح البجعة من الطيور التي تغني بصوت رائع قرب موتها..

غمغمت بحزن واسى. سكت قليلا ثم تابع حديثه:

- إنها ليست المرة الأولى التي تأفل فيها الحياة عبر النهر.. طالعها في المرآة الأمامية ليكمل.. في العام الفارط وقع حادث مزعج بسبب هذا المجرى المائي.

طالبته بالمزيد من الإيضاح، هز وجهه النحيل إشفاقا وأصغت إليه وهو يسرد عليها:

- عندما فاض النهر في العام الماضي فقدنا مسيو جونز أحد أعمدة وسادة جيريفيل كان من بين المؤسسين لهذه المدينة. فمنذ أن أحيل إلى المعاش اصبح يجد الكثير من الوقت للقيام بهواياته المفضلة، ذهب إلى النهر

كي يصطاد بعض الأسماك لكن افتقاره للحظ جعل النهر يفيض في نفس الوقت الذي كان متواجدا فيه مما أودي بحياته على الفور.

انتفضت في جلستها هاتفة:

- فعلا التوقيت عجيب!

- لهذا قلت لك أن لا تنخدعي بجمال هذا المجرى المائي فهو غير رحيم بمن يعتدي عليه.

تنهدت تنهيدة عميقة لتقول:

- ليس هناك موت أبشع من الموت الفجائي.. الذي يصحبه تنكيل.

قال بلهجة لا تقبل الجدل:

- التنكيل من شيم البشر فقط وليس الطبيعة، يتنمرون عليك طوال حياتك خصوصا اذا كنت مختلفا عنهم سيحرصون على أن تعيش الجحيم قبل موتك وعندما يتأكدون من أنّك مت يأتون محملين بسلال الكعك والحلوى إلى الجنازة معبرين عن فرحهم من تخلصهم منك.

لم تزد عن هز رأسها وهي تراقبه بغموض. تصاعد استيائه مثلما تتصاعد الحمم على قمة البركان الذي يثور في أي لحظة وظهرت خطوط الاستنكار بجانب فمه:

- إنّ الأقدار تضرب كميزان العدالة، لقد استمر في طغيانه وهو يحتل النهر ويستخرج منه خيراته متناسيا غضب الطبيعة اذا لا يمكننا لوم النهر عندما رد له الصاع صاعين.

قالت محاولة مجاراته:

- الطبيعة هي أم الإنسان لكن الإنسان كالولد العاق.

استحسن سرعة جوابها:

- الإنسان كائن مخرب يخرب جميع شيء تقع عيناه عليه وينسى بأن لكلّ فعل ردّ يقابله وللأقدار كلمة أخيرة تقولها.

كان الاشمئزاز باديا على وجهه، جفلت والقت نظرة خاطفة سريعة عليه كان غاضبا جدا. كانت تحترم الرأي الآخر لكن شعرت بأنّه يبالغ فيما يقول خصوصا لشخص مثلها يتأمل كل الصغائر من الأمور ببصيرة الحقائق. أسلوبه يفتقر إلى الدبلوماسية واللطف وذو نظرة تشاؤمية. لم تكن تظن بأنّه من ذاك الطراز الذي ينفعل ويغضب إلى هذا الحد، لقد أحبت جانبه المرح اكثر ولم تتعود على جانبه المتذمر، كما لاحظت بأنّه ظل يخلع يديه من على المقود طوال الرحلة القصيرة. قالت في تفكير وهي تزداد حذقا:

- يبدو بأن النهر يشبه سكانه، لن تعرف حقيقته أبدا.

كانت المسافة باتجاه المقاطعة ليست ببعيدة حوالي نصف ساعة فقط، لم تحص محققة بالوقت يمر بسرعة البرق لأنّ غالدي كان كثر من الأشخاص المرحين الذين قابلتهم في حياتها، بعد نوبة التذمر التي انتابته عكف على أن يزيح ضبابة التشاؤم ويعوضها بسحابة السرور، لم تشعر أبدا بالضجر معه وهذا ما يجعل رفقته ممتعة. نزلت من السيارة أمام مكتب مقاطعة الشرطة واستفسرت عن رئيس شرطة المقاطعة لم تقضِ وقتا طويلا في الانتظار لأنه بعد عدة طرقات خفيفة على باب المكتب استقبلها بحفاوة ملحوظة. مدت يدها له ليفحصها بعينيه من اعلى إلى

اسـفل قـدمها، إن عيـون الرجـال تشـبه الليزر لـن تمـري بجانبـه بـدون أن تأخذي مسحة من ضوئه بينما كان وجهه الذي تعتليه ابتسامة يلتمع عرقا كالزجاج الذي تعرض للابتلال وعيناه مثل الثقب في العجين لشدة صغرهما مقارنة بخديه الضخمين، كان بطنه الممتلئ بالدهون يعبر عن شخص قليل النشاط والحركة.

- لقـد تلقيـت اتصـالا مـن الكونـت وقـد شـرح لي كل شيء، سيسـرنا أن نعمل معا في هذه القضية، خصوصا مفتشة ناجحة مثلك. إنها بادرة حسنة من الكونت، لكن لا اخفي عنك امتعاضي قليلا.

قالها بلهجة التكلف ثم دعاها للجلوس، ليغرق في كرسيه الذي لم يسعه فراح ينقسم لحمه من فراغات الكرسي المكشوفة مثل ساندويتش البيض بينما جالت عيناها على المكتب المهترئ والكراسي قديمة الطراز. كانت أغلفة الوجبات السريعة تملئ سلة النفايات وبعض مساحات المكتب أما المساحة المتبقيـة منـه فكانـت مكدسـة بالرسـائل والتقـارير والملفـات ذات الألـوان المختلفة، بمجرد النظر إلى المكتب ستود أن تغلق عينيك لدقيقة لتعطي لهم الراحة من هول الفوضى، راودتها موجة عارمة من التقزز والاشمئزاز خصوصا عندما نظرت له من جديد فقد كان قصير القامة وبدين وغير حليق !، قالت باقتضاب متداركة موجة الدوار والقيئ التي راودتها:

- لا أريد أن يسبب مجيئي أي مشاكل أو عدم الراحة لاي شخص.

قال مندفعا بعد أن سعل على نحو كريه:

- ليس وجودك هو الغير مرغوب فيه وإنما تواجد بوليس سري خاص في المدينة يحمل الناس على الاعتقاد باننا شرطة بائسة وغير محترفة ولسنا

أكفاء للكشف عن الجاني، سوف تتحامل الألسنة علينا ونصبح ميدانا رحبا مثقل بالاستهزاء والإشاعات على ألسن مراكز الشرطة في المقاطعات المجاورة، وهذا آخر شيء نوده حاليا.

- لكنها الحقيقة!

حملق فيها مدهواشا مطالبا بإيضاح لتتدارك نفسها:

- أعني أن المجرمين هم من يعتقدون بأن رجال البوليس أغبياء، وان يكن التظاهر بالغباء من الأساليب التي تتبعها الشرطة للإطاحة بالمجرمين !

هز رأسه ثم استطرد محنقا:

- إن معرفة تفكير المجرمين هو من اختصاصك ولا أستطيع أن أجادلك فيه.

- هناك قضايا يستعصي على الشرطة وحدها حلها ولهذا وجب التعاون فيها مع محققين آخرين خصوصا أن الوقت يمر بسرعة وكلما سارعنا في فك طلاسم القضية كلما تجنبنا المزيد من السرقات.

سألها بعد تردد:

- نجاحك المتتالي في القبض على المجرمين يدعو إلى المفخرة بحق، كيف عكفت على الحفاظ على درب النجاح هذا من دون أن تتزحزحي منه طوال هذه المدّة؟

قالت وهي تقلب عينيها بانزعاج:

- أوه.. أيها الرئيس سيرتي المهنية هي أخر شيئا أود الحديث عنه حاليا صدقني، لدي مجرم مجهول الهوية في مدينة اقل ما يقال عنها أنها المدينة

الفاضلة التي ذكرها أفلاطون في كتبه. البحث عن مذنب هنا كأنك تبحث عن ذرة ملح في كيس مليء بالسكر.

تنهدت في ضيق ليقلب شفتيه باحتقار. سألت بلهجة عملية:

- كيف يسير التحقيق؟

قال بجفاء وهو يحك انفه:

- مازلنا نتخبط في البداية وفي حوافز السرقة، لكننا نعتقد بأنّها جريمة مدبرة ومقصودة لم نحصل على كافة المعلومات بعد لكن لازلنا نبحث.
- السرقات والقتل تصبح عادة عند المجرمين خصوصا اذا لم تتم الإطاحة بهم سيكسبهم هذا المزيد من الثقة في النفس.

عكفت على طرح الأسئلة:

- هل الجرائم سائدة في جيريفيل؟

شاهدت نظرة الاشمئزاز في عينيه:

- أبدا، جرائم القتل والسرقات نادرة جدا في هذه المدينة الوطنية الراقية وأناسها ذواقين للفن بكل أنواعه قلما تجدين حوادث هنا، لكن يبدو بأن هناك أشخاص يؤرقهم تميز هذه المدينة عن غيرها. جرعات الحقد صارت أكياسا يصبونها لنفوسهم الخبيثة فراحوا يضعون المؤامرات هنا وهناك لكنها مؤامرات لن تصلح، لأننا لهم بالمرصاد وسنوجه العديد من الصفعات لأوجه المتربصين.

استمعت إليه باهتمام ثم أخرجت مفكرتها الصفراء ودونت ما تراه جديرا بالتدوين، بدا عليه عدم الرضى ليقول بصوت غليظ:

- لا أريد أن أشغلك عن تحقيقك أو آخذ المزيد من وقتك.

تحرك بعدم ارتياح عبث ببعض الأدراج قبل أن يخرج بعض الملفات الحافلة بالأوراق لينطق بضيق:

- تفضلي جميع الملفات التي تحصلنا عليها من إدارة البحث الجنائي بما فيها أقوال الشهود.

نقبت في الأوراق قبل أن تسأل بفضول:

- كم شخصا خضع للاستجواب؟

مسح جبينه من العرق وهتف مفكرا بجدية:

- لم نستجوب العديد من الأشخاص نظرا للسرية التي ارتأينا أن نحاوط بها القضية، وجميع من استجوبناه وأخذنا إفادته موجود في هذه الملفات من بينهم عمال المتحف، سوف أحمل لك التقارير التي تصلني.

شكرته بعد أن إستأذنت للانصراف وانطلقت إلى وجهتها الثانية، المتحف. بينما تركت الجالس على مكتبه يرتعش مثل ورقة الشجر وهو يكلم نفسه:

- امرأة عجيبة.

المتحف

اصطفت السيارة الفخمة السوداء في نهج فرانكلين روزفلت أرقى الشوارع في جيريفيل التي تتميز بالهدوء المطبق، وبالضباط أمام البوابة العظيمة لأرقى المتاحف في الجزائر وشمال إفريقيا الذي يشغل منذ عام 1985كمعلم تاريخي وطني. تبادل السائق عدة كلمات مع الحراس عقب السماح لهم بالمرور وانتهزت المحققة الفرصة لتتدبر اللافتة الرخامية اللؤلؤية المنقوشة باسم " المتحف الوطني باردو"، هذه التحفة الفنية التي يعود تشييدها إلى القرن 17 من طرف أمير منفي ليتخذه قصرا له. شرع المتحف أبوابه مثل الكتاب الذي يفتح لك صفحاته لتتعرف عليه، ومما لمحته، كثرة الرخام الذي لم يكن مقتصرا فقط على اللافتة الخارجية بل حتى النافورة النفاثة التي تتوسط باحته والحوض الرخامي الكبير في شماله، وبعض الأصائص المربعة الموزعة فوق مساحته مثل الصحن. كان ذو طابع هندسي موريسكي وعثماني قديم. الأرضية تشكلت من اللونين الأبيض والأسود يخيل لك وكأنك تمشي فوق رقعة شطرنج. أما الأقواس فكانت العامل البنائي المميز فيه فراحت تتزين به المداخل بل وحتى الأبواب الخشبية. اللون الأبيض هو سيد المكان مثل طرحة عروس. كان فريدا من نوعه عكس المتاحف الأخرى التي كانت تتسم بالفخامة الشديدة هذا المتحف كان يصدح بالنقاوة والصفاء والبساطة التي لا يمكن أن تخطئها الأعين. بعد أن ترجلت من السيارة رصدت مجموعة من المخطوطات المعلقة في واجهة الجدار الداخلي، كانت أوقات عمل المتحف منقسمة من السبت إلى الخميس ابتداءً من التاسعة صباحا حتى الثامنة مساءً، مرفوقة بملاحظة صغيرة حول حافلة المتحف التي عادت للخدمة من جديد، لم تكتفي بالتحديق فقط بل أخرجت مفكرتها الصفراء لتكتب شيئا فيها.

كان أوسكار نيرو من أنشط العمال في المتحف لكن بعد أن تمت ترقيته إلى المنسق الرئيسي جعله ذلك يفقد صوابه نتيجة لكمية العمل المثقلة التي تقع على عاتقه. الغضب ذلك الشعور الذي ندفع ثمنه بالمرض والوفاة المبكرة، لكن اذا احكمنا قبضتنا عليه نستطيع أن نستخرج منه طاقة للعمل. كان متعطشا للمديح مثل نجمة سينمائية في بداية شهرتها، هذا ما جعله يوازن بين الغضب وعمله. غرق في عدة تساؤلات حول طبيعة السرقات ومن خلفها وكيف ألقت بظلالها على العمل، جعله الأمر يعرق بشدة لأنها مسألة ثقيلة الوطء على النفس. اخرج منديلا لمسحه لولا أنه رأى امرأة جميلة استحوذت على نظره وجعلته يسترخي قليلا من حدته، لم يتمالك نفسه وراح يخطو برشاقة ناحيتها بينما كانت منشغلة في كتابة شيء ما. فكر في أبسط الأسئلة كي يفتح معها الدردشة وقال بعد أن شبك يديه مع بعضهما البعض وتنحنح قليلا كي يحوز على اهتمامها:

- مرحبا بك آنستي كيف يمكنني مساعدتك؟

طالعته بابتسامة هادئة كان شخصا متوسط الطول، حسن اللبس، ذو تصفيفة شعر أنيقة ويتميز بذقن مائل، لكن قبل أن ترد عليه اندفع في الكلام مرة أخرى وافرج عن أسنانه التي تشبه الذر المكنون:

- يبدو لي بأنّك سائحة جديدة اذا كانت هذه مرتك الأولى في جيريفيل فأنا أنصحك بمنتجعاتنا الصحية فهي جيدة يمكنني أيضا أن اقدم لك نبذة عن المتحف وعلى اهم ما يحتويه.

- سأكون في غاية الرضا

ابتسمت له بامتنان بعد أن راه يشرح لها عن تاريخ المكان واهم ما يحتويه من تحف اثنوغرافية. فالمكان كان زاخرا بالكنوز الفنية ما بين لوحات

وتماثيل ومجموعات فنية التي بدورها تشكل مطمعا للكثير كالهيكل العظمي للملكة تينهينان التي تعتبر الأم الروحية للطوارق. عرفها بالأركان المتنوعة كالخياطة والطرز، إلى الحمامات والحدائق، لم يجد ضررا في القيام بدور الدليل السياحي، ولم ترغب هي في الكشف عن نفسها الحقيقة وراحت تطرح عليه الأسئلة حول المكان وكان يجيب عنها برحابة صدر، وبسلوك يوحي بالثقة. كان المتحف فسيح البنيان والغرف وتتعدد فيه الغرف كتعدد الفنون وتعدد العاملين، يمكنك رؤية بعض العمال وهم يتقاسمون حمل تمثال أو لوحة وآخرين يذرعون المكان جيئة وذهابا محملين بالمعروضات والمقتنيات في أيديهم. وبعض خبراء الترميم مجتمعين حول تماثيل مستغرقين في تدوين بعض الملاحظات. مر من أمامها صف من أطفال المدارس يمشون بسلاسة في خط مستقيم، تقودهم معلمتهم في جولة استكشافية متشاطرين نظرات الفرحة والفضول فيما بينهم. هتف أوسكار بعد أن لمحها مستغرقة في حركة المتحف المكتظة بالزوار والعاملين كالنمل:

- نشهد حاليا ضغطا في مواعيد التسليم خصوصا أننا المتحف الوحيد في المنطقة الذي يتلقى طلبات الذواقين ورغبتهم في تواجد بعض اللوحات والمخطوطات.

قررت مجاراته:

- و هل تقبلون جميع الطلبات؟
- ندرس العروض أولا ونحدد القيمة الفنية للتحفة بعدها نستلمها ونجعلها متاحة للجمهور من خلال بعض المعارض التي تقام في صالة المزادات الشمالية فهي من احسن القاعات لاستقبال مثل هذا الحدث.

لفتت نظرها غرفة مقفولة بالمزلاج عكس باقي القاعات المفتوحة وقفت أمامها ولكنه نطق متسمرا بينها وبين الباب:

- اسف هذه الغرفة غير متاحة فهي تتعرض للصيانة حاليا.
- ماذا يوجد فيها؟
- مجموعة التحف الفنية الخاصة ببيكاسو.
- إنها الأشهر في هذا المكان أليس كذلك؟
- نعم لكن يمكنك رؤية غرفة المعروضات من هنا مشيرا بيده في اتجاه معين كي تتبعه.. لدينا مجموعة من الأعمال الفنية الرفيعة التي ابدع بها الرسامون المحليون.

أومأت بتحفظ ليستوقفها ساحبا إياها بسرعة عن الطريق بينما راح يهتف في عنف صائحا بالعمال الذين كانوا على بعد شعرة للاصطدام بها:

- انتبهوا أيها الحمقى إنها لوحة لأهم الشخصيات التاريخية

رمقته بنظرة خزي رافعة احد حواجبها (هل اللوحة اهم منها؟).. تدارك نفسه ليقول وهو يحك جبينه:

- آسف بعض العاملين هنا لا يُقَدِرون ما تمسك أيديهم.
- و هل تقدرها أنت؟

أجاب كأنّه سمع أغبى شيء في حياته:

- طبعا، إنها لوحة الأمير عبد القادر من اهم الشخصيات البطولية في تاريخ جيريفيل لن احملها كما احمل كيس بطاطا ملوحا بها هنا وهناك.
- إلى أين يؤخذونها؟

- سيشحنونها إلى متحف مقام الشهيد في العاصمة.

كانت هناك مكتبة على شكل شجرة بلوط مقطوعة متواجدة في قلب المتحف وبما أن شجر البلوط يمثل ثقافة هذه المدينة فهذا امر لا يدعو للاستغراب أبدا. في نفس الرواق دائما توجد غرفة المقتنيات المكان الذي تتجمع فيه التحف التي يقتنيها المتحف أين تفصل الأشياء القديمة عن الأشياء المتواضعة في قيمتها الفنية. لقد كان المكان يعج بالعمال والزائرين ومن المستحيل أن تكشف عن المجرم من البريء وسطهم، ستروعك الزحمة الموجودة بالداخل لكنها عكفت قائلة:

- يضم هذا المتحف مجموعة رائعة من الأعمال الفنية أهنئكم على هذا الامتلاك المتميز.
- هذا نتيجة لأننا نفتح المجال الإبداعي للعديد من الفنون والفنانين.

كان الناس يتمركزون حول التحف من كل جنب

- هل المتحف مفتوح لعامة الناس؟
- بالتأكيد، لأنه عادة ما يزور الناس المعارض لاكتشاف فنانين جدد أو رغبة منهم لشراء آخر أعمال رسامهم المفضل أو للجمهور المهتم بالتعليم والدراسة والاستمتاع. واليوم بالذات يصادف إقامة مزاد علني حول تراث الشمال الإفريقي، نعرض فيه بعض التحف التي يتم التبرع بها للمتحف وبعض الأشياء الثمينة والنادرة.
- هذا يفسر الكم الهائل من الناس.
- لكن يرجى حجز التذاكر عبر الأنترنت قبل الزيارة، لأننا لن نسمح بوجود أشخاص لا تكون أسماؤهم في قائمة المزاد!
- حقا؟

هز رأسه بالإيجاب لتهتف متسائلة:

- كيف تحددون قيمة الأشياء على أنها باهظة الثمن؟

لمعت عيناه مجيبا:

- تتزايد قيمة الأشياء كلما وطئها الزمن الأشياء ذات قيمة هي التي لها أهمية تاريخية.
- هذا جميل ومرعب في نفس الوقت.

سال بقلة اكتراث:

- لما؟

هزت كتفيها وأجابت:

- لأن حجم المسؤولية كبيرة تخيل انك قائم على تحف تساوي ملايير الدولارات بينما عائدك المادي ضعيف جدا.

ساد صمت عميق ليقول بعدها:

- هذه وجهة نظرك.
- أتخيل بأن الرواتب التي يتقضاها العاملون هنا ذو مبالغ زهيدة فهذه فرصة للبعض لاستغلال عملهم هنا والقيام ببعض السرقات، فالعائد المادي منخفض وضعيف مقارنة بالجهد الذي يبذلونه.
- يمكنك استبعاد الفنيين والعلماء لانهم يقابلون التحف منذ بداية تخصصهم وعملهم ولن يفكروا أبدا بالإضرار بالتحف أو المتاجرة بها، فهم يعلمون قيمة التحف وما تمثله لتاريخ وتراث بلادهم.

- اذا باعتقادك يجب أن ننزل الشبهة فقط حول العاملين العاديين الذين لا يرتقون لأنّ يكونوا فنيين.

نطق وهو يسبقها في المشي:

- هذا اقرب إلى المنطق السليم.
- أنا امرأة عزيزي لا اؤمن بالمنطق بل بحاستي وحدسي، الشبهة قائمة على الكل حتى يثبت صدقهم أو كذبهم. وتذكر بأن الحائط الذي لا يقوم على أساس سوي سيسقط فوق صاحبه في الأخير. حتى الفنيين بشر وقد يدخلهم الشيطان في نزواته ويصور لهم حياة النعيم التي تنتظرهم، في الأخير المال هو مختبر النفوس، يوقظ الغرائز الخبيثة في كل إنسان. والطمع موجود في كل وجدان البشر، هو نار بطيئة الخمود ما أن تشتعل.

رفع حاجبيه وتوسعت عيناه مستنكرا:

- ما أقبح ذلك!

رددت البصر حولها لتبصر أدا ابنة الكونت الكبرى في الرواق المجاور وهي توبخ أحد العاملين والشرر يتطاير من عينيها، كانت تغلي من شدة الغضب كالفرن. عندما رآها تنظر لها هتف:

- إنها ابنة المدير من أطيب وأكرم الناس.

نقلت النظرات بينها وبينه رافعة حاجبيها مع بعض كدلالة على عدم التصديق لأنّ كلماته لا تعكس أبدا الموقف المقابل. تدارك كلماته وهو يفرك رقبته بأصابعه:

- أعني عندما تكون على سجيتها الحقيقية فهي سامية المنزلة أما عند الاغتياظ فهي لا تعكف على تحويل حياة الناس إلى جحيم اذا فشلوا في أداء مهامهم.
- يبدو بأن سيء الحظ ذاك هو من سيتحمل نوبة غضبها اليوم.

كان واضحا لكل ذي عين أن الجميع يقدرها ويحبها ولا يبغي إغضابها، إنها من ذلك الطراز من النساء ذات الشيم العليا والمناقب السامية التي تتمتع بسمعة طيبة وتحمل طاقة الأم تيريزا، ذات القلب الحنون والتي حظيت بتربية لائقة جعلتها سيدة مجتمع راقي بامتياز. عدا عن أنها من أكمل النساء حُسْنا، يمكنك رؤية بعض من الغرور المخفي في عينيها. تنهدت مريم بودي وحطت عينيها على ذلك العامل الذي يبدو رجلا مقتدر الخلقة[12]، تشير ملامحه على الإعياء الشديد والدوائر السوداء تحت عينيه كانت كالمرجع الذي يثبت أنه يعكف على السهر أو انه يعاني من شيء ما لكن من ناحية أخرى يبدو من النوع الخجول واليافع. الخجل شيء جميل لكنه في النساء اجمل وأبهى. راح يطأطئ رأسه ويهزه كجرو صغير هروبا من النظرات الصارمة والعبوس التي كانت تعلو وجه مؤنبته، استمع إلى توبيخها بدون أن ينبس بحرف شفة وبدون أن يبدي أية ردة فعل. وبعد مدة سمعت له صوتا ضعيفا ومختنق يدافع به عن نفسه، راقبته باهتمام شديد:

- من يكون ذلك الموظف؟
- انه داني، أمين المحفوظات.
- أمين محفوظات؟

---

12 - رجل مقتدر الخلقة : أي في الوسط ليس بطويل أو قصير.

موظفو المتحف كثيرون وينقسمون حسب مهماتهم. هناك المدير الذي يشرف على جميع الأعمال في المتحف ويتحكم في الميزانية وهناك المنسقون الرئيسيون مثلي، وأمناء المتحف الذين ينقسمون إلى أصناف أخرى منهم أمين الفن القديم والحديث وأمين المطبوعات وأمناء المعارض وأمناء المحفوظات. هذا عدا عن المتطوعين وخبراء الترميم وعلماء الآثار.

- اذا قامت سرقة سيستحيل أن تعرف من الذي سرق ! فهذا المتحف أشبه بسوق وبصمات الجميع في كل مكان!

فكر مليا قبل أن يجيب:

- يمكنك أن تعدمي نظرية البصمات لأنها شبه مستحيلة، لكن من ناحية أخرى يمكنك معرفة الجاني لأنه عند الدخول تسجلين اسمك عند المدخل في سجل المتحف لدى مسؤول الحجوزات.

- هذا لا يدل على شيء يمكن لأي كان أن يدخل بهوية مزورة أو اسم مستعار ويتحجج بنسيانه لهويته ويلج بكل سهولة إلى الداخل ونظرا لكثرة النامس سيستطيع أن ينساب لاي حجرة ويسرق تحفة أثرية أو لوحة.

لم يشاطرها رأيها:

- من الأوفق إلغاء هذه الفرضية أيضا، يستحيل أن تحدث سرقة في وضح النهار أولا لأنّ كاميرات المراقبة تترصد بكل حركة في الأرجاء.. أشار بعينيه للكاميرا المقابلة.. والعمال الذين يحيطون بالقطع الأثرية لن يتزحزحوا قيد أنملة سيتمكنون من ملاحظة أي تحركات مشبوهة أو اختفاء للوحات خصوصا أن بعض القطع ستصدر صوتا نتيجة تحريكها.

هزت رأسها سلبا:

- إنّ المجرمون يزدادون ذكاء مع مرور الوقت، أعتقد أنك غفلت على أن الكاميرات تستطيع أن تتعرض للقرصنة والاختراق فتغير تردد الصورة بفيديو قديم للجهة التي تغطيها العدسة لكن هذا يتطلب تفوق تكنولوجي كبير وأسلوب محترف من طرف المجرم. ولكنها فرضية لا يمكن أن نمر عليها مرور الكرام أما بالنسبة للعمال المحيطين بالقطع واللوحات فكلنا نعرف انه كل ما كثر الضجيج والمشتتات سينقص إدراك الإنسان ويستطيع أن يغفل عن تحركات مشبوهة ويفقد حذره التام، بالتالي سيجد المجرم فرصة سانحة للسطو. لكن من ناحية أخرى لن يستطيع الموظف أن يغفل أن تحركت القطعة من أمامه وهذا ما يدعو للشك حول كيف تمت السرقات بهذه المثالية.

تدارك نفسه ونظر إليها بارتياب لقد فهمت معنى نظراته.. الشكّ! ولا شيء غيره.

سألها بتردد ولكن بنبرة جدية:

- لقد علمت بشأن السرقات وتتكلمين كشخص مطلع من تكونين؟

نظرت له مطولا ولم ترد عليه لأنّ القادمة أجابت عن تساؤله بدلا عنها. هتفت أدا بعينين تتألقان سرورا:

- المحققة مريم بودي هنا يسرني قدومك لقد كنت بانتظارك.

شاخصها الآخر بنظرات تدل على الدهشة والصعق أصبح يرتعد خوفا كمن كان في نوم عميق وصب عليه دلو ماء بارد، لكنه حاول إخفاء الرعشة التي سارت بجسده متسائلا باقتضاب:

- محققة؟

قبضت أدا على حاجبها ونظرت له مضيفة:

- أجل ! المحققة المشهورة !! ألم تعرفها؟ صورها تملئ الجرائد.

بدا على وجهه التعجب فاصطبغت وجنتاه بحمرة التفاح وامسك رمقه قائلا بلا تلعثم:

- هذا يعد تقصيرا مني فلتغفري لي.

همهمت ساخرة مخرجة لفافة تبغ واضعة إياها فوق شفاهها المطلية باللون العنابي مهيئة لإشعالها، بينما هتفت الأخرى في عجل:

- اختصر تأسفك وكفاك تجميشا[13]، فالوفد الإسباني قد وصل وهم بانتظارك.

استئذن لينصرف منحرجا بهدوء وبوجهه الساذج مطرقا رأسه بشيء من الخجل، بينما شاهدت أدا المحققة وهي تشعل السيجارة، هتفت قائلة:

- إن القوانين الداخلية لا تسمح بالتدخين هنا.

أجابتها وهي تنفث غيمة من التبغ:

- أنا لا اخضع للقانون عزيزتي.
- إذا ما الفرق بينك وبين المجرمين؟ كلاكما لا تحترمان القوانين.

---

13 - التجميش : المغازلة ومحادثة النساء.

- هناك فرق كبير صدقيني، فالمجرم يعمل ضد القانون أما أنا فأخرق القانون باسم القانون!

نظرت لها وهي تضيق عينها بإعجاب، خاطفة سيجارتها من يدها وقالت بعد أن أخذت سحبة منها:

- أنا معجبة بطريقة تفكيرك.

رمت لفافة التبغ في سلة القمامة، لتهز مريم بودي كتفيها مجيبة:

- وأنا كذلك.

أخذتها من يديها واقتادتها ليتمشيا:

- أرجو بأنّه لم يُملِلك بكلامه.
- لقد أراني تشكيلات خلابة من التحف وصالات العرض.
- أعتقد أنني أنا الآن التي سأكمل لك دورة التحريات، من أين تريدين البدء؟
- غرفة المسروقات.

الفضيلة التي نفتخر بها هي أم الخطيئة

" دانتي "

نظرت أدا للمحققة كأنها ذكرتها بخطيئة قامت بارتكابها. هزت رأسها في حركة طبيعية واستطردت قائلة:

- ألم تسلمك الشرطة للآن سجلات مسرح الجريمة أم تنوين مطاردة الأشباح؟ فالغرفة خالية منذ الحادث.
- بلا، لكن التقارير تدعم عدم وجود أي دليل في المكان وأنا صراحة أميل إلى قاعدة العالم الفرنسي إدموند لوكار التي تقول بأن كل اتصال يترك أثر.

لقد ارتأت ألا تخرج من المتحف خالية الوفاض. نظرت إليها أدا مستفسرة:

- ماذا يعني هذا؟
- يعني بأن كل مجرم يترك وراءه شيئا ويأخذ شيئا آخر من مسرح الجريمة من دون أن يدرك ذلك، عدا اني سأتكلم مع بعض الموظفين الذين وجدت في شهادتهم بعض التناقضات بعد غربلة ملف الشهادات فلربما قد نسوا التبليغ عن بعض الحقائق الجديدة الواقعة أو بعض التحركات المشبوهة، من يعلم!
- هذا جائز
- يمكننا البدء الآن إذا أردت وبدون أن نضيع أي وقت.
- اذا كان هذا ما تريدين
- أين كنت يوم السرقة؟

كانت أجابتها خالية من أي انفعال:

- كما تعلمين، لا يجوز لأي أحد أن يخلف موعد العشاء في القصر، لذا أتممنا العشاء حوالي الثامنة والنصف.
- هذا كثير.
- عند الأكل تحلو الأحاديث.

نطقت بابتسامة هادئة:

- هذا صحيح.
- بعدها تناولنا القهوة كعادتنا ثم ذهبنا للنوم.
- ويوم السرقات الثانية؟

تبادلا النظرات لتجيب:

- أتذكر بأني شعرت بالقليل من الغثيان، أحسست بالتعب بعد تناول العشاء، ثم عقب السهرة اتجهت مباشرة لأرتمي على سريري في غرفتي إلى أن غفوت تماما حتى الصباح.
- كل يوم بيومه.. دونت شيئا في مفكرتها ثم استأنفت.. هل تستطيعي القول بأن كل أعضاء العائلة كانوا في المنزل ليلتها؟
- هذا ما استطعت ملاحظته.

قالت بصوت ثاقب وهي تنظر إليها:

- لكن لا تسطيعين تأكيد ماذا فعلوا بعد العشاء.
- ذهبوا جميعا للنوم كما جرت العادة.

- أريدك أن تجيبي بأمانة الم تشعري بأن هناك شيء غير طبيعي في العشاء أعني أي تصرفات غريبة من أفراد عائلتك؟

مالت إلى الهدوء والتفكير قبل أن تجيب:

- في الحقيقة أنا لا أريد أن أقول أي كلام سيؤدي إلى نهاية وخيمة أو يجعلك تتخيلين بأن احدهم متهم لكن شعرت بأن مايز كان يشعر بتوتر شديد فوق الطبيعي ذلك اليوم
- و ما الذي يجعلك تعتقدين هكذا؟

هزت رأسها مفكرة:

- ملامحه كانت توحي بذلك، كان غائب الذهن ومتشكك طوال العشاء وراح يتأملنا واحدا تلو الآخر حتى انه استؤذن في الانصراف أثناء السهرة معتذرا بأنّه متعب.
- هل كان هذا يوم السرقة الأولى أم الثانية؟
- يوم السرقة الأولى.

بدت الدهشة على وجهها:

- هذه معلومات قيمة لم تذكريها في التحقيق.

هزت كتفيها وقلبت شفاهها:

- كنت مشوشة ربما نسيت.
- أنت قوية الملاحظة دعيني أهنئك على ذلك.

أردفت بنبرة ذنب بادية:

- شكرا لكن هذا لا يعني بأنّه موضع شبهة أليس كذلك؟

- ما دمنا لم نهتدي للسارق فالجميع هو موضع شبهة. لكن دعيني أقول لك شيئا.. أومأت أدا.. عندما تسعين وراء الناس وتكتشفين حياتهم الحقيقة ستفقدين الثقة في الكثير من الأشياء التي كنت تضعينها كمسلمات في حياتك.

- لا أشك في حسن تقديرك للأمور.

أمعنت التفكير في المكان قائلة:

- هذا المتحف كبير جدا وواسع.

- لهذا لا استغرب لما قضى رجال البوليس الكثير من الوقت في فحص المكان.

نظرت إليها باهتمام مصاحب بشك:

- هل كان يتردد رجال البوليس كثيرا للمكان؟

- تقريبا كل يوم وفي أي وقت لأخذ العينات ولا اعجب لذلك نظرا لأهمية المكان، وقد أعطيت أنا شخصيا الإذن للسماح لهم بمجرد التأكد من انهم من البوليس، لكننا واجهنا صعوبة في عدد مواقف السيارات لأنها محدودة جدا.

قالت متسائلة:

- لما يستخدمون سياراتهم اذا كانوا يستطيعون المجيئ بالدراجة النارية أو اصطفافها خارجا؟

- لأنه في حال استخدمت السيارة ستدخلين من البوابة الأولى التي يوجد بها الموقف كما توجد بها باب تؤدي إلى قلب المتحف يعني هي طريق

مختصـرة عكـس البوابـة الثانيـة التي ستمشـين في رواق طويـل كي تلجي للمتحف.

بدا نوع من التوتر يخيم عليها لكنها اكتفت بالهمهمة. كان الدهليز طويل جدا ينتهي بباب

شاهدتها من قبل، تلك التي كانت مقفلة بالمزلاج، إنها غرفة المسروقات.

برز من بين الحشـود المزدحمـة التي تعـج بالمكان رجـل فـارع الطـول ذو كتفين عريضين ينتعل ملابس تميزه عن الآخرين ذات لون ازرق قاتم وقبعة ذو شكل دائري واقية للجبين تحمل شعار شرطة جيريفيل باللون الذهبي المتمثل في مجموعة من السنابل التي ترمز للثورة الزراعية في المنطقة والتي تحيط بالرسم، وغصن زيتون يشير للسلام، يقتسمان الشكل، أيضا نجمة وهلال وشمس دلالة لغداة الاستقلال، ويد يطلق عليها بالعامية الخامسة والتي تشير في الثقافة الشعبية للمنطقة بخمس سور وآيات قرآنية تحفظ قارئها من العين والحسد. استوقفه وهو يشق طريقه داخل متحف باردو صراخ شخص قد ملئت لحيته وجهه ذهب ليستكشف الأمر لكن عندما برز له أن احد الرجلين هو دانييل مايكي صهر الكونت المشهور رينارد لومير، تعجب وجعله الأمر يستفسر عما يحدث لكن تمت طمأنته بمقولة " كل شيء تحت السيطرة " نظر اليهم باقتضاب لأنّ الحوار كان يبدو عنيفا بعض الشيء وبعد أن تيقن بأن المناقشة لن تتطور إلى عنف بدني استدار مكملا طريقه.

تكلم الرجل بإصرار مما أدى إلى ظهور خطوط الحنق في وجهه:

- هذا آخر تحذير لك أريد مالي.. رفع أصبعه محذرا عند إتمام جملته، كان صوته يحمل نبرات التحذير.

- نقودك ستصلك قريبا، لا افهم لما لا تكف عن مطاردتي يا رجل لقد أوشكت على توريطي في مشكلة كبيرة.
- لو كنت ترد على اتصالاتي لم اكن لآتي هنا.

قال هو ينظر حوله بحذر:

- كفاك تهديدا واخفض صوتك سينتهي الكلام إلى أذني شخص ما.

اعقب على كلامه بضحكة خبيثة:

- أه، أنتم أصحاب الطبقة العليا تعتقدون بأن سمعتكم الحسنة تستطيع أن تغطي جميع أخطائكم.. تنهد هازا رأسه.. لو كان يهمك صيتك الجيد لم تكن لتورط نفسك في أشياء مخزية.. شاخصه بعيناه القاسيتان. حدثت الواقعة تحت أنظار صاحب العينين الغائرين اللتين تطلان أسفل نظارة سميكة، كان يقبع في الزاوية مراقبا الموقف من على بعد بإرادة منه، وقد ظن أن الشخص الغريب الذي لم يستطع التعرف عليه كان يلح في طلب شيء ما. خفض ناظريه للجريدة كي يطويها وشرب قهوته دفعتا واحدة واستقام على مقعده ليجهز نفسه للتدخل بمجرد انسحاب الرجل الآخر:
- هل كل شيء بخير؟ ثم اعقب سؤاله باستفسار أخر.. ماذا كان يريد منك؟

لكن الأخير قد نفذ صبره مجيبا إياه بعنف:

- نعم كل شيء بخير ومحاولاتك البائسة في التدخل بشؤوني لن تجلب لك سوى المتاعب.. كان جسده يرتعش ذهب تاركا إياه وهو يشخص في ظهره، لم يجد تفسيرا لهذه العدوانية. هل كان يحاول التدخل في شؤونه؟ لا. هل كان يستفسر عن مشكلته؟ نعم.

خامرته الشكوك حول ذلك الرجل الغريب فراح يستفسر عن هويته لدى موظف الاستقبال ليجيبه بعد برهة من التقليب في دفتر طويل يعج بأسماء الزائرين:

- لقد وقع اسمه تحت مهدي فتكورين.

نظر إليه في تساؤل:

- لقد سمعت بهذا الاسم من قبل أليس هو صاحب مصانع الخشب في المنطقة؟

هز الموظف كتفيه جيبا:

- يبدو كذلك.

تمت وهو يسير ببطء:

- أمر مثير للاهتمام.

طرق الشرطي بابا خشبيا ليدخل مباشرة بعد سماع صوت من وراءه سامحا له بذلك. ولج مغلقا الباب خلفه، تقدم ناحيتها وتبادلا التحية، حياها باحترام شديد ساق إليها كيس أسود نبشت فيه مخرجة حذاء ابيض بلاستيكي طويل الرقبة كالذي تنتعله الشرطة العلمية وقفازات مطاطية رقيقة، بالإضافة إلى مجرفة مصحوبة بفرشاة تنظيف. أحكمت قبضتها على شعرها القصير المنسدل كي تحكمه على شكل ذيل خيل مضفور وانتعلت الحذاء والقفزات تحت أنظار الاثنين الذين يشخصانها بعدم دراية.

- ماذا تفعلين؟ تكلمت أدا
- لا أريد تلويث أدلة مسرح الجريمة

شاخصتها بعدم فهم:

- أي أدلة؟
- سأصنع أدلة جديدة!
- كيف؟
- فقط راقبي..

قفزت فوق شريط الشرطة الأصفر نحو مسرح الجريمة بسيقانها المكتنزتين مصحوبة بالحاجيات تحت نظرات أدا ومارتن الذي اتسعت ابتسامته لينتهي بها الأمر إلى مكان اللوحات المسروقة التي أصبحت خالية على مصرعيها، ما جعل التنسيق المتبع في الديكور شحيح منفر للأذواق. أعطت نظرة فاحصة للمكان وأدبرت ملتفتة نحو المسؤول عن مسرح الجريمة متسائلة:

- أريدك أن تصف لي كيف قامت الشرطة العلمية بفحص المكان.
- قمنا برفع البصمات المتواجدة في هذا المكان و.. قاطعت كلامه المسترسل هازة رأسها

لا شعوريا، افتقرت للصبر:

- هذه قطعة من الحماقة والسذاجة، الجميع يمتلك بصمات هنا حتى الطفل ذو الخمسة اشهر.

كانت المحققة معروفة بامتلاكها للعديد من العادات السيئة مثل النوم بالمكياج، عض الشفاه، التدخين، انفاق الكثير من المال بالإجازات والرحلات الاستجمامية التي تقطع غالبا في النص، ولكن من أسوئها هي

مقاطعة الآخرين بالتأكيد. عبس الشرطي من كلماتها الجارحة عن الشرطة العلمية لكن دعته ليكمل:

- قمنا كذلك بأخذ عينات من الزجاج والطلاء وبعض الألياف التي وجدناها في السجادة.

ثم توقف عن الكلام عندما راح يراقبها وهي تخرج من جيبها مصاصة لولبية الشكل ذات ألوان تشبه قوس قزح، ازعجه صوت خشخشة كيس الحلوى وهي تخلصها منه لتستقر في فمها لكن ما ازعجه اكثر هي تصرفاتها التي تشبه تصرفات طفلة صغيرة مدللة، وعدم اهتمامها لكلامه، لكنه كان مخطئ فقد سمعت كل حديثه لترد عليه:

- و بالطبع لم تتحصلوا على شيء!
- هذا ما حدث.

هزت رأسها نافية مخرجة الحلوى من فمها لتسترسل في الحديث:

- انتم تتعاملون مع أناس خارقي الذكاء ليس مجرد أغبياء. للأسف الشرطة للان لم تفهم هذه الحقيقة، ولن تفهمها ربما أبدا.

أنهت عبارتها الأخيرة نازعة السجادة المتمركزة في الوسط، رمتها للجهة المقابلة ثم أخذت المجرفة الصغيرة وراحت تكشط الغبار الذي كان تحتها بينما راحت تتكلم من جديد في بساطة:

- أول شيء يفعله المجرم هو إبعاد أي أغراض أو مواد يمكن أن تجمع عنه، أي شيء من بينها هذه السجادة التي تقع تحت اللوحات، لن يقدم لك نفسه على طبق من فضة. التفاصيل المهمة التي تهمشونها هي التي تجمع خيوط الجريمة.

جمعت جزيئات الغبار في كيس صغير شفاف أعطته لرئيس مسرح الجريمة قائلة:

- الخبير يستطيع أن يجري التحليل في اقل من ساعة لهذا لا أريد تضييع المزيد من الوقت آمل أن تصلني النتائج الليلة، تضييع المزيد من الوقت سينتج عنه جريمة أخرى.

أصغى بتهذيب لكلامها ليومئ لها بتفهم عكفت راجعة للمكان الذي خرجت منه لكنها وطئت شيئا ما ليتبين انه احمر شفاه لتنطق في اسى:

- لقد كنت احب هذا اللون.

أعطتها أدا منديل ورقي بينما استلقت على الأرض كي تزيل موضع البقعة، لكنها رأت شيء أثار اهتمامها، رمشت بأهدابها الطويلة عدة مرات وزادت في سرعة الدعك مما جعل شعرها يسقط فوق عينيها، طالب بالماء وظهر عليها القلق، تبادل الآخران النظرات الغير مفهومة لتصرخ بصوت حاد:

- أريد ماء!

خرج الشرطي يجري وما هي إلا ثواني حتى عاد محملا بدلو ماء، وما إن رأته هتفت طالبتا منه الإسراع. وقفت وصبت الماء فوق الأرضية حتى فرغ الدلو لتتبين منه كتابة غير مرئية، كان مكتوب باللغة العربية " الفضيلة التي نفتخر بها هي أم الخطيئة " قرأتها بسرعة.

هتفت أدا غير مصدقة لما تراه:

- إنه قول لدانتي.

تساءلت بشرود:

- دانتي الإيطالي؟

هزت رأسها في تأكيد بينما اكتفى رئيس مسرح الجريمة بإطلاق صوت تعجب.

- نعم، يلقبونه بالشاعر الأعلى أو السامي لأنه يحوز على دور كبير ومهم في تأسيس اللغة الإيطالية وجعلها لغة وطنية في إيطاليا عوضًا عن اللاتينية، لقد درسنا أعماله في المسرح.

سجلت المحققة الكلمات في رأسها وهي تطالع العبارة بدقة كبيرة حتى أصابها حول من كثرة التركيز فيها، بعدها تأكدت من سلامة النوافذ المقابلة، فكرت في مارشملو في هذه الأثناء لو كان هنا الآن كان ليقدم لها يد العون وكان ليعلم تماما لما استخدم المجرم هذه العبارة لأنه يمتاز بذاكرة فوتوغرافية وأرشيفية رائعة وردتها فكرة أن تتصل به كي تستطلع رايه، لكن الفكرة ماتت في مهدها، ستعالج هذه القضية وحدها. مرت دقيقة من السكون المطبع لترتب أفكارها. أحالت النظر إلى أدا وهي لاتزال بجوار النافذة:

- أريد أن تقولي لي كيف كانت اللوحات منسقة قبل حدوث السطو.

نظرت أدا إلى مارتن الذي كان منهمك يسجل ملحوظته على العينة لتنطق:

- لقد كانت لوحة الملكة تينهنان هي الأولى معلقة على يمين الحائط.. مشيرة بيدها إلى المكان.. بينما اللوحة الثانية لنساء الجزائر لبيكاسو كانت معلقة في الوسط.. واكتفت بالصمت.

عضت مريم بودي على شفتها بينما تضاعف قلقها لأنها أحست بأن هنالك شيء يشبه اللغز مازال لم يحل بعد تلاه إحساس غير حسن، عيناها كانت تدلان عن التفكير العميق استفسرت عن المكان الفارغ بجانب اللوحات لمن يعود.

- أه إنها لوحة الأمير عبد القادر. لقد تم شحنها اليوم لمتحف العاصمة.

فقدت ابتسامتها عندما رأت نظرات المحققة بينما ضيقت الأخيرة عينيها ونظرات الذهول هي كل ما ينطق به وجهها. مررت يدها على جبهتها لتقول في شيء من الاضطراب:

- لقد كانت رسالة ! مقولة دانتي هي رسالته لقد رمز إلى لوحة الأمير بالفضيلة.

نظرت أدا نحوها غير مصدقة:

- -هذا غير معقول.
- لكن ماذا يرمز بأم الخطيئة؟

انطلقت تفسر:

- هذه المقولة تنطوي على معان عديدة نظرا لكون دانتي لم يكن من مناصري الخطيئة بل انكرها وعالج جميع الخطايا في كتبه أولا لأنه من مناصري البابوية والمدافعين عن الطبقة النبيلة.

نظرت لها المحققة بقلة صبر لتدخل في صلب الموضوع، أكملت مسرعة:

- يستعمل كثيرا الكناية في كلماته وجميع كلمة يستخدمها لها معان متفرعة فمثلا عندما أقول لك كلمة " مارس " ماذا ستفهمينها؟

- سأفهمها على أنها شهر ميلادي.

- صحيح، لكنه يرمز إلى إله الحرب عند الرومان كذلك. فمثلا كلمة الخطيئة استعملها في ملحمة الكوميديا الإلهية اهم أعماله، أي عندما استعمل أم الخطيئة هنا لا تشير إلى الكلمة المتعارف عليها التي ترمز إلى الذنب والسيئة بل ترمز لمكان ما لأنّ ما سبقها اسم تماما عندما ذكر المطهر في قصيدته فقد تخيلها جزيرة.

قالت المحققة في هلع واضطراب:

- يعني أن وجودها هنا هو أم الخطيئة.. تغير صوتها.. يا الاهي اللوحة.

في ثانية حدث إعصار من الحركة هبوا جميعهم راكضين في المتحف كالمجانين ملتفتين يمينا وشمالا تحت أنظار الناس إلى أن خرجوا من المتحف، شاهدو أوسكار الذي أتى ناحيتهم مندفعا من وسط الحشود بسرعة فاسحا الطريق بيديه، راح يتأملهم واحدا تلو الآخر بعينيه اللتان تبرقان ببريق يشبه عينا النمر لقد كان مظهره غير منتظم، جاءهم صوته من بعيد:

- ماذا يحدث؟

سألت مريم بودي بأنفاس لاهثة:

- لوحة الأمير أين هي؟

اصفر وجهه وهو ينظر إليها لتتسع عيناه بدهشة:

- لقد شحنت منذ خمسة وأربعون دقيقة.

مرت بجسدها رعدة ومررت أصابعها من خلال شعرها بغضب:

- تبا.

ركلت بعض الحصى الذي راح يفترش أمامها كبتلات الورود المنثورة أمام عريسين بينما اخذ الآخر بعض الوقت ليستوعب الأمر. لكن ما أن استوعب حتى شحب لونه، توتر الأعصاب كان يسود أمسية ذلك اليوم كالغمامة التي تغطي الشمس فجأة كان الجميع في حالة صدمة كأنهم في جنازة. اخرج رئيس مسرح الجريمة هاتفه اللاسلكي بوجهه الممتقع مصدرا التعليمات لأعوانه بتحويط جميع مخارج المدينة ونظراته القلقة تتبع المحققة نظرا لما ألت إليه الأمور لكن ربما قد يكون الأوان قد فات.. هذا ما كانت تخشاه مريم بودي التي تضغط على يديها بعصبية. العصبية مرض العصر الذي ينخر جسدك كالسرطان لكنه لا يعرف بأنّها في حوار داخلي عميق شعرت كأنها تغوص في عمق النهر. الحكمة التي تقول بأن السرعة والندم أخ وأخت كانت تسري على لسان كل البلغاء وربما قد تكون من الحكم التي ألهمت بعض الناس لكنها من الأقوال التي يجب أن يتم القضاء عليها، بحسبها لم تخدمها أبدا لو كانت اسرع من السارق ولو قليلا لم تكن لتندم الآن تبددت رعشتها ليحلّ محلها الحزن لم تكن محسنة الإدراك هذه المرة تابعت السير محدقتا في الفراغ هشة كالورقة التي تستعد للسقوط أو كالناجية من حرب. عقلها يغرق في دوامة من الأفكار المختلطة وقفت فريسة للقلق هناك أشياء قابلة للترميم وأشياء أخرى تأبى ذلك، كشعور أن يكون أمامك شيء ولا تستطيع الإمساك به الخسارة التي لا تغتفر بالرغم من أن الطبيعة ترغم الأشخاص على اتخاذ قرارات معينة من بينها القرارات الخطيرة التي قد تعصف بأمة بكاملها فالإنسان يبغي أن ينتقم من الحياة ولا يعلم بأنّه سينتقم من نفسه. الضغط هو السبب لأنه يحرمنا في أغلب الأحيان من الاختيارات الصحيحة لكن عسى أن تعطي للمرء تجربة وفرصة للنضج.. ومنذ ذلك المساء بدء الإعصار الذي عصف بالجميع.

دليل آخر

كان الجميع غارقا في أفكاره. مريم بودي التي كانت في حيرة من أمرها تقف بجوار النافذة مراقبتا سربا من الغربان يحط في تاج الشجرة المقابلة لها، تاركة الرياح تعبث بشعرها في كل اتجاه، راحت تفكر في خطوتها التالية بإمعان. لمع برق خاص في عينيها وهي تستذكر جميع القضايا التي مرت عليها والتضحيات التي قامت بها كي تصل اليوم إلى هذا المكان، لم تكن لتسمح لنفسها بالسقوط أو العودة إلى الوراء، مثل العداء الذي يصبح بعد خطوة من التتويج. لقد شعرت بالفخر ذلك الإحساس الذي تنبسط فيه نفسها والذي يجبرها على التقدم، لم تحظى أبدا بحياة هادئة لقد ألفت الضغط والتوتر عكس الجالس في الأريكة العريضة محاوطا رأسه بين يديه من هول الصدمة. كان الكونت يواجه حساسية مفرطة اتجاه الضغط، هذا ما كان يؤثر سلبا على جميع القرارات التي يتخذها. على الرغم من ادعائه للقوة إلا انه يقع فريسة مرض ضغط الدم بسهولة. تماما مثل الأشخاص الذين يدعون الصلابة وهم اكثر الناس هشاشة من الداخل. ضمته ابنته محاولتا تخفيف الأمر عليه لكنها هي الأخرى لم تستحمل رؤيته في تلك الحالة، فنزلت دموعها بدون شهيق وانسابت لصدرها. بينما اكتفى زوجها بالوقوف ورائها وهو يربت على كتفها. أما مايز فعينيه لم تزحزح عن الأريكة التي كانت تضم الكونت وابنته. بينما راح أوسكار يتكِأ على طرف الموقد الخامد، يختلس النظرات إلى المحققة بين الفينة والأخرى، يرى قوامها المتناسق تارة وشعرها الأسود الأملس الذي يصل إلى رقبتها تارة أخرى. كان الجميع يشكل لوحة فنية تعبر عن حالات نفسية مختلفة. عندما أخلت الشرطة المكان قرر الجميع اللقاء في مكتب الكونت الذي كان يمتاز بنوافذ مضيئة وتأثيث ذو طابع فخم، تحاوطه بعض التماثيل من الغرانيت متوسطة الطول، بينما

الأغراض المكتبية الأنيقة نظمت بشكل جيد. تكلمت أدا محاوطة يديها مع بعضهم البعض بعد أن استقرت بجانب المحققة وعيناها تنظران باتجاه الشجرة:

- كان القدامى يعتقدون بأن الغراب هي أصوات الأشخاص الذين قتلوا ولم يدفنوا بشكل لائق.

أعادها صوت أدا إلى الزمن الحاضر فهتفت وهي تبتسم:

- لحسن الحظ أن مدينتكم غير مشهورة بالقتل. والا سأكون من أول المؤمنين بهذه الأسطورة.. كانت هناك نبرة غريبة في صوتها وهي تجيب.

أجابت بعبارة مبهمة:

- لكل مدينة أسرارها آنسة مريم.
- معك حق لكن عين الغريب ترى أبعد من عين القريب.

بردة فعل ارتجالية قامت أدا بسحق شيء على النافذة ليتبين بأنها عنكبوت. عبست المحققة لتصرفها:

- لما قمتي بهذا التصرف؟
- لأن الشخص الذي يقتل عنكبوتا واحدا تغفر له أربعون خطيئة.
- وهل امرأة مثلك تملك الكثير من الخطايا؟

التقت عينا المفتشة البصيرتين بعينيها التي ظهر فيهما بريق من الذكاء لم تلمحه من قبل، لتجعلها تفكر ماذا يوجد خلف قناع الكمال والطباع المثالية. إن المرأة كالبلورة الزجاجية التي تزين أعياد الميلاد، يعتقد الجميع انهم لم يروا اجمل منها لكن ما أن تكسر البلورة ستظهر لك بشاعتها

الحقيقية. نضرا لبعضهما البعض لثواني لتجيب بعدها وهي توجه وجهها إلى النافذة مرة أخرى:

- من يطارد الآخرين في صغائر الأمور وكبيرها لن يعرف قيمة الراحة أيتها المحققة.

- هذا ليس شيئا أفعله بدافع الود بل كي اكشف الحقيقة من الكذب والإشاعة من الصدق.

التفتت إليها قائلة:

- الكذب مثل الخطيئة التي ندعوا الله في صلاتنا كي نتخلص منها لكننا لا ننفك نسقط فيها من جديد.

تفحصتها كأنها تنظر لها للمرة الأولى، كان انفها يشبه السيف المصقول وشفتاها حمراوان كالورد قطع سيل النظرات دقات الباب. أدارت بصرها وكان العامل الذي يحمل الدواء للكونت. انتهزت مريم بودي الفرصة لتكشف عن خطوتها التالية. وبمجرد انتهائه من تناول الدواء أفاق من تأملاته على صوتها:

- أعلم أن وقع الصدمة كان كثيرا عليك.. هزّ رأسه في حزن.. لكن علينا أن نكمل العمل يجب أن نضع جانبا كل مشاعرنا مهما كانت بشعة ونكمل الطريق.

رفع يديه عن وجهه ببطء وهز رأسه آسفا:

- إنّه شعور صعب وسيء أن تشاهدي كل ما رعيته وحافظت عليه يسلب من أمام عينيك كأنّه سراب وتبخر.

اقترحت عليه مريم بودي أن تكشف القضية لشعب جيريفيل لكن الكونت رفض الأمر تماما:

- مهما كان المجرم يحوز على الذكاء يجب أن نكون اذكى منه، مادام الأهالي لا يعرفون ماذا يحصل في مدينتهم سيكون هذا الشيء من حسن حظ اللص، سنمنح له حلبتنا التي هي المدينة كي يعبث بها ونصبح كالغنيمة السهلة.

قال في غضب مكبوت ويده ترتعش نتيجة سقوط ضغط دمه:

- يبدو لي كضرب من الجنون سينقلب الشعب علينا وربما تقوم الكثير من الاحتجاجات كي تسقط المكانة الشرفية للنبلاء.

وقف دانييال من مكانه بعصبية وانفعال سار جيئة وذهابا وقال بنبرة كئيبة موجها كلامه للمحققة:

- هذه فكرة خيالية تماما، أنت لا تعرفين شعب جيريفيل، كم هو تقليدي ورجعي سنغدو كغذاء يسيل اللعاب للصحف الصفراء.. التقط أنفاسه ليقول بصوت اقل انفعالا.. أنت تقامرين بثروة وطنية من اجل شخص متلاعب.

حصل على رد سريع منها:

- لدي فلسفة خاصة في التعامل مع عقليات المجرمين، أنا لست امرأة سهلة، لم اكن لأهمل تفاصيل كهذه لقد درست كافة الاحتمالات والخطر الذي يترتب عليه. وإن كانت ستقام أي احتجاجات.. التفتت إلى الكونت لتكمل.. فستقام لدعمك سيتعاطف سكان جيريفيل معك كن أكيدا لأنك بالنسبة لهم حامي التراث والمعتقدات والجميع يقدرك لمساعداتك التي

تقدمها للناس. وبالمناسبة لن نفصح عن جميع تفاصيل القضية بل سنعلن عن سرقة لوحة الأمير فقط في الإعلام هذا سيجعل الناس يتعاونون مع الشرطة ويمكن أن نمسك بالمجرم في وقت قصير، لأنّ الجميع سيكون منتبها للتصرفات المشبوهة حوله.

صمتت لحظة لتستجمع أفكارها قربت كرسيها منه وتابعت حديثها بصوت هادئ ورزين، شدت بيده مشجعة له ليستقيم في جلسته:

- حين يحرن حصانك لا تسرع إلى السوط جرب كيس العلف.

استمع إلى كلامها بدون أن يطرف، أما كلام مايز فجعلها تدير بصرها نحوه، تكلم في صوت رتيب بينما رمقه دانييال بنظرات ساخرة:

- إنه تصرف سليم، أنا أوافق على قرار المحققة من الأحسن أن نطلع الناس على نصف الحقيقة لكي يصبح كل شخص شرطي في منزله.

وافقته أدا بدورها، لقد كانت خائفة على سمعة أبيها الطيبة. بينما صمت الجميع برهة انحنى الكونت قليلا وشد على يديها بحرارة قوية ثم تكلم:

- أنا إنسان عملي عادة ولا انظر إلى الجانب الشاعري ولكن دعيني أقول بأن كلامك قد اخذ موضع المهدئ على جرحي، لما طلبت حضورك في أول الأمر لأني كامل الثقة في إمكانياتك، واكتشافك لرسالة السارق احسن دليل على اني لم أخطئ في اختياري. العناية الإلهية قد أرسلتك الي.

عبر لها عن تقديره، وراحت تقول في هدوء وبصوت خفيض:

- لن ينعم لي بال حتى اهتدي إلى الجاني وكل ما اطلبه منك هو الصبر، الصبر حل لكل عقدة.

عارضها دانييل بتعبيره المعتوه:

- لكن الوقت ينفذ.

أجابته دون أن يظهر على وجهها شعور التقزز الذي بداخلها:

- إنني أنبذ نضرتك التشاؤمية في الموضوع، الخداع لا يمكن أن يستمر طويلا، ولا شيء يعادل شعور معرفة الحقيقة عند نهاية التحقيق.

لم تستطع تحمل كلامه من اليوم الأول الذي رأته فيه، الشخص الانتقادي يعاني من مشاكل نفسية كبيرة. لقد ذكرها تجهمه بوالدها الذي كان ينتقد كل شيء فيها من اختياراتها إلى آرائها وحتى عملها، لم يكن يوما راضي عنها أو مفتخرا بها لكنها تأقلمت مع الأمر في الأخير تاركة المنزل لتعيش مستقلة عن عائلتها.

قالت أدا متداركة الأمر بينما رمقته بنظرات السخط:

- إن زوجي شديد الحذر فيما يتعلق بسمعة العائلة.. (إجابتها كانت ذكية).

تنهد الكونت وهز رأسه كعلامة لاستقرار رأيه وقبوله اقتراحها، تولد لديه شعور بالراحة النفسية ليبتسم، كان يراها كالمنقذ الذي سيخلصه من محنته. حدث نفسه عن كونها اكمل الناس عقلا وأفصحهم لسانا نظر إلى عينيها اللوزية وفاجأها بسؤاله:

- ما سر امتلاكك لعزيمة كالفولاذ؟

ظهر بريق غامض في عينها وابتسمت بدورها لتجيب:

- هذا السؤال صعب.

لم يمكث دانييل طويلا بل خرج غاضبا على نحو يثير الشفقة لتتبعه زوجته بهدوء بعد أن استأذنت من الجميع. طلبت بعدها مريم بودي التحقق من الكاميرات، فاصطحبها أوسكار. كانت الغرفة تتشارك الرواق مع مكتب الكونت ومكتب ابنته وصهره، بانت في آخر الرواق كالسراج لأنّ الضوء الخافت الذي كان ينبعث منها هو ضوء الشاشات المرصصة على طول الجدار. دخلوا الغرفة ليجدوا فيها شخصين عرفوا بأنفسهم على أنهم المراقبين الأمنيين. طلب منهم أوسكار اخذ استراحة حتى يتسنا لهما معاينة أشرطة الفيديو. بدأوا بفحص شريط اليوم بالذات. وثب الإعجاب إلى وجه أوسكار وهو يتفحص بعيناه الباعثة عن التقدير تصرفاتها وحركاتها.. (لقد زاد إعجابه بها وبشخصيتها) قرر تحطيم السكون المحيط بالغرفة وأردف قائلا:

- أنا مسرور بالعمل الذي تقومين به.

أحست بأنّه يميل إلى التملق أو يريد كسب ودها، قالت في سرور خفي:

- شكرا لك لكن هذا واجبي.
- اعلم لكن.. كان سيكمل قوله لكنها قاطعته وهي تضيق عينيها على الشريط وضعت أصبعها على الشاشة سائلة باهتمام:
- من هذا الشخص؟

نظر نظرة استفهام إلى الفيديو ثم أجاب:

- انه مهدي فتكورين رجل أعمال يمتلك جل مصانع الخشب في المنطقة.

همهمت ليكمل في تفكير مقطب الحاجبين:

- هذا غريب.

ضيقت عينها مستفسرة فأجابها:

- ليس من النوع الذي يرتاد المتاحف ما الذي أتى به يا ترى.

لقد لاحظت بأنّها صدمة غير سارة، أجابت في استخفاف:

- ربما اصبح من رعاة الفنون واللوحات اعتقد أن الأغنياء يحبون أن يبرزوا كداعمين للمتاحف قصد اكتساب احترام الناس وتأييد الطبقة الغنية.

لم يشاطرها إحساسها:

- اشك في ذلك.
- لما؟

هز رأسه واستطرد قائلا:

- إنه مجرد شعور.
- كمحققة أنا اؤمن بالملموس وليس بالمشاعر، إن لم تكن مشاعرك مصحوبة بدليل وحجة تدعمها فستبقى مجرد نظرية.
- وكفنان تشكيلي لقد جبلت على ترجمة مشاعري إلى شيء ملموس كالفن.

قالت في عناد:

- إذا سنكتشف إن كانت مشاعرك على صواب أو لا !

أعادت زر التشغيل وأضافت في السرعة لتلمح دانييل وحادثة الصباح، أخذت تراقب الفيديو بصمت ودهشة ثم سأل أوسكار في استغراب:

- ماذا يفعل دانييل مع هذا الرجل؟

طلبت منه تشغيل الصوت ليردف بصوت لا يشجع:

- لن تستطيعي سماع ما يقولون نتيجة للضجيج الذي يسود المتحف.
- هل يمكننا فلترة الصوت؟

قال مقترحا:

- لدينا مصمم الويب المسؤول عن الشعارات وموقع المتحف اعتقد انه يفهم في هذا النوع من الأشياء.

أومأت له برأسها ببطء لينسحب أخذا الشريط، بينما بقيت هي تقلب الأدراج من حولها حتى تحصلت على تسجيل كاميرات يوم السرقات الذي كان موجود في درج الزاوية المرسل إلى الأرشيف. شغلتها وراحت تتفحص الشريط رأت جميع زوايا المتحف من الداخل والخارج. صمتت عن التفكير وقطبت حاجبيها كردة فعل لما شاهدته لفت انتباهها شخص ما ذاك المدعو داني نظرت إليه بالاهتمام بالغ وانغرس الشك في عقلها، كرجل يشك في أن زوجته تخونه بقيت مدة طويلة جالسة تحدق في الشاشة، أدارت رأسها ناحية الكاميرا المواجهة للمقهى لتراه هناك وهو يحتسي قهوته يبدو متعب وشارد الفكر. فحصت الشريط عن قرب ووضعته في حقيبتها واتجهت ناحيته. في تلك اللحظة نشب حديث آخر في الجهة المقابلة من الرواق في مكتب دانييال بالتحديد.

قالت أدا وهي تنظر إلى تحركاته بلهجة تأنيب:

- لقـد ضـقت ذرعـا بتصـرفاتك أحـاول دائمـا أن اغطـي مـن ورائـك الفوضى التي تخلفها.

أخذ يطوف الغرفة جيئة وذهابا:

- تلك المرأة تمتلك لسان أفعى، لم اكن موافقا أبدا لقدومها، ستجعل سمعة العائلة في الحضيض.

قالت في شك واضح وكبير، سؤال يليه سؤال:

- كفا سخفا، تهيئاتك لا أساس لها من الصحة القرار الأول والأخير لا يعود لك لما أنت مرتعب هكذا؟ ومنذ متى تهتم بسمعة العائلة؟ هل لك يد في السرقات؟

قال في فزع كالأطفال:

- مـا الـذي تتفـوهين بـه هـل جننـت؟ لا يمكـن أن افعـل شـيئا كهـذا خصوصا لكِ وللكونت

- أنـا أحـذرك إن اكتشـفت أن لـك يـد في الموضـوع لـن أسـامحك ولـن أتوانى عن هجرك.

تسمر في مكانه في دهشة وقام ناحيتها حاضنا إياها بذراعيه الهزيلتين:

- لا يمكنك أن تقولي هذا الكلام ليس بعد كل ما عانيناه لنصبح معا..

قالها بصوت رقيق كأنّه عاد لطبيعته مرة أخرى، نظر إليها بعينيه الزرقاوين ليكمل.. يجمعنا رباط مقدس تذكري هذا.

دفعته بعنف ليفلت يداها:

- إذا لا تفسد الأمر لا أريد أن اندم لأنني ضحيت بالكثير من أجلك.. بدت جادة في كلامها.

خرجت من المكتب مغلقتا الباب بقوة علت أنفاسها تحت صدمة الآخر الذي شعر بأنّه يغوص في أعماق حلم مرير. لقد تحولت من امرأة لطيفة وطيبة إلى امرأة باردة وقاسية لم يعهدها من قبل، اصعب شعور يمر بالرجل هو عندما يحس بأن حب حياته قد تغيرت مشاعرها ناحيته لأنها قد تمهد لهجره، ولكن من جهة أخرى حتى تصرفاته في الأيام القليلة الماضية لم تكن مثالية، لكنه لن يسمح لها بتركه خصوصا لرجل مثله لم يكن لامرأة دور في حياته قبل الفن ثم أتت هي لتقلب كل مبادئه راسا على عقب. كان قبل أن يعرفها كالمحارب الذي اقسم أن يفني سيفه للحرب ليأتي فجأة السلام ويربك كل خططه. منذ عرفها عرف السلام وما كان ليسمح بذهاب سلامه قبل أن يحارب من أجله.

في الجهة الأخرى من الباب.. طاف شعرها الكستنائي الطويل على وجهها لكنها أبعدته بحركة سريعة كأنّه لسعها لكن في الحقيقة لم يلسعها شيء آخر سوى الهوة التي أصبحت تزداد كل يوم بينهما. موجة الخوف من فقدان زوجها هي التي ضربت صخور فؤادها أربكتها وجعلتها تتفوه بذلك الكلام. السعادة الزوجية تقام عندما يضحي كل من الرجل والمرأة بجزء صغير من كبريائه كي يتوافق مع الطرف الآخر، لكن ماذا لو كانت التضحية تشبه الحبل الذي نسحب منه كل مرة حتى نصل إلى نهايته في أخر المطاف؟، أخرجت علبة بيضاء صغيرة من حقيبتها تشبه علب الحبوب الطبية التي تباع في الصيدليات، نظرت لها قليلا كأنها تسأل نفسها بعض الأسئلة ثم ابتلعت بعض الحبوب مرة واحدة لكنها لم تكن تعلم بأنّه هناك من يراقب الكاميرات هذه اللحظة وقد رآها ليضغط على زر الشاشة.

ولجت مريم بودي للكافتيريا التي كانت تعبق برائحة القهوة، شعرت كأنها في حقول البن في البرازيل، طلبت كوبا من الإسبريسو وجلست بجانب داني، كان رأسه منحيا أمام كوبه لكنه رفعه عندما لمح شخصا ما يحاول الجلوس في طاولته، لم يتعرف عليها للوهلة الأولى لكنها عرفت بنفسها لاحقا. قالت مريم بودي وهي تستقر في مقعدها:

- ياله من يوم مشرق لا برد فيه ولا حر ولا شيء يؤذي.

نظر لها كأنّه سكران أو قد أخذ حقنة من البنج، لولا أن رأت كوب القهوة في يده لظنت العكس. أما هو فكان يراها كأثينا آلهة الحرب الإغريقية، صحيح أنها جميلة لكن عمله في المتحف ورؤيته للمنحوتات كل يوم جعله يتخيل النساء الجميلات مثلها كأنهن تماثيل لهذا كان يتفهم لما يقولون بأن اغلب الفنانين مجانين، لأنك كي تنحت أو ترسم امرأة جميلة فسيكون عليك أن تتخيل قطعة الجماد تلك وهي تتحدث معك وتحدق فيك، أضاف مستغرقا في خواطره يبدو بأنّه قد قضى وقتا طويلا وهو يعاين تماثيل العصر الإغريقي ما اثر عليه بشدة. بينما رأت الأخرى بأنّه يفكر في شيء لا يعلم إلا الله عن ما هو، اخذ دهرا ليصحى من تفكيره بينما تصبغ وجهه بالحمرة:

- نعم انه جو جميل، وتنهد تنهيدة عميقة.
- أنا المحققة المكلفة بقضية المسروقات.

ازداد وجهه احمرارا، نظر إليها في شيء من الفضول كان على جانب من الخجل:

- لقد قدمت إفادتي حول الموضوع وليس هناك شيء أريد أن أضيفه.

- لن آخذ من وقتك الكثير مجرد أسئلة روتينية اعتبرها كمراجعة لإفادتك.

مال برأسه قليلا معبرا عن تفكيره ثم أومأ بإيجاب.

- يوم السرقات الأولى في الساعة العاشرة مساءا أين كنت؟
- أتممت عملي في الساعة السابعة من ذاك المساء وتوجهت للمنزل مباشرة، أخرجت كلبي للمشي قليلا ثم عدت إلى البيت تناولت كوب من القهوة وغطت في نوم عميق لم اصحى حتى الصباح.
- يبدو انك شغوف بالنوم.
- عادة لا.
- هل يمكنك أن تثبت كلامك؟
- يمكنك أن تتأكدي من كلامي، فحافلة العمال هي التي أقلتني وأنا متأكد بأن الكاميرا الخارجية قد التقطت ذلك.
- ويوم السرقات الثانية؟
- أتممت العمل مبكرا ذلك اليوم، كان لدي موعد مع صديقتي، بعدها اتجهنا لمنزلها وبقيت معها.

أومئت رأسها وراحت تقرب عود الثقاب من سيجارتها وقالت في نبرة عادية:

- لكنني شاهدتك في شريط الفيديو في يوم السرقات الأولى وأنت تعود في الساعة العاشرة، لا يمكننا أن نكذب أعيننا أليس كذلك؟ صاغت السؤال في تهذيب.

شعر بالقليل من الارتباك مما جعله يحرك يديه بعصبية، قال في دهشة:

- هذا غير صحيح لقد كنت نائم أتذكر بانني شربت قهوتي عند العودة من المنزل ثم غطت في النوم لم أتناول الطعام حتى.

كان هناك تناقض بين كلامه والفيديو، أخذت نفسا عميقا من التبغ ليسعل في شدة، نظرت إليه في تشكك لتقول فجأة:

- هل تعاني من أمراض؟

قال وهو يحك جبهته العريضة:

- نعم، الربو.

بان في عينها الدهشة والعجب لأنّ مرضى الربو عادة لا ترتعش أيديهم كما يفعل الذي يجلس بجانبها وقفت ناهضة شكرته وسارت تاركتا إياه يحتسي قهوته بجرعات صغيرة. فكت قرط أذنها الذي كان على شكل فراشة ووخزت به كتفه ليصرخ صرخة كتومة التفت واضعا يده على كتفه ثم رفع نظره ليجدها تحدق فيه:

- إنه مسمار يجب أن تختار كرسي جلوسك جيدا في المرة القادمة.
- أومئ لها وهو يعبس.

زادت ابتسامتها اتساعا، استوقفها صوت منادي، أدارت بجسدها نحو وجهة الصوت الذي عرفت صاحبه بمجرد اقترابه منها. سألها أوسكار وملامحه تنطق بالقلق:

- لقد كنت ابحث عنك في الجوار.
- كنت في المقهى ماذا هناك؟
- لقد طرأ امر جديد.

ضيقت عيناها ونظرت إليه مستفسرة.. في غرفة الكاميرات سمعت مريم بودي الحوار الذي دار بين رجل الأعمال وصهر الكونت وطلبت من أوسكار التكتم عمّا شاهد لأنّ الأمور قد تتعقد أكثر، فالشريط أصبح دليل جريمة. أخذته من يده لكن لم تكن تعلم أنّ كان رجلا يمكن الاعتماد على صمته، كانت ستتحرى عن الشريط لكنها غيرت رأيها وذهبت لوجهة غير معلومة.

عقلية المجرمين

ذهبت مريم بودي إلى اقرب مخبر في جيريفيل على الساعة السادسة ونصف مساءا من ذلك اليوم وقضت نصف ساعة هناك. وفي طريقها إلى مركز الشرطة لاحظت بأن استحالة الطقس في الخريف من الأشياء التي تطبعه. ومن جل الأمور التي استطاعت أن تميزها خلال إقامتها القصيرة في هذه المدينة أن خريطة مناخ جيريفل لها خصوصية لا تجدها في ولاية أخرى، خريفها متقلب جدا ومزاجي كقاطنيه يتميز بثلاث طقوس، طقس صباحي ذو نسيم بارد، وطقس الظهيرة الذي تتمركز فيه الشمس على طول السماء، وطقس مسائي شاتٍ، مكفهر شديد البرودة ما جعل أوصالها تتجمد مثل اللحم في الثلاجة. طوحت برأسها ناحية السماء لترى جماعة من السحب تهرول ناحية بعضها البعض كي تتكاثف مشكلة غيوم كبيرة، بكت السحب بلا عيون، وسيطرت عليها مشاعر الندم، تحسرت لعدم اقتنائها معطف فرو يزودها بالدفء في مثل هذه الأحوال. عند وصولها لمركز الشرطة لم تضيع ثانية واحدة لجمع سائر رجال البوليس المكلفين بالقضية في قاعة الاجتماعات التي كانت مطلية بالدهان الرصاصي، الذي عادة ما يغزو غرف المرضى. قالت وهي تحدث نفسها ((لا عجب أن من يدخل مستشفى الأمراض النفسية لا يطيب بل يزداد خبولا))، رؤية الرمادي لعدة دقائق كفيل بأن يأخذك في رحلة عنواها الاكتئاب، فما بالك لو كنت تراه على مدار اليوم لمدة تزيد عن اشهر. عدا اللون الذي جلب لها الاغتمام كانت القاعة عصرية ومنظمة عكس باقي الغرف الأخرى التي مرت بها.

تعرف أفراد الشرطة عليها مسبقا هذا ما اربحها وقت إضافي للدخول في صلب الموضوع، قدمت شرح موجز عن مستجدات القضية وانطلقت تتحدث بصوت مرتفع:

- المجرم إنسان عادي لكنه يتمتع بمهارة استثنائية وعبقرية في التلاعب ما يجعله يتمتع بعقل ماكر.. رفعت احدى حاجبيها لتكمل.. يريد أن يراوغنا يضعنا في متاهة وهذا يفسر استخدامه للألغاز والأقوال.. أشارت بكفها ناحية اللوح الأسود الطويل الموجود في جانبها الأيسر والذي كانت تتوسطه صورة للرسالة التي تركها المجرم في مسرح الجريمة.. يترك خلفه ملاحظة غامضة وغير واضحة، يتلاعب بالألفاظ ويقلب سياقها. يحدثك عن الفضيلة لتكتشف أنها صورة مموهة عن الرذيلة، يحدثك عن الحياة الفاضلة لتكتشف أنها الجحيم.. كانت تتحدث كقائد عسكري بارع يحاول كشف مخطط أعدائه ويوجه جنوده في استراتيجية ممتازة.. يجب أن نقلب الأدوار أن نجعله كالأعمى نراه ولا يرانا.

تكلم احد الضباط ذو شعر بني معتدل الخلقة، توحي ملامحه بتفتح الذهن، وكان اسمه ورتبته منقوشان على الجهة اليمنى من قميصه:

- هل ترتابين في احد؟

نظرت له مبتسمة ابتسامة غامضة وعيناها لا تفارقان لافتة اسمه:

- لو كانت لدي أي فكرة عمن يكون أيها الضابط دان لم نكن لنجتمع هنا اليوم، عوضا عن ذلك كنت سأرسلك للقبض عليه.. راحت تفكر قبل أن تتكلم من جديد.

اكتسى ذهنها بجميع الشخصيات الرئيسية في القضية من أفراد العائلة وعمال المتحف، كأنها تستعرض الانطباعات عنهم، قبل أن تعدهم كمشتبه بهم ومضت تشرح وجهة نظرها:

- يجوز أن يكون اللص أي شخص. فلتبقوا أعينكم متيقظة لما حولكم، احتمال أن يكون فرد مؤثر في المجتمع وصاحب نفوذ يتوارى خلف الصدقة والعطاء والطيبة، أو رجل عانى من التفاوت الاجتماعي، فقد بريقه في مرحلة ما ويود استرجاع مجده من جديد. أو شخصية ذائعة الصيت في عالم الفن، متعطش للمزيد من الانتباه والشهرة. أو امرأة تختبئ وراء المثالية والجمال لكن لا يجب أن ننسى أن النساء الجميلات لا يكونون عادة طيبات. أو ربما شاب يدعي الطيبة واللين لكنه يبيت الشر. أو شخصية وهمية لا نعرف عنها أي شيء. الخداع سيد الموقف أيها السادة في مثل هذه القضايا، لذا يجب الاحتياط وتذكروا دائما يجب أن لا تحكموا على الناس بمجرد أن عواطفكم تجركم إلى ذلك بل وجب مغالطة النفس في بعض الأحيان.

بعد أن استعرضت جميع الاحتمالات طالب الجميع الاستفسار لجملتها الأخيرة للتكلم:

- مغالطة النفس يمكن أن نلخصها في المقولة التالية التي اعتبرها من ابرع ما قيل.. شمرت على كمها وراحت تكتب شيئا في اللوحة السوداء التي كانت تتوسط الحائط.. جعلتهم يصغون بانتباه اكثر لكلامها وكان صريف القلم هو كل ما يسمع في الغرفة.. " الوقود لا يباع في الغابة ولا السمك في البحر " لقد انتهى زمن المجرم صاحب العقد النفسية والمجنون، نحن في زمن المجرم المثالي أين يظهر في النهار على انه من اكمل الناس محاسنا وفي الليل يقوم بإخراج هوسه. مجرمي هذه الأيام قد ترقوا كثيرا يا ضباط ويجب أن نجابه نحن أيضا هذا الترقي.

تكلم رئيس الشرطة الذي كان يناهز الخمسين من عمره وهو الشخص الذي كان كلامه ينم عن خبرة ونضج في التحريات:

- أنا استبعد أن شخصا لوحده يمكن أن تكون له عصابة يديرها، شخص ذو دهاء كبير يدير عصابة منظمة متخصصة في سرقة التحف الثمينة والمتاجرة بها وتهريبها، فحسب رأي من الصعب جدا أن ينسق فرد لواحده جميع العمليات والخطط.

غضت نضرها في تفكير لتجيبه برد مناسب، لكن تحدث احد الأعوان مازحا بصوته الخشن وفمه الكبير الأشبه بفم التمساح، اكسبها المزيد من الوقت:

- مهما يكن فإنه يسرق الكحل من العين.
- سواء كانت عصابة أو رجل أو امرأة يجب أن نعرف كيف تمت السرقات وما الدافع ورائها، فلكل جريمة هناك دافع سواء كان نفع مادي أو معنوي سيتوجب علينا التنقيب عنه.. أجابته بصوت عميق.

تكلم أحد المراقبين من أخر الغرفة وكان شابا ظريف الحسن يتميز بأهداب طويلة وشعر اشقر:

- في الأمور المتعلقة بالفن والقطع الأثرية يكون الحافز عادة هو الجانب المادي.
- ليس دائما، سيسينك أن تعلم أسباب ومبررات مرتكبي الجرائم.. نظرت إلى محدثها وأكملت تقول.. دوافع الفعل الإجرامي كالفصول الأربع أو دعني أقول بأنّها تشبه المزاج تتقلب وتتغير في كل قضية، كان يمكن أن يقوم بوضع لوحات مقلدة مكان اللوحات الأصلية لكنه تعمد ترك المكان فارغا بدلا من ذلك وترك رسالة لدانتي.

أجابها في هدوء:

- إذا هو شخص منبوذ في المجتمع ويريد أن يلفت النظر والانتباه إليه.
- من المحتمل خصوصا بعدما ترك جملة من ورائه.

اقترح أحد الأعوان وهو يشيح بيده:

- أو انهم مجموعة من الهواة من يعلم؟
- إذا أبعدنا الجانب المادي سيكون لنا ثلاث احتمالات إمّا أنّه شخص منبوذ أو نكرة وأنه يريد الانتباه أو يريد أن يوجه لنا رسالة ويخبرنا عن شيء ما أو انه يريد الانتقام من شخص بفعلته.

سألها عون الشرطة بسرعة:

- انتقام؟

قال الضابط دان وهو يحك أنفه بقلمه:

- اعتقد أن الانتقام من الأشياء الشائعة التي تقدم عليها النساء اكثر من الرجال ويكون سببها عادة الغيرة.

ادهشها برده فقد كانت تظن أن الضباط الشباب قليلي خبرة بحثت عن سيجارة في جيبها لكنها لم تجد سوى مصاصة لتخرج يدها فارغة ابتسمت مشجعة لأفكارهم:

- كلها نظريات صحيحة. لكن تبقى لنا ثلاث أشياء وجب اكتشافها:

الفاعل: هل هي عصابة أم رجل أو امرأة؟

الدافع من وراء السرقات: هل الحافز مادي أو يدفعه شعور معين؟

مكان المسروقات: هل مازالت في جيريفيل أو تم تهريبها والمتاجرة بها؟

قال المسؤول عن مسرح الجريمة الذي لم يسمع صوته كثيرا هازا كتفيه:

- سيكون الأمر صعبا مع مجرم تعتمد علامات إجرامه على أساليب مسرحية مغرضة.

- أنا أقرّ بأنّني لم أتعامل مع هذا الصنف من المجرمين ليس من النمط المعتاد الرتيب لكن كلهم يشتركون في عقل واحد لهذا لن يسبب لي الأمر مشكلة، لكنك ذكرت شيئا مهم أساليب مسرحية.. كتبت شيئا في مفكرتها الصفراء وأكملت.. يجوز أن يكون من أهل المسرح.

استفسر أحد المراقبين عن قصدها بقول أن كل المجرمين يشتركون في عقل واحد نظمت قطار أفكارها وردت بتقديم نبذة عن العقل الإجرامي وبأنه شبيه بالأفعوان طرحت سؤالا وهي تسحب كرسي لتجلس عليه بشكل خلفي بحيث وضعت ذراعيها على ظهره:

- هل يمكن أن يقول لي أحدكم ما هو الفرق بين عقل المجرم والأفعوان؟

سؤال مباغت شل حركة الجميع لم يجبها احد صمت مطلق في القاعة وجو يملئه الترقب، هزت رأسها قائلة:

- حسنا، سأقول لكم. ليس هناك فرق ببساطة لأنّ الأفعوان يركبها الناس عادة من اجل الترفيه والمتعة وكلما كانت خطيرة وازدادت عدد الدورات فيها كلما زادت لهفة الناس لتجربها، أما أدمغة المجرمين فهي شبيهة مع بعضها البعض يقتلون لانهم يحسون باللذة والمتعة في القتل وكلما كان هناك إبداع وخطورة في الجرم كلما زاد اشتهائه واستمتاعه، ستقولون لي لما كل هذا؟ لما القتل؟ سارد عليكم وأقول بأن استجابة العقل

الإجرامي للضغط مغايرة تماما لاستجابة الإنسان العادي، الشخص الطبيعي عند تعرضه للضغط يخرج في إجازة، يشعل سيجارة، أو يتخلى عن العمل الذي يسبب له المشقة. أما المجرم لكي يتخلص من الضغط يقوم بإيذاء الغير ثم يعود لحياته الرتيبة لكن هناك مشكلة، تصبح الجريمة لديه عادة للتنفيس عن نفسه مثل تلك العادة الغير مرغوب فيها والتي لا يمكننا التخلص منها ولا نهنأ حتى نكررها بشكل دوري، كالسهر حتى الثالثة صباحا ونحن نعلم أننا سننهض باكرا، أو تضييع الوقت في ألعاب الهاتف حتى تهلك البطارية. والتكرار يولد الاستمرار. لهذا يدرس المختصون هاته الذهنيات، ليضيفوا أمراض نفسية أخرى بجانب أمراضهم الخاصة.

نظرت إلى كل شرطي بالتناوب بعينيها العسليتان التي امتزج فيهما اللونان البني والأخضر. بدأوا في الالتفات حولهم وظهرت شبه ابتسامات أما رئيس الشرطة فقد قلب عينيه لدعابتها السمجة وقهقهت قائلة:

- امزح، إنّ حسّ الدعابة عندكم منعدم.. استقامت مصلحة جلستها وأردفت مكملة حديثها.. إنّ الأفعوان من التركيبات الصعبة التي برع فيها الإنسان يرونها الناس أداة للمتعة لكن الأخصائيين يستطيعوا أن يستنبطوا منها العديد من الدروس والقوانين الفيزيائية المهمة كالجاذبية والكتلة والسرعة، أما عقلية المجرمين فهي مهمة لدراسة اخطر ما قد يصل إليه عقل الإنسان البشري، ستذهلون بحق من الألغاز والعقد والأحجية التي يحوزها هؤلاء الأفراد وتذكروا دائما أن لكل لغز يستعمله المجرم مغزى يقابله ليس هناك شيء وليد الصدفة في الإجرام بل التنظيم أو الارتجال. لقد أوردت لكم فقط صدرا من عبقرياتهم وليس الكل.. تحدثت في مرح.

تحرك الضابط صاحب الشعر البراوني في كرسيه بغير ارتياح وهتف في تفكير بنبرة صوت غريبة:

- اذا فـالمنطق يقـول اذا كانـت هنـاك ثـلاث سـرقات فسـيقابلها ثـلاث رسائل من المجرم أو على الأقل اثنان وليس واحدة!

ظهـرت ابتسـامة بطيئـة على شـفتها، أومـأت برأسـها لتربـت بلطـف على كتفيه:

- أحسـنت أيهـا الضـابط هـذا مـا جعلني اشـك بأنّه يوجـد شـخص قـد عبث بالأدلة قبل وصولنا.

لـم يسـتطع تجاهـل شـعور الخجـل الـذي سـيطر عليـه ممـا أدى إلى تـورد خديه، تقوسـت شـفاه رئيس الشـرطة في غير اقتنـاع وقـد عكـف على نطق الكلمات بإرهاق نظرا لبدانته:

- لـيس بالضـرورة أن يكون هنـاك عبـث بالأدلـة ربمـا لـم يتيسـر الوقـت للسارق كي يتم جمله أو كتابتها من الأساس تحت تأثير المفاجأة، على الأرجح قد تمت مباغتته ومجيئ شخص أخر إلى الغرفة.
- فرضية هشة ولكن لا يجب أن نفوتها.

وجهـت سـؤالها إلى المسـؤول عـن مسـرح الجريمـة حـول إمكانيـة تدعيمـه لإجابة رئيس الشرطة ليقول بعد تفكير:

- اسـتنادا لفحصي للمسـرح أؤكـد بأن السـارق قـد اخـذ جل وقتـه ليس هنـاك أي علامـات للسـرعة فلـو كان العكـس كنـا لنرى مزيـدا مـن الـدلائل فالسـرعة عنـد المجـرمين تولـد الارتجـال وارتجـال المجـرم عـادة مـا تـؤدي إلى فضحه لذا استبعد الأمر.
- حسـنا اذا لـدينا قصـة ذات جوانـب متفككـة نحتـاج أن نـربط بـين أجزائها.

أرتهم الشريط الذي كان بحوزتها والذي يدين داني وقد اتفق معظم عناصر البوليس على اعتقاله واستجوابه من جديد وتكتمت حول شريط دانييال، ألصق محافظ الشرطة قائمة المشتبه بهم في اللوحة السوداء مع إضافة اسم داني كمشتبه به أول في اللائحة. اقترح فينيث لوني رئيس الشرطة بأن يصدر امر اعتقال بحقه ووافقت:

- لم يبقَ لنا الآن سوى إصدار بيان إلى وسائل الإعلام والصحافة.

سألها عن جاهزيتها لذلك نظرت له دون أن تطرق وقالت في حزم وحدة وهي تعقد ذراعيها:

- أنا لا أقوم باستطلاع رأيك لقد حسمت الأمر، لست مجبرة على إقناع الجميع بكل خطوة اتخذها ما اطلبه هو ترك التحقيق يسري كما هو بدون عرقلة.

نظر إليها كأنها مختلة أو مريضة مصابة بجنون العظمة.

- ألا تظنين بأنّ الصحافة ستهيّج الأمر أكثر فأكثر؟

ارتفع حاجباها وهي تسند ظهرها إلى المقعد قليلا:

- و هذا هو المغزى نريد أن يطلع الجميع على ما يحصل في هذه الولاية حاليا، نحن الشرطة نعتبر أعداء للسارق لكن ماذا لو أصبحت كل المدينة تكن له العداء؟ سنجبره على إظهار نفسه لا تقلق.

كانت تأمل بردة فعل من المجرم. اكتفى بهز رأسه المستدير ناظرا إلى ساعته التي قد تجاوزت الثامنة مساءا وضع يديه المكتنزتان فوق ركبتيه

العريضتين متهيئ ليقوم مما أدى إلى إصدار صرير مزعج آتي من الكرسي الذي تحمّل أكثر ممّا تتحمّل الكنّة من العجوز لكنها استوقفته قائلة:

- سيكون من واجبك مقابلة الشهود.

نهض وهو محتقن الوجه يغمغم بين أسنانه كلمات لم تفهمها، كانت تتوقع منه أن يرضخ لإرادتها وذلك ما كان يحدث دائما لجميع الأشخاص في حياتها. انفض الجميع من حولها فأرسلت في طلب الضابط دان مرة أخرى، سبقه عطره معلنا عن حضوره، كانت رائحته ثقيلة شتوية توحي بالدفء مثل رائحة الأرض الندية الممزوجة بخشب الصندال ورشة الفانيليا، تتناسب تماما مع برودة جيريفيل. راحت تتفحصه في ذهنها كان اكثر ما يميزه هو عيناه اللتان تشبهان عينا النسر. سألها عن غرضها، أرته صورة ما استفسرت منه إن كان يعرف صاحبها تأمل الصورة قليلا ليجيب:

- رأيته في البلدة عدة مرات يبدو لي أنه من أصحاب النفوذ لكن لا اعرف الكثير حوله
- إذا هذه مهمتك الحالية أن تعرف الكثير عنه.

اتجه ناحية الباب قاصدا الرحيل لكنه توقف في المنتصف ليستفهم إن كان صاحب الصورة مشتبها به، ردت المحققة ببطء:

- مجرد احتياط.

نظر إليها باهتمام بالغ كأنّه لم يقتنع بكلامها، استأذنها للانصراف وظهرت من وراءه شابة متوسطة الطول، ترتدي مئزر ابيض فوق جسد نحيل، ذات عينان باهتتان نتيجة لتعرضهما لضوء الكومبيوتر كثيرا. نطقت وهي تضع فوق طاولة الاجتماعات الطويلة مجموعة من الوثائق:

- أنا ناشا بيجي طبيبة الأمصال من فريق الطب الشرعي أردت اطلاعك على النتائج.

بسطت مريم بودي يدها لتتناول الأوراق وراحت ترتشف بعض القهوة وتعابير التقزز بادية على جبينها كأنها طفل صغير يكتشف للمرة الأولى المذاق المر. كانت قهوة سيئة بحق، تفحصت الأوراق أمامها وأجابت:

- ما هذا الذي مكتوب.. عفص؟
- نعم إنها العفصة، أنت تعلمين بأن مدينتنا مشهورة بأشجار البلوط صحيح؟.. أومئت المحققة بإيجاب.. والعفصة تنمو في أشجار البلوط، موطنها دول البحر الأبيض المتوسط هي عبارة عن نمو غير طبيعي على النباتات تسببها عادة اليرقات لها أشكال عديدة انظري... أرتها بعض أشكال العفصات.. لكن الشكل ليس مهم ما يهم أن العفصة تنتج منه مادة لزجة بنوعين بطريقة الغليان لمدة ساعتين والطريقة الثانية هي وضعه في ماء وتركه ليتحلل لكن هذه الطريقة تأخذ مدة طويلة عكس الأولى تلك المادة الشفافة المستخرجة منها تخلط مع الفحم لتنتج لنا.. إحزري ماذا؟

نظرت لها في حيرة وتفكير ثم تلألأت عيناها فجأة كأنها اكتشفت سرا ما وقالت في همس غير مصدقة:

- حبر!

أومئت الأخرى بابتسامة عريضة:

- الحبر السري.

سألتها بسرعة:

- لهذا كانت الكتابة غير مرئية !

سقطت خصلة من شعرها المجعد المصفف على شكل كعكة عشوائية لتضعها خلف أذنها:

- تماما، فعند الكتابة بالمحلول الشفاف المستخلص من العفص ستكون الحروف غير مرئية وبمجرد أن يجف ويتطلب الأمر أن تمرري قطنة مبللة بالخل والأملاح كي تظهر الكتابة بشكل أسود وفي حالتك لقد أسقطت احمر الشفاه الذي يدخل في تركيبته الأملاح المعدنية لهذا انكشفت الكتابة.

زمت شفتيها:

- يا له من ذكي.. لازال يهرني.
- هذه الطريقة قديمة جدا كانت تستخدم من طرف المعارضين في توجيه الرسائل لاتباعهم خشية اكتشافهم من طرف الحاكم كما كانت تستعمل في الحروب من طرف الجواسيس، وحاليا على ما يبدو يوظفها المجرمون أيضا.

حركت كوبها الفارغ وأعادت نظرها لطبيبة الأمصال التي سكتت عن التفسير:

- لما برأيك يخسر وقته في تحرير خطاب غير مرئي بينما كان يستطيع الكتابة بحبر عادي؟ هل هو استعراض للمواهب؟ أم انه كان يريد توجيه رسالة معينة للشرطة؟
- تتعدد الاحتمالات ولكني متأكدة من وجود مورد واحد للفحم في جيريفيل وكان من الممكن معرفة من اقتناه بمجرد النظر في سجلات الاستيراد.. استمرت تقول بصوتها الرقيق.. إذا باعتقادي كل شيء قد درس

وخطط له من قبل ولم يود أن يترك دليل واحد يشير إلى هويته ولا حتى في الكاميرات.

أصغت بانتباه لكلامها ثم أجابت:

- سأجبره على الظهور حتى لو كان هذا أخر شيء افعله في حياتي.

قالتها بنبرة تحدي عمدت لمواصلة الاطلاع على الملفات لم تكن تقرأ في صوت مرتفع بل بعينيها فقط لذا سكتت الطبيبة عن الكلام لأنها لا تعلم إن أتمت تصفح جميع الأوراق التي في يدها.

- هل هذا كل شيء؟

مرّرت لها أوراق أخرى متحدثة:

- أجرينا بعض التحاليل على ذرات الغبار التي بعث بها اليوم وقد تبين من النتائج وجود جزيئات الرطوبة لكن على الأغلب متولدة من اللوحات والجو والزائرين في الغرف، لاسيما اذا أخذنا بالاعتبار وجودنا في منطقة متوسطية وداخل متحف أينما تكون كمية الرطوبة الهوائية عالية جدا، لكن اهم اكتشاف هو مكون مادة اللدنة الموجود في البردي والبردي هو نبات طويل الساق يشبه القصب في شكله ويمكن إيجاده في الغابات الاستوائية المطيرة ودول البحر الأبيض المتوسط.

قالت وهي تتفحص الأوراق من دون أن ترفع رأسها:

- ما هي استعمالاته؟

- يدخل في عديد الاستخدامات مثل صناعة الحبال والسلاسل والأكواخ والنعال وغيرها لكنه مشهور اكثر كورق لأنّ المصريون القدامى والفراعنة كانوا يستعملونه كورق للكتابة.
- أين يمكن أن نجد هذا النوع من النبات في المنطقة؟
- موطنه الأصلي من هنا لذا ستعثرين عليه أمام البحيرات والأنهار.
- معلومات كثيرة بالنسبة ليوم واحد لقد أرهقت ذهني في التفكير.

تكلمت بينما رمت الأوراق من يدها فوق الطاولة، كان وجهها متعبا. بحثت في جيبها مرة أخرى عن لفافة تبغ غير أنها تذكرت بأنّها حركة سبق وأن قامت بها لكنها لم تجد شيئا فاجأتها ناشا بوضع سيجارة على يدها، امتنت لها وراحت تقول:

- هناك الكثير مما يثير الاهتمام في هذه القضية.

بقيت الطبيبة تترقب الوضع تحت نظارتها المزينة بإطار ازرق معدني فاتح، كانت تبدو لطيفة كالقطة غير أنها بللت شفتيها بلسانها وقالت في انتصاح:

- ربما يجدر بك اخذ قسط من الراحة.
- لقد ألفت الاستقصاء والتحري سيصعب على شخص مثلي أن يهنئ بحياة طبيعية خامدة.

كانت مواساتها لطيفة مثلها، أكملت بابتسامة عذبة:

- اذا ارجوا ألا تصرفك زحمة عملك في الاستمتاع بحياتك.

طوحت برأسها للخلف واطلقت تنهيدة طويلة، تدل على الاستسلام للأمر الواقع وهي تتذكر كل من إجازاتها المقطوعة، التي لم تستغلها كما يجب.

وقول طبيبة الجلد الخاصة بها حول كم أن الإجهاد سيء للبشرة. شعرها القصير الأملس بدا يعود إلى طبيعته المتموجة من الأمام بعد أن نالت منه قطرات العرق على اثر المكيف الذي قد رفعت حرارته بشكل مبالغ فيه، أما بشرتها فكانت تتوهج كالشمس عند المغيب. أجابت وذقنها البارز هو كل ما يرى من زاوية الطبيبة:

- كل إنسان يطمع المتعة من الحياة لكن عندما تلح عليك فكرة ما لا ينبغي أن تتوقفي في منتصف الطريق.

سألتها في دهشة:

- حتى إن كانت على حساب سعادتك؟

لم تتفاجأ بسؤالها، لقد اعتادت أن تسمع مثل هذه الأسئلة رغم ذلك قالت في قناعة:

- لن اشعر بالرضا اذا لم أؤدي عملي على أتم وجه.
- أسفة على ما سأقوله أيتها المحققة ولكن لا داعي لتمثيل المرأة الخارقة واصطناع البطولة طوال الوقت.
- ليس بالضرورة اصطناع البطولة أو غير ذلك من الأمور، لكنني اؤمن بأن روح المرأة تشبه الإسفنجة مليئة بالثقوب لكنها تستطيع الاحتفاظ بالماء، روح تظهر على أنها هشة من الخارج غير أن لها قدرة عجيبة على الصمود والشفاء والمقاومة.

ردت عليها طبيبة الأمصال بنبرة تجوبها السخرية:

- اذا وضعنا جانبا الهرمونات ربما..

لم تتمالك نفسها من الابتسام وراحت كل واحدة منهما تجادل الأخرى وتحاول إقناعها بوجهة نظرها، الطبيبة التي لا تؤمن سوى بالأشياء المادية الملموسة والنظريات، والمحققة التي تعد الجانب النفسي خاصية مهمة لتأثيره على سلوك الفرد. وعلى تلك الحالة افترقت المرأتان.

الكذب ذنب لابد منه

ذهبت مريم بودي إلى فراشها تلك الليلة غارقة في التفكير، لم يتوقف عقلها عن الدوران، بلا تعب كالطاحونة. بالرغم من جسدها مرهق، عقلها لم يكن يبادله نفس الشعور. نقضت النوم رامية البطانية عنها واستقامت من السرير مطقطقة مفاصلها في تزامن واحد، مثل نوتة موسيقية. خاضعة لتفكيرها لأنّ حدسها قلما يخطئ. لفحها نسيم البرودة مسرعا قادما من النافذة المفتوحة في المنتصف مما أدى إلى فعل غير إرادي ظهر على شكل قشعريرة. كانت الغرفة التي تستقر فيها أنيقة الأثاث لا تشوبها شائبة، أشعلت المصباح المستقر إلى جانب طاولة الشاي الصغيرة التي أصبحت عبارة عن مكتب صغير بعدما وضعت فيه مستلزماتها، مثل المفكرة والحاسوب المحمول وراحت تفكر في أن ليس هناك احسن من ظلمة الليل للكشف عن الأسرار. شاهدت جميع أشرطة فيديو ليالي السرقات المأخوذة من المتحف وكتبت عدة ملاحظات لكنها توقفت فجأة واستقرت عيناها على احدى التسجيلات كما تستقر عينا رامي القوس على هدفه بدت مقلتها أكثر تألقا بعد أن أشبعت رغبة عقلها، واكتشفت علامة جديدة. أطفت نور المصباح الخافت بغرض النوم لكنها رأت من النافذة جمال السماء وطبعها الفضولي لم يكن يسمح لها بتفويت تأملها، كان قمر حصاد لأنه يتوافق مع وقت الحصاد حيث شبهت القمر بمصباح نيون يسبح في ظلام لا متناهي، اتسعت عيناها لما لمحت شخص غريب يتسلل إلى الحديقة بخفة وبطريقة لا تثير الانتباه، لم ترد تفويت ذلك، ارتدت ثيابها بسرعة وهبت مسرعة كالريح، غادرت غرفتها ثم الدهليز ومن ثم القصر إلى الحديقة، تتبعت الشخص خطوة بخطوة بدون أن تصدر أي صوت في خطواتها والفضول يستجد بها. سلط المصباح الذي كان معلقا في الشجرة ضوئه على زاوية

جانبية أين تسنى لها رؤية وجه الشخص الغامض، لقد كانت سكيل بوجهها الذي غزاه النمش من كل جهة متأنقة في فستان زمردي قصير يصل لفوق الركبة. جعلها الأمر تتساءل إن كان يسمح لها الخروج في وقت متأخر أم أنها خرجت من دون علمهم. تبعت حذوها بحذر لتراها ذاهبة من وراء الحديقة المسورة ومن ثم مرت عبر ثقب في الجدار، اتضح بعد أن أزالت عنه زمرة من الأغصان والأعشاب بأنّه عبارة عن ممر سري لم تستطع الكاميرات رصده، لأنّ الطريق كان ملبد بالظلام وعندما حان الوقت للمحققة أن تعبر منه انعط ثوبها نتيجة لجذب احدى الأسلاك الهائمة، سحبته بقوة عندما لمحت قطعة قماش أخرى متشبثة بسلك أخر، جذبتها هي الأخرى وتبعت سكيل إلى الشارع الخلفي، وقفت برهة وهي تنظر في كل اتجاه، تحاشت مريم بودي نظراتها وراحت تخرج هاتفها المحمول، كانت وكأنها تنتظر مكالمة شخص ما أو ترغب في القيام باتصال. بقيت على حالة التطلع والترقب حين أتت سيارة حمراء مكشوفة لتحملها، كانت السيارة تنقل داخلها مجموعة من الشباب والفتيات، استطاعت مريم بودي أن تحفظ رقم السيارة جيدا في عقلها لتتوارى بعدها السيارة ومعها سكيل عن الأنظار، وابتعدت المحققة هي الأخرى على رؤوس أصابعها وبعد أن عادت أدراجها إلى غرفتها بحذر أول شيء قامت به هو كتابة أرقام لوحة السيارة فوق مفكرتها الصفراء بسرعة، وهي تفكر بالحقائق التي حدثت للتو. لقد كانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لها خصوصا إن كانت سكيل متورطة في شيء ما سيكون الأمر كمن يدق الجرس على غفلة. لم تكف عن التفكير في الأمر، رمت نفسها على السرير باغية النوم لكن لفرط الذهول لم تستطع إغماض عينها وهذا ما أدى لانتفاخهم في الصباح، حاولت تخفيف التورم بوضع الآيلاينر الذي كان خطا حادا يشبه الرماح. بينما كان صباح اليوم التالي يشوبه بعض الاضطراب، شربت قهوتها مع الكونت وأدا عندما انسحب الآخرون مبكرا

كلّ لمهامه استفسرت أدا حول ملامحها التي كان ظاهرا فيها الإعياء فكانت إجابتها بأن الأحلام المزعجة لم تفارقها، اقترحت عليها رئيسة الخدم أن تضع قطعة من الخبز تحت الوسادة لتتجنب الكوابيس وما كان منها إلا أن تتعجب من كلامها الذي اكل عليه الدهر. طاولة الفطور اشتملت على ما لذ وطاب من الخبز الفرنسي المحمص اللذيذ، ومختلف الأجبان والكرواصون الذي أتت به مادلين. كانت مادلين خادمة لدى أسرة محترمة قبل استقبالها في القصر، فبعد موت السيدة التي ساعدت على انتشالها من الميتم اشتغلت لدى عائلة لومير كانت، شابة محافظة وخجولة ذو انف رفيع وفم رقيق وعينين برئتين، ترتدي ثوبا بسيطا. تشبه زهرة الأقحوان في الرقة ويخالجك شعور بأنّها من الأشخاص الذين يرون الحياة من الزاوية الوردية.. أما بالنسبة للحدث الأهم ذلك الصباح والذي سالت أقلام الصحافة حوله فكان البيان الذي قدمته الشرطة المحلية للصحافة بخصوص سرقة لوحة الأمير عبد القادر، الذي خلف من وراءه جلبة كبيرة نظرا لأنّ مثل هذه الحوادث نادرة الحدوث في مدينة أرستقراطية كجيريفيل، كان هذا سببا منطقيا كي تحظى بتغطية إعلامية واسعة حتى أن الإعلام التلفزيوني قد خصص فقرة خاصة حول الحدث في بلاتوهاته الإخبارية. حتى أن بعض القنوات المحلية قد عمدت على استضافة خبرائها لتحليل البيان، بل كان هناك أيضا العديد من المحللين الغاضبين الذين انقسموا حول أحقية حراسة النبلاء لتراث البلد وآخرون يرون أنهم يتعرضون لترهيب جديد من طرف الدولة الجارة وانهم بهذا الشيء يتلقون تهديدات حول الأمن القومي.. قدمت الشرطة أرقام خاصة تظهر بين الفينة والأخرى اسفل الشاشات، كي يتمكن المواطنون بالإدلاء عن بعض المعلومات أو الشبهات أن وجدت.

بالعودة إلى القصر كان الكونت في حال سيئة يعاني نوبة من العصبية التي قرر أن يصبها بطريقة فجائية حول مادلين، تعليقه عن كونها من اكثر الخدم كسلا في القصر لم يكن له أي معنى، لأنّ حسب ما رأته المحقّقة فهي خادمة تتسم بالطاعة. بينما بقيت الأخيرة صامتة كالحجر. وقف يتحدث في الهاتف بعض الوقت ممررا أصابعه فوق لحيته تارة ومخرجا منديلا ابيض ليجفف جبينه تارة أخرى نظرت إليه مريم بودي مشدوهة بعد رفعه للسماعة للمرة الخامسة على التوالي، وبحركة مفاجأة حيث قذف بالهاتف في الجدار المقابل مما أدى إلى تهشيمه إلى أشلاء، بينما ازداد دنوًّا منهم كان في حالة لا يحسد عليها. الأمر قد زاد عن حده فبعد انتشار الخبر انهالت عليه الاتصالات من كل جهة فكان مجبرا على الرد على المهاتفات كل دقيقة لإسكات الفضوليين الذين أثارهم النبأ. قاوم التوتر الذي استولى عليه وعاد يشرب قهوته بشكل عادي من جديد وقد خفت حدته. حين فرغ من ارتشاف القهوة قال موجه كلامه للمحققة:

- كيف تسير القضية؟
- تتقدم بشكل جيد نحن بصدد اكتشاف حقائق جديدة.

أومأ رأسه باقتناع لما سمعه، ثم انسحب في صمت ليغيب بعدها ثلاث أيام بحجة العمل، رفعت أدا نظرها ناحيته وهي تضع من يدها جدول الأعمال الخيرية، كانت تنظر إليه مليا جامدة الأسارير وهو يشق طريقه نحو الداخل لتلتفت قائلة:

- بالنظر إلى ما يبدو عليه الوضع هل يعقل بأنّه سوء تقدير منك؟

قالت مريم بودي بثقة مطمئنة:

- سأصلح ذلك.

تابعت أدا قائلة وهي تعاود إمساك الأوراق بين يديها:

- بعد غد سيقام تنصيب العمدة الجديد، أعلم أنّك تعملين كثيرا لكن سيسرنا لو حضرتِ بصفتك ضيفتنا.
- سيكون من بواعث سروري أن أشارككم الاحتفال.. تابعت وهي تحتسي قهوتها.. إذا ستكون عطلة أسبوع كبيرة؟
- نعم إنّه أكبر حفل في السنة سيحضره مجلس المدينة وكبار الأعيان ورجال الأعمال والأسر المشهورة في جيريفيل وسيتبع بحفل شاي لهذا أشجعك على الحضور يجب أن لا يفوتك.

أصغت مريم بودي باهتمام وشغف:

- إنّه تقليد رائع شخصيا لا أعرف الكثير من المدن في الجزائر التي تقيم حفلات شاي للعمداء الجدد.
- لكل ولاية خاصيتها وأعرافها وهذا التقليد مرتبط بجيريفيل فقط تتداول العائلات العريقة في المنطقة على إقامة حفل ترحيب بالعمداء الجدد وهذا العام تولت عائلتنا تنظيمه وأشرف أنا شخصيا على التحضيرات.. تابعت وقد تألق وجهها وعيناها اللتان أصبحتا تشبهان حبات اللؤلؤ عند اصطدام الشمس بهما ما جعلها تبدو خيالية، وغير حقيقية كلوحة ساحرة.. أنا امرأة تقليدية أنسة مريم أميل كل الميل إلى رعاية الأنشطة الخيرية اكثر من الحفلات الاجتماعية، ولكني أريد أن انجح هذا الحفل حتى وان لم تكن الظروف الحالية تساعد على ذلك، سأعتبر الأمر تحديا لي وسأحاول إنجاحه.. قالت في فخر.
- لا يخالجني في ذلك أدنى شك فأنا أثق في حسن تدبيرك.

بالعودة إلى المدينة، لم يوجد لثرثاريها حديث سوى عن السرقة وكان من الضروري أن تخرج مريم بودي في مقابلة كي تقضي على الشائعات التي أصبحت تنتشر مثل النار في الحشيش. وتحت ظل الغابات الممتدة اتخذت المحققة ساق شجرة البلوط كمتكأ لها وهي تشهد الحركة المحتدمة حول النهر. كانت الشرطة ذات الزي الأبيض البلاستكي يؤخذون العينات من الأعشاب وقد أقيمت خيم بجانب المكان كمختبر متنقل، لتسهيل عملهم مما أدى إلى اجتذاب رائحة الفضول عند بعض المتطفلين الذين استوقفوا سيارتهم أمام الطريق المحاذي للنهر كي يستفسروا عن سبب وجود الشرطة في المكان، ما خلق ازدحام شديد تدخلت شرطة المرور طاردة إياهم عن المكان كما يطرد الذباب. من جهة أخرى، كان الغواصون قد نزلوا منذ قرابة خمسة وأربعون دقيقة إلى جوف النهر في محاولة لاكتشاف أي أدلة جديدة، فبعد ثبوت أن ورق البردي قد تم اقتطاعه من المكان جهزت الشرطة كل لوازمها لاستكشاف المكان، عاد الغطاسون إلى السطح من جديد محملين بأنواع مختلفة من المقتنيات التي كان يخلفها الناس ورائهم عندما يلجئون إلى النهر هربا من حرارة الصيف، وأحيانا للصيد، فكانت أشياؤهم تضيع في المكان. أما الخردة التي تم استخراجها من النهر أصبحت هائلة ما جعل عمال المخبر يلوون شفاههم ويقلبون أعينهم مستنكرين للجهد الذي سيبذلونه لإجراء التحاليل عليها. أبدت طبيبة الأمصال اعتراضها لكن كشخصية مثل مريم بودي كان يجب تطبيق جميع ما تقول وأخبرتهم بابتسامة عريضة وساخرة:

- لحسن الحظ لدينا ما يكفينا من الأخصائيين مثلكم لمثل هذه الأشياء.

اندهشت الطبية من كلامها فتابعت المحققة بصيغة الأمر:

- أريد تقريرًا شاملًا حول الأدلة

وقبل أن تكمل سمعت صوتا ينادي عليها كان عون الشرطة منبها إياها بوصول الصحافة التي ضربت لهم موعدا للمؤتمر الصحفي في وقت سابق، أومأت له وهي تضع يديها فوق عينيها لتغطيهم من شعاع الشمس.

بعد نحو نصف ساعة كانت قاعة مجلس المدينة قد شهدت زحام غير مسبوق لتغطية المؤتمر الصحفي، للكشف عن التفاصيل الكاملة حول اشهر قضية في الوقت الحالي "سرقة متحف باردو" حيث هبت الصحافة منذ الصباح الباكر إلى المكان منتظرة الحدث بلهفة كأنها مراسيم احتفال دينية، أما الناس فكانوا يتشكلون في جوانب القاعة كالحلقة مدفوعين بالفضول كي يرتشفوا بعض الأخبار الحصرية. استشاط رئيس الشرطة غضبا وهو يشاهد من تحت نظاراته السوداء الحشود التي تتقاطر حول المكان كالجنود في ساحة الحرب، وهو الذي كان يظن بأنّه حدث مغلق، ثارت ثائرته لعدم تقديمه كالمتحدث الرسمي للجلسة حيث لم تحفل الصحافة به أو بوجوده لأنها كانت منكبة حول الشخصية الأشهر في المكان وهي مريم بودي. بينما توزع رجال الشرطة في المكان واختلطوا بالجمهور كان سكان المدينة في الوقت الحالي منكبين سواء في المقاهي أو في البيوت حول النشرة التلفزيونية العاجلة التي كانت ستغطي الحدث، لأنّ الشرطة قد أعطت وعدا بسبق صحفي لإطفاء جميع الشائعات التي بدأت تتكاثر حول المدينة. ومن بينهم ذلك الشخص الذي كان مقابلا للتلفاز منتعلا قفاز مطاطي اخضر كاكي وبلوزة بيضاء تشبه بلوزة الطبيب، ونظارات بلاستيكية تشبه نظارات الكيميائيين حاملا في يديه أنابيب زجاجية أسطوانية الشكل بسدادة من الفلين، تلك التي تجرى فيها بعض التحاليل، كان المكان حوله

أشبه بالمختبر. زاد من قوة صوت التلفزة عندما انطلقت المحققة في الكلام مما أدى إلى ظهور ابتسامة جانبية على خده الأيمن:

- إنه أمر يبعث عن الحزن لوجودي في جيريفيل ليس للاستجمام أو للسياحة وإنما لحل لغز سرقة لوحة الأمير وبهذا الخصوص أريد أن اشكر جميع شرطة وسكان مدينة جيريفيل العريقة على قبول تواجدي بينهم والعمل معهم، سنعمل معا يدا بيد كي لا تزداد أعداد الألسن الجوفاء وسأحرص على أن تستعيد المدينة تراثها وفنها المسروق، يسرني أن أقول بحسب نتاج اطلاعي على ملف القضية بأن هناك تحول جديد في سير القضية وهناك أدلة جديدة بحوزتنا كفيلة بتوريط الجاني، سنبحث في حيثياته جيدا قبل الإعلان عن هوية السارق.

وخزها رئيس الشرطة الذي شبك يديه مع بعضهما البعض وقال في همس ساخرا:

- من يسمعك تتكلمين هكذا يعتقد أن المجرم قد قبض عليه ويستعد للمشي إلى المشنقة.

ظهر عليها الارتباك نوعا ما، حاولت إخفائه مبتسمة للكاميرات التي راحت تأخذ بعض الصور لها متجاهلة كلام ذاك الأخير، كانت الصحافة تواجه حماسا غير مسبوق نظرا لأهمية القضية التي ستنعش بيعهم للصحف من جديد، فراح العديد منهم يكتبون التقارير والأخبار الحصرية التي زودهم بها مصدرهم. سألت إحدى الصحفيات التي كانت تبدو سمراء البشرة، إذا ما كانت الشرطة تعتقد بأنها عصابة خطيرة أم لا، لتجيبها المحقّقة بصوت واثق:

- أنا لم أحدّد بعد إذا كانت عصابة أم شخص لكن حتى وإن كنا أمام عصابة فأنا لا أعتقد بأنّنا أمام جماعة من الهواة، أدرسُ القضية بحرص تامّ لأنّ المجرم يحاول دائما إبعاد الشبهة عن نفسه وأن يحول التهمة نحو شخص أخر، لذا نأخذ كل شيء بالتروي وبالدلائل، بدون أن نتهم شخصا أخر بباطل، واهتمامنا حاليا منصب في تجميع كل الأجزاء المفقودة من القضية وإماطة اللثام عن السارق.

قدم لها رئيس مركز الشرطة وثيقة مرجعية فيها بعض الإجابات المحشوة بالكلام وبما أنها كانت تكره المماطلة أبعدتها جانبا. طالبها اغلب الصحفيين بالكشف عن المشتبه به وقائمة الاتهامات وهذا ما رفضته رفضا قاطعا، قائلة بأن أي كشف مبكر عن التفاصيل سيعيق القضية من التقدم، ولأن في اغلب الحالات التي كشفت الشرطة فيها عن معلومات القضايا تمكن الجاني من الفرار وهذا ما تعده هي بالحركات الطائشة التي يقع فيا الجهاز الأمني، وكل ما ترغبه في الوقت الحال تقديم المجرم إلى العدالة لينال جزائه.

طالب صحفي أخر بسؤال:

- هل تمر الشرطة المحلية بأزمة لهذا تم استدعائك؟

قطبت جبينها مما زاد التهامس في القاعة، كان الجميع يترقب فحوى الإجابة، حبس رئيس الشرطة أنفاسه وحملق الصحفي الشاب في وجهها بعينين واسعتين لا يعرف إخفاء فضوله. لم تكن تريد التفوه بأي كلام يجعل الشك يتسرب إلى النفوس، عكفت دوما على الإجابة بحذر لهذا قالت بعدما بادلت الصحفي الذي كان يبدو شابا قويا، وصريحا النظرات قوية. أجابت في نبرة فولاذية:

- أعتقد بأنّ شرطة جيريفيل من أذكى الأجهزة الأمنية التي عملت معها لكن في مثل هذه القضايا التي تتسم بالخطورة والأهمية يتعاون رجال الأمن بينهم لتبادل الخبرات، وبشرف أقولها، أنا التي اقترحت نفسي لأكون ضمن محققي هذه القضية لأنه بالنسبة لي قضايا الأمن الوطني تخصني أنا شخصيا.

أومأ الصحفي بإعجاب بينما همس رئيس الشرطة:

- لقد كذبت.

استدارت نحوه وقالت في صوت منخفض:

- الكذب ذنب لابد منه.

هب الفضول في أعين الناس الفضوليين، والهيبة والافتخار في أعين الصحافة، مما جعلهم يتحمسون في توجيه المزيد من الأسئلة. لكن المحققة عمدت على إنهاء المقابلة واجتناب المزيد من الأسئلة من موقف قوة، فكلما زاد الحديث كثرت الزلات وهذا أخر شيء تريده، لهذا قالت جملتها في لهجة اعتذار كي تتخلص من الصحافة:

- شكرا لكم جميعا ولسكان مدينة جيريفيل على ثقتهم فينا وسنعلمكم بآخر تطورات القضية في الأيام المقبلة.

نال الإعلام القليل من حديثها والكثير من صورها، فبعد ذلك اليوم تناولت الصحف موضوع القضية بحرص وحكمة اكثر من ذي قبل واضمحلت الأكاذيب التلفزيونية. المدينة التي كانت تغلي بالغضب أصبحت اليوم اكثر هدوءا وزادت شهرة مريم بودي اكثر فاكثر. حتى أفراد أسرة لومير

صاروا اكثر رزانة في تصرفاتهم، وبينما هي في طريقها إلى المتحف رن هاتفها فجأة لتجيب:

- أوه أيتها المحققة لقد وصلتني أخبارك حتى وانا في الجهة المقابلة انكي تتلقين الإشادة من الجميع حتى من الأخبار.
- كف عن إغاظتي يا راس الشبيه بالمربع.

كتم ضحكة صغيرة ليقول:

- أنت لا تتقبلين المزاح مطلقا لكنك تتمادين فيه، على أي حال كان قصدي انك تبلين بلاء حسنا بدوني.

ضحكت ضحكة قصيرة ثم قالت:

- و مع ذلك اشتاق لتحليلاتك واستنتاجاتك.

لم تر الابتسامة التي خطت وجنتاه على الجانب الآخر من الخط.

- ما أخبارك؟ قال ببساطة.
- متعبة، أصبحت كالقرش لا أنام كثيرا.

قهقه بقوة ثم تنحنح:

- مظهرك وأنت متعبة اشد جاذبية.

ابتسمت في حياء مخرجتا مرآتها الصغيرة من جيب بنطالها، تفرست في هيئتها ووجهها، عالجت شعيراتها الأمامية وللمرة الأولى استطاعت أن تكتشف مساهمة شعرها في إعطاء لمحة الجمال لوجهها، كان كالبرنوس. أغلقت المرآة وهي تقول:

- يا لك من مجامل ربما يجدر بي أن أضاعف راتبك.
- كيف يسير عملك؟

قال مغموما وهو جالس في السيارة يراقب المتنزه المقابل منذ ساعة حتى فقد الأمل:

- سيتسنى لي اليوم بإذن الله معرفة أين مكان لقاء العصابة أنا انتظر شخصا ما لديه معلومات تهمني، هذا أن أتى أولا.
- اذا ستلقاني قريبا؟

قال وهو يردد البصر من حوله:

- لن يطول الأمر ربما يوم أو يومان حتى اغلق القضية.. أجابها على عجل.. يجب أن اذهب.

شاهد شخصا غريبا وهو يجلس في مقعد الحديقة الجانبي انحنى قليلا للأسفل، بدأ الفضول يستبد به وبمجرد رحيلة هب مارشملو من مكانه نحو مكان جلوس المخبر، مد يده تحت كرسي الحديقة الخشبي ذو الثلاث الواح بمسند لتظهر بيده قصاصة ورق، قلبها بين يديه ثم قرأ ما فيها جيدا بعد ذلك أوقد شعلة نار بقداحته ليتخلص منها تماما.

عصر ذلك اليوم دقت المحققة ثلاث دقات قبل أن يسمح لها دانييال بالدخول، حيته ثم قذفت أمامه مجموعة من المستندات، قعدت في المقعد الضيق مشيرة بعينيها ناحية الملفات، فهم نظراتها والقى نظرة سريعة على الوثائق لتتأمل في وجهه مستفهمة:

- قل لي ما الذي يجعل شخصا مثلك يتورط مع أمثاله؟

نظر إليها بعينيه الخضراء التي تستطيع أن ترى فيهما انعكاسها بدون أن يفهم، أشارت بذقنها البارز من جديد نحو الملفات، راح يقلب الأوراق بين يديه وظهرت له بعض الصور التي تجمعه مع الرجل فارتسم الخوف والقلق بأعلى معانيهما فوق مساحة وجهه، خفض رأسه وتردد قليلا قبل أن يقول في اضطراب:

- مهما تُظهِرُ هذه الصور لست متورط في أي شيء ولا يوجد أي دليل إدانة، علاقتي به سطحية ولا تستجدي الشك.
- أنا لم اقل بأنّك متورط فلو كنت اعتقد ذلك لكنت حاليا في مركز الشرطة وليس في مكتبك إنما أقول انه شخص وجب الاحتراس منه لأنه سيء السمعة.
- ليس هناك شيء أيتها المحققة، مجرد شيء بيني وبينه لقد قلت لك صلتي به ليست وثيقة.
- الفضول يستجد بي، ما هو الشيء الذي بينك وبينه؟

أظهر بعض التمنع ليقول في خزي وهو يضع يده على حنجرته:

- وقعت في مأزق مالي وقد اقترضت بعض النقود منه، هذا كل شيء.
- هل أنت متأكّد؟ لا نستدين المال عادة من أشخاص لا نعرفهم.

أومأ برأسه، صمتت برهة ثم عادت تتابع حديثها:

- عند بدء السرقات أين كنت؟ بعد العشاء؟

شاهدت بعض النظرات الهاربة منه:

- كنت نائما في المنزل.
- في اليوم الثاني؟

- عملت لوقت متأخر في المتحف ثم ذهبت إلى المنزل.
- لم تلحظ أي شيء غريب ويدعو للشك في تصرفات العمال؟

حدقا إلى بعضهما البعض لينطق:

- لا.. (لم يقنعها الجواب).
- اذا، كنت هنا لوقت متأخر ولم تسمع أي ضجيج أو تشاهد أي شيء مريب؟

هز رأسه في إشارة على تأكيد إجابته السابقة ليتبعها بقول أن العمال يتجولون في الممرات إلى وقت متأخر من الليل وكان هذا شيئا عاديا.

(كاذب) هذا ما كانت متيقنة منه، أكره شيء عندها هو المماطلة فهو كفيل بإفساد المزاج وهي التي حظيت بنوم سيء ! جالت ببصرها في الغرفة المفتقرة إلى الأناقة واللمسة الفنية التي تحوزها باقي الغرف في المتحف، عاودت النظر له، كان رجلا جذابا وأنيق، حسن الوجه، لم يستطع أن يخبأ توتره.

- هل تريد اطلاعي عن شيئا أخر؟
- لا.
- هل أنت تؤكد؟

أخذ نفسا عميقا ثم استطرد:

- نعم.

أحست بأنّها تضيع وقتها عبثا معه، نظرت إليه ببرود وأخذت تقول في لمسة من السخط في نبرتها:

- هذا غريب، موقفك المالي المتعثر تزامن بالضبط مع السطو ما يجعل الأمر يستحق المخاطرة والسرقة ويجعلك المشتبه به المثالي. لم تسمع أو ترى أي شيء، هه، يا للعجب يجدر بك دفع مواطن الريبة والشك أو الإتيان بأي دليل ليبعد عنك الشائعات، وليس العكس. الموقف الذي تضع نفسك فيه حاليا موضع غير لائق ويتسم بالغموض.

لسعه السؤال مثل الحية، تملكه الخوف ليجيب بسرعة:

- ما كنت لأفعل شيئا يضر العائلة التي احتوتني.

رفعت بصرها بحدة للسماء واستطردت:

- يجب أن نرعى الأشياء التي نقدرها، لنأمل بأن ما تقوله صحيح حتى لا تأتي لاحقا للبكاء عند عتبة بابي.. تابعت في برود.. أريد أن أذكرك بأن التستر يعتبر جريمة، لهذا سأمنحك فرصة ثانية كي تفكر مجددا وستكون الأخيرة.

كان كلامها بمثابة تحذير وإنذار له. أقفلت الباب بقوة وهي تغادر ما جعل الآخر يتبادل النظرات الحزينة التي تنخر العظام. ظنا منه بأنّه يعاني موجة من سوء طالع أو لعنة وضعها احد ما على أجداده ما جعل حظه عاثر. مضى إلى الخزانة الحديدية وهو يخرج ظرفا وضعه فوق المكتب واشعل سيجارة وهو يمد ساقيه الطويلتين أثناء جلوسه جال ببصره حول الظرف وهو يفكر إن كان من الأحسن أن يبوح بكل شيء ليتخلص من هذه الورطة أم لا، امتلأت الغرفة برائحة السجائر التي غطت على عطر الورود التي خلفتها المحققة من ورائها.

حاسة بوليسية

كان الليل قد بدأ يهبط على سماء جيريفيل عندما عرجت المحققة إلى مركز شرطة المدينة، قابلها رئيس الشرطة وهو يعقد يديه حول جوانب خصره لأنّه من المستحيل أن يعقدهم على صدره لانتفاخ بطنه، قال وهو يتحدث بتعب:

- من الصعب جدا حمل الناس على الكلام خصوصا المجرمين.

قالت وهي تشق طريقها إلى الداخل:

- لهذا أنا موجودة.

نظر إليها في استغراب بينما اندفعت نحو الغرفة الحديدية، سحبت الكرسي الوحيد في الغرفة، جلست مواجهة للمشتبه به، أردفت تقول بدون أي مقدمات:

- سيد داني ريفيو إلى متى ستلوذ بالصمت وتخفي عني الحقيقة؟

قال بنفاد صبر:

- للمرة الألف أقولها لكم لقد كنت نائم في المنزل، هل علي ترديد هذا الكلام لكل محقق.

تمللت وأخذت تشعل لفافة تبغ:

- أنا هنا لتخفيف عقوبتك ويجب أن تتعاون معي كي ننجح في هذا الشيء، أشك بأنّك تكذب لأنه لدينا دليل يدينك، كما أعتقد أن سبب

إدمانك قد يكون العامل الرئيسي لتوجهك للسرقة.. سحبت نفس من النيكوتين وأخذت تكمل.. أعني الإدمان هذه الأيام مكلف للغاية وعملك في المتحف لن يغطي جميع نفقاتك خصوصا نفقات المخدرات.

نظر إليها مصعوقا وهَمَ يتحدث بصوته القوي:

- مخدرات ! لا أعلم ما الذي ستلبسونه لي أيضا.

- نتائج اختبار فحص الدم كشف عن وجود نسب كبيرة من مخدرات الباربتيورات في دمك، لا يجب أن ندمن الأدوية المخدرة أيها الشاب خصوصا لشخص مريض مثلك، فتفاعل دواء الربو خاصتك الكورتيكوستيرويد مع المخدر الباربتيورات بجرعات كبيرة سيؤدي للموت حتما ! هل تهدف إلى الانتحار؟ أم انك تعاني من مشاكل تدفعك لهذا الشيء.

هتف مقاطعا بريبة:

- انتظري.. مدمن ومخدر.. بقي يلتفت حوله كمن أضاع شيء وهو يقول.. هذه معلومات كبيرة يجب أن استوعبها ثم كيف حصلت على اختبار دمي أنا لم اجري أي فحوصات.

تفرست في وجهه طويلا ثم همت رافعة حاجبها الأيمن بمكر وهي تزيح شعرها خلف أذنها:

- لدي أساليبي الخاصة في الحصول على ما أريد.

وقع بصره على قرطها لتتجلى الحقائق أمامه تيقن بأنّها امرأة ماكرة، أجاب في شيء من الدهشة:

- الوخز كان أنت!! انظري أيتها المحققة أنا لا أعاني من أي إدمان أو مشاكل تدفعني لأصبح متعاطي أو سارق، أنا جد سعيد بحياتي أمارس العمل الذي أحبه ولدي صديقة رائعة لما أهدف لتشويه حياتي.
- ربما يجدر بك أنت الإجابة على هذا السؤال.

استطرد في ضيق:

- أنا واثق مما أقول لم أتناول أي مخدر في حياتي ويمكنك التأكد من طبيبي الشخصي أو من التحاليل الدورية التي أقوم بها عادة فآخر فحص أجريته كان منذ ثلاث اشهر ودمي صاف من أي مهلوسات.
- ربما غيرت رأيك بعد ثلاثة أشهر؟

قال وقد تملكه القلق:

- لا أعلم كيف يجدر بي إقناعك ببراءتي لكني مستعد لفعل أي شيء.

تظاهرت بالاقتناع:

- أي شيء؟
- نعم أنا جاد.

مرت نصف ساعة على إتمام جميع تجهيزات البوليغراف أو جهاز كشف الكذب كما يطلق عليه عادة أمام طاولة غرفة الاستجواب، قلد أعوان الشرطة الذين كلفوا بتجهيز داني مجموعة من الأسلاك السوداء الرقيقة حول صدره ويديه، فاصبح يشبه الروبوت بالإضافة إلى قطعة قماش سوداء تلف عضده الأيمن تشبه الضمادة التي تحاوط ذراع المصابين بكسر، كان يتحرك بغير ارتياح نتيجة التجهيزات الموضوعة عليه وهو يشاهد انصراف الأعوان بعد أن انتهت مهمتهم، حيث بقي في الغرفة ثلاث

أشـخاص، المحققــة ورئـيس قســم الشــرطة والضــابط دان الــذي تــولى استجوابه، عكف يوجه مجموعة من الأسئلة المتتالية وكان يجيب داني عنها بنعم أو لا، وبعـد ظهـور النتـائج على أنهـا إيجابيـة وغير مغرضـة استطردت مريم بودي وهي تشيح بيديها في الهواء:

- أعذروني لم اكن لأتدخل في أساليبكم التي احترمها كثيرا، لكن على غراركم لدي طرقي في الكشف عن الكذب.

أولجت يدها داخل حقيبتها مخرجة مستحضر زينة، واستطردت تقول من جديد في ابتسامة مبهمة:

- لا تعلم المرأة متى يمكن أن تحتاج لتصلح زينتها لهذا نحمل أدوات التجميل معنا أينما نذهب.

لقد ظن الرجلان بأن الوقت غير مناسب للتكلم عن أشياء تافهة بينما راح يفكر فينيث لوني الضخم في غباء النساء، كان دان واقفا هادئا بلا حراك مستمعا لها بصبر ليرى إلى أين ستصل قبل أن يدهشهم ما شهدوه منها. استيقظ اهتمامهم فجأة عندما قامت بفتح مستحضر المسكرة الأسود وضعت مغلاقه خلفه، ضغطت عليه لينفرج عن إبرة، أصبحت المسكرة على شكل حقنة نظرت ناحيتهم وهي تقول:

- إستخدم هذه الإبرة في الحالات النادرة.

قطب رئيس الشرطة حاجبيه وقد بدأ يتملكه القلق وهو الذي كان يتميز بعصبية مفرطة وقال:

- على ماذا تحتوي هذه الحقنة؟
- على السكوبولامين أو مصل الصدق كما أحب أن اسميه.

قال الضابط بنفس مشدوه:

- نفس الشيطان.

أسرعت تجيب بإيجاز لمحتويات الحقنة:

- تماما، تنتج أشجار البوراتشيرو هذا المخدر طبيعيا، عرفته من إحدى المجرمات التي كانت تستعمله لمسح ذاكرة الضحايا بعد سرقتهم. يمكنك حقنه أو دسه في الطعام أو رشه في الوجه، يساعد على إرخاء اللسان ويتحول الضحية إلى دمية سريع الانقياد ويعطيك إجابات واضحة ويمكنك التقصي عن كل ما تريده، بعدها يقوم بتشفير ذاكرة المعلومات في الدماغ ولن يكون في وسعه تذكر أي شيء عندما يستعيد وعيه.

حاول رئيس الشرطة مناقشتها في الأمر قائلا أن قوانين مقاطعة جيريفيل تمنع الشرطة من استخدام المخدرات في استجواب المشتبه بهم. فهذا خرق واضح للقوانين لكنها توجت انتصارها عليه وهي تنفث الدخان في وجهه بعبارة "أحبّ أن أكون استثناء".

قاطع داني كلامهم واتسعت حدقتاه:

- هل يجدر بي اخذ هذه الحقنة؟ لا هذا مستحيل.

التفتت له بسرعة ودنت منه لتقول في همس وبصوت يشع رقة:

- الميت لا يخشى سوء الحظ! السجن أم الحقنة؟ لديك ثانية لتختار.

عندما تراجعت لمكانها قال الأخير بلسان متلعثم محاولا إخفاء توتره:

- حسنا سآخذها.

تحوّلت إلى رئيس الشرطة وهي تغمز له بابتسامة المنتصر:

- أترى؟ أنا لا أجبر أي أحد، كلّ حسب طواعيته وعن طيب خاطر.

احمر وجهه وقست عيناه وصاح في حدة منفجرا في وجهها بينما باتت يداه تتحرك في عنف:

- ما أخبثك! هذه سخرية سخيفة ومهزلة غير مقبولة.

ذهب صافعا الباب وراءه وهو يصيح ويتوعد، تكلمت متنهدة بقلة حيلة:

- يا إلهي على الذكورية ويقولون انه ليس هناك تمييز يمارس ضد المرأة في العمل، سأطلق على نفسي لقب المحققة المظلومة.

أجاب دان على المحققة مفرطة الذكاء:

- إن الرئيس من الأشخاص الذين يثورون بسرعة والمتوجسين خصوصا اذا لم يحترم احدهم القوانين.
- وأنت؟
- لا يستطيع العقرب التنفس تحت الماء لكن يستطيع أن يحبس أنفاسه لمدة طويلة هكذا أنا أتأقلم حسب الظروف.
- هذا يبدو معقولا، لكن تذكر بأن العقرب ينتحر إذا أحاطت به النار من كل الجهات
- لندعي إذن ألّا تسوء الأمور.

ابتسمت ابتسامة عريضة وهي تتخلص من السيجارة. خضع داني للأمر وبعد دقيقة بدأ مفعول الحقنة فأصبح مسالما واكثر استرخاء، عكف يجيب

على الأسئلة كالتلميذ النجيب، احس بنشوة غير مبررة واخذ لسانه في التراخي، قد حان وقت الصراحة. استطردت مريم بودي قائلة:

- هل تعرف أي شيء عن السرقات؟

رد بالإجابة المطلوبة ما جعلاهما يتبادلان النظرات، طالبته بالتحدث عن ما يعرفه فأجاب بطواعية ولهفة:

- هناك من رأى الفيديوهات قبلكم وقد اعتقد بأنّني السارق كنت أظن أنّه سيخبر الشرطة عني أو يخبر المدير لكنه تكتم عن الأمر لسبب لا أعتقد أنّي أعرفه، بعد سكوته ظننته سيهددني لكي يطلب المال مني لكني كنت مخطأ.

أصغت إليه في بعناية وراحت تقول بفضول:

- من يكون؟

أجاب في غير اهتمام:

- غالدي ثيرون.

صمتت تفكر ثم تلته بسؤال آخر:

- هل لك أي يد في السرقات؟

قال في ثقة:

- لا.
- وهل تعتقد بأن غالدي متورط في السطو؟

- لا أدري، لطالما اعتقدت بأنّه يكن شعور التقدير للكونت ولم يخطر في بالي انه يمكن أن يفعل شيئا كهذا.

بعد دقائق ارخى جفنيه ومال برأسه إلى الوراء ليغط في نوم عميق.

قال الضابط دان وهو يداعب شحمة أذنه:

- هل نصدر مذكرة اعتقال بحقه؟
- لا اتركه أريد أن اعرف إلى أين سيصل لا يجب أن يعلم أننا عرفنا ما قام به.. اطرقت برأسها لتكمل.. هذا غريب لما تستر عن داني اذا كان يعتقد بأنّه المذنب. اذا كان يكن احتراما للكونت ما كان ليخفي عنه هكذا معلومة أو عن الشرطة.

حك ذقنه وهو يقول في تفكير:

- على الأغلب لم يكن متأكدا.

لم تقتنع باستنتاجه:

- اذا كان كذلك فمن غير الممكن ذهابه ليتحدث معه، لا اعلم فيما يفكر أو ما هي أسبابه على الأرجح قد ظن بأن هذا السر قد يعود عليه بالفائدة في احد الأيام لهذا كتمه
- حسنا لنقل بأن اللص ليس داني اذا من يكون.

شكلت يديها على شكل هرم وراحت تشرح له:

- كل ما يتقدم التحقيق كلما يزداد عدد المشتبه بهم ثم يبدؤون بالسقوط واحدا تلو الآخر، من اعلى الهرم كخيط عنكبوت يسحبك في

اتجاه لا تريده، لا يمكنهم التملص من قيود القانون وهذا ما ستكتشفه في الأيام القادمة.

أعطته ورقة مشكلة من عدة أرقام لتقول بعدها:

- أريد أن اعرف صاحب رقم هذه السيارة.

راح ينظر إلى أرقام الورقة الطويلة حتى اختلط بعضهما البعض في عينيه ثم حول وجهه ناحية داني ليستطرد:

- ماذا نفعل به؟
- إنّه في مملكة الأحلام اتركه فيها حاليا.

أومأ لها ليفترق كل منهما إلى شغله وهي خارجة من الممر تصادفت مع ناشا بيجي طبيبة الأمصال:

- يا لها من مصادفة رائعة أيتها المحققة بحوزتي تقرير الأدلة التي جمعها علماء الأحياء في النهر هل تريدين الاطلاع عليها؟
- أي شيئ أثار اهتمامك؟

توقفت لحظة ثم أردفت:

- في الحقيقة هناك شيء جدير بالذكر من بين الحاجيات التي انتشلها الغواصون من النهر صنارة صيد.

أجابتها وهي تمرر يديها في شعرها:

- ما الغريب فيها؟

قالت الطبيبة وهي تتمشى في رواق المؤدي لغرفة الاجتماعات:

- هـذه الصـنارة بالـذات بكرتهـا التي تسـتخدم لإطلاق خـيط الصـيد واستعادته.. قاطعتها.. نعم اعلم ما هي بكرة الصنارة

فتحت باب غرفة الاجتماعات الكئيبة التي أصبحت باردة نوعا ما بسبب تعطل المكيف. أغلقت الطبيبة الباب وهي تقول:

- مصنوعة من النيكل.
- لا اعرف الكثير عن المعادن

جلست ناشا وهي تضع التقرير على الطاولة الطويلة مستطردة:

- النيكل أو العفريت الصـغير كمـا يسـميه الألمـان هـو معـدن مقـاوم للصـدأ ويسـتخدم كـواق للمعـادن يـتم اسـتعماله كثيـرا في الصـناعات العسكرية.

قطعـت حـديثها سـائلة متململـة وهي تعلـق سـترتها على مسـند المقعـد لتجلس بجانبها:

- هل أنت عالمة أمصال أم معادن؟

نطقت بوجه جامد:

- أنا أحاول أن أشرح لك عن اكتشافنا ومن باب اللباقة أن تستمعي.

وعدتها مريم بودي بأن لا تقاطعها مجددا وستستمع لها بأدب وإنصات، استرسلت الطبيبة في الحديث بعد أن سكتت:

- كلمـا كان السـطح خشـنا سيصـعب تحديـد البصـمة عليـه والعكـس صحيح والبكرة سطحها ملس جدا ومطلية بالنيكل الذي يساهم على حفظ

البصمات عكس المعادن الأخرى حتى لو كان تحت الماء واستغرق مدة من الزمن وقد اكتشف العلماء أثار بعض الدماء على مقودها ولما ظهرت نتائج تحليل الحمض النووي وجدناه متطابق لدم مسيو جونز الذي توفي العام الماضي.

سكتت ثم قالت في تفكير:

- مسيو جونز أين سمعت هذا الاسم.. أوه، ذلك الشخص الذي غرق عند فيضان النهر.
- أجل، هو بالذات لكن هذا الشيء يطرح عدة تساؤلات هنا اذا كان قد غرق حقا لما يوجد دمائه على البكرة، بالمناسبة وجد الخبراء بصمات أيضا لم تحلل بعد نضرا إلى المدة التي بقت تحت الماء لكنها ستستغرق وقتا أو أياما لكي تظهر نتائجها.
- و مع ذلك لستِ مستريحة؟
- يمكنك قول ذلك، لأنه اذا ظهرت نتائج الاختبار ووجدنا بصمات أخرى غير بصمات الغريق سيغير الأمر كل شيء وستتصدر القضية الواجهة مجددا، وسنضطر إلى فتحها من جديد ولن تكون سبب الهلاك هذه المرة هي الغرق بل القتل.

كانت لاتزال تنظر إليها مستفهمة:

- هل لديكي تشريح الجثة؟
- لقد اطلعت عليه سابقا كان استنتاج الطبيب آنذاك أن سبب الوفاة كان الغرق أي لم يكن هناك أي دليل على عمل إجرامي، ولم يكن هناك داع لاستمرار التحقيق. لكن الأمر المثير للدهشة هو أن طبيب الشرعي قد استقال بعدها مباشرة، يا لها من صدفة ألا تعتقدين ذلك؟

- ليس هناك شيء يسمى صدفة ولا يجب أن نترك الأمر على أن يغدو كذلك كل امر يبدو مشوش في البداية لكنه ما ينفك يتضح في الأخير. هل له عائلة مسيو جونز هذا؟

حركت رأسها بإيجاب وهي تقول:

- لديه ولدان مقيمان في الخارج بينما تقبع زوجته هنا في المدينة.
- أمم.. أرجو ألا تتطور الأمور إلى أن نزعجها في منزلها.
- إنّها إنسانة طيبة وقوية لكن بعد وفاة زوجها اعتزلت الحياة الاجتماعية.

اعتدلت في جلستها وهي تقول:

- الرجل كرأس الشجرة والمرأة هي ساقها تحتضنه وترعاه طوال حياتها وعندما يغيب ستصبح كالشجرة العارية من أوراقها، يمكنك أن تتفهمي حزنها عليه، لكن إذا كانت امرأة قوية كما تقولين فلا خوف عليها فالمرأة القوية ترتشف آلامها كما ترتشف كوب قهوتها كما يقولون.

أجابت وهي تعض على شفتها العليا:

- هذا ما يحدث للنساء القويات يرتشفن الألم بجرعات كبيرة حتى يعتقدن أنهن اكتسبن مناعة ضده ثم يحدث وتمتلئ روحهن به ويكون الهلاك هو مصيرهن.

قالت في لهجة مرحة وحالمة:

- يمكنك استثنائي فأنا أشرب سائل الإيكور الذي يتدفق في عروق الآلهة.

قالـت الطبيبـة وهي تمشـي ناحيـة آلـة القهـوة الموضـوعة في الزاويـة وبابتسامة هتفت:

- أما أنا فأحتاج إلى كوب قهوة ساخن ليمنحني بعض الطاقة لإكمال بقية اليوم.. تثاءبت وهي تكمل.. اذا طرأ أي جديد سوف اطلعك عليه.

سادة التلاعب

عصر يوم غد عندما وصلت المحققة إلى القصر كان خاليا من سكانه، طالبت بادا لتقول لها مادلين أنها لم تصل بعد تماما مثل أعضاء المنزل الآخرين. ارتأت أن تتناول قهوتها في المطبخ، فجلست منتصف طاولة الطعام الرخامية والمستطيلة وهي تنتظر أن تحضر قهوتها، انسحبت مادلين لتبقى برفقة العجوز أمينة رئيسة الخدم، كانت أكاليل زهور البلوط التي أضافت لمسة أنيقة على المطبخ الفسيح والتي كانت تزين رؤوس الشجعان والأبطال فيما مضى هي العامل الساحر الذي عكس رقي المطبخ، بينما أخذت الخزائن التي تحتوي على أواني الطعام والمواد الغذائية على طول مساحة المطبخ، وبينما كان صفير القدر الذي يرقص فوق موقد الغاز هو كل ما يسمع في تلك اللحظة، قررت مريم بودي بدء الحوار سائلة عن سكيل، لكن رئيسة الخدم قالت بأنّها خرجت على صهوة جوادها. هزت المحققة رأسها قائلة:

- لم أكن أعلم بأنّها فارسة.

أكدت لها ذلك بقولها:

- إنها فارسة ماهرة كما أغلبية أهالي المنطقة أنت تعرفين بأن قاطني المدينة يهتمون كثيرا بالتراث القديم، اغلبهم يمتلكون خيولا ويهتمون بتربيتها والإسطبلات تكتسح مكانا كبيرا في الجهة الشرقية من المقاطعة، أما سكيل فعندما تشاهدينها وهي تمتطي الجواد بمهارة ستكذبين بأنّها صغيرة في السن.

- كل يوم أكتشف شيء يجذبني اكثر لهذه المدينة فأقع بحبها اكثر واكثر ربما يجدر بنا تسميتها بالعاصمة الخالدة عوض روما.

- تشارك مدينتنا في مختلف المسابقات والبطولات الثقافية والرياضية، وبما أن الكونت سيد عظيم وواسع الرزق فهو يشارك بمبالغ كبيرة لإمداد هذه الألعاب وتنظيمها، يمكنك الجزم بأن سكان المدينة كلهم مدينون له ولا يخطر ببالك بأن ابنته تكسب الألقاب بالمحسوبية أو مثل هذه الأشياء فقط لكونه والدها، فهذا غير صحيح اضطرت إلى العمل لمدة شهرين في احدى الإسطبلات فقط لتوفر مصاريف ونفاقات المنافسات التي تشارك فيها، أنت تعرفين بأن عمل الشباب لا يخلو من اللعب واللهو لكنها عصامية. أؤكد لك ذلك.

- إذا هي عنيدة؟

- هي كذلك

مسكت المحققة وجهها بيديها وهي تسند كعبيها على طاولة المطبخ تأملت العجوز التي التفع شعرها بالشيب لتنطلق تقول من جديد:

- احِب الناس الرياضيين أكثر من شيئا آخر على الأقل تعلمين بأنهم يخرجون غضبهم في رياضتهم وليس في الناس أو أشياء أخرى.

- أنت تتكلمين هكذا لكونك محققة ولكونك محاطة بالأشرار دائما، إذا ملأتِ رأسك بالأفكار السيئة فكل ما سترينه حولك هو القبح.

بدت منفعلة وهي تتحدث لكن المحققة دائما ما تبدء تحقيقها بأسئلة جس النبض:

- ليس بالضرورة، عندما تمرين بتجارب تفوق الحصر ستكتسبين ما يسمى ب " الحاسة البوليسية "، صارت سجية لي أن اعرف الناس جيدا

وصدقيني حينما أقول بأن أحكامي قلما تخطئ، أعلم بأنّه هناك جانب سيء يخرج من الأشخاص في حالات الجنون خصوصا في الحالات التي يتدخل فيها المال، فالمال يجعل حقيقة الناس اكثر شفافية.

رمقتها بنظرة خاطفة لتكمل:

- بمناسبة المال هل يتقاضى الخدم مبالغ زهيدة؟

شهدت تغير مفاجئ على تصرفاتها حيث أصبحت تنفث الهواء بشكل متسارع وتسقط الملاعق من يديها وخطوات رجلها تصفع الأرض بقوة، لم تكن من النساء التي تسهل محادثتها تماما مثل كبار السن الذي يظنون بأن شباب اليوم فارغين ومصطنعين ودمثي الأخلاق. لقد كان الأمر مسلي بالنسبة لمريم بودي بينما أبدت الأخرى تحفظا في تعاملها وردت بإجابة غامضة:

- ليس لدي الحق في الخوض في مثل هذه المسائل.

لسبب ما لم تبدي المحققة أي رغبة في التحرك أو تغيير الموضوع واستطردت تسأل من جديد:

- و أنتِ؟

حدقت غير مصدقة وعلامات الاضطراب بادية على وجهها الذي تكسوه التجاعيد قالت باندفاع وسرعة:

- لا أعلم عما تتحدثين أنا اخدم هنا منذ أربعين عاما ولم أشاهد أي شيء يثير الريبة في المكان، طاعتي وولائي للكونت تفوق كل شيء، أرجوك أنا أنشد راحة البال فقط.

للعين حضها من الملاحظة ولقد ادركت مريم بودي بأن كل كلمة نطقت بها عنتها وأنّ جلاء شبابها قد عاشته كله في هذا القصر، لكنها رأت ردة فعل مبالغ فيها، فهمت الأخرى هذه النظرات جيدا. لقد كانت يد الكونت الثانية في القصر لأنّ بطبع الخدم معرفتهم للعديد من أسرار البيوت التي يخدمونها وكثيري التنصت والتجسس. خيم الصمت لتقول بعده:

- قهوتك جاهزة.

نهضت من مقعدها مكرهة طالبتا من مادلين حملها إلى قاعة الشاي وما إن ذهبت حتى صاحت العجوز بنفاذ صبر:

- هذه المحققة وجودها هنا سيفتح جراح كبيرة، لا خير فيما ستجلبه معها من الغموم بالإضافة إلى حشر انفها فيما لا يخصها.
- إنّها محققة هذا هو عملها حشر انفها في شؤون الناس.

لم تستطع إلا أن تظهر ازدرائها وهي تزمجر، استغربت مادلين وسألت:

- هل افهم منك بأنّك لا تحبينها؟ اعتقد أن في كلامك بعض المبالغة.

قدمت لها صينية القهوة لتأخذها، نظرت إلى الصينية وهي تتمتم بصوت خافض يشبه فحيح الثعابين مما أثار القشعريرة في جسد مادلين:

- إنها تثير حفيظتي وحنقي، تستطيعين استشعار شخصيتها الطاغية المليئة بالغرور ولسانها السليط، لديها ذلك الأثر السيء على النفوس.
- هذا سليم تشعرين بأنّها تقرأ أعماقك، لديها هذه الهيبة التي تجعلك تفكرين بكل الشرور التي قمتي بها في حياتك.

إنها ليست المرة الأولى التي ترى مادلين أمينة تتكلم بسوء عن أشخاص آخرين، لهذا ابتسمت لوجهها الغاضب بينما وضعت يدها على وجهها النحيف كي تغطي ابتسامتها وغادرت المطبخ بسرعة قبل أن تترك القدر لتلتفت وتلمحها تضحك.

وقفت مريم بودي في الردهة التي تتفرع منها الغرف المختلفة كالمتاهة التي لا تعرف إلى أين تؤدي، نظرت في جميع الاتجاهات لتطرق باب غرفة الزوجين عدة مرات، قررت أن تسحب المزلاج لتدخل بمجرد إيقانها بعدم وجود احد تسللت كالفأر، تفرست في الغرفة التي تبدو فخمة الأثاث بشرفة تطل على الحديقة جلست فوق الملاءات البيضاء التي تفوح بعطر النظافة. بحثت ببصرها عن أي شيء يمكن أن يشد انتباهها وقررت الذهاب ناحية الأدراج والفضول يستجد بها، قامت بفتحهم واحدا تلو الآخر، استطاعت أن تكتشف وجود بعض الكتب التي كانت مرتبة بالتساوي واحد فوق الآخر لكن ما يثير الاستغراب أن جميع الكتب حول الجريمة والمجرمين لم تعتقد بأنّها من الأشخاص الذين تستهويهم الروايات البوليسية، لكن ماذا يجب أن نعلم عن أذواق الناس أكثر لنتأكد بأنهم غريبي أطوار؟ أذواق الناس تكشف الكثير عن شخصيتهم. ومحبي أدب الجريمة يتميزون بعقل نشط وفطن ولديهم حب الاستقصاء والفضول. انتقل تفتيشها إلى الدولاب عسى وأن تعثر على بقية القماش المبتور على احد الأغصان في الحديقة فإن كان في هذا الدولاب فإن أحدهم هو السارق وسيكون له نفس القماش، غير أنها صدمت لما سمعت وقع كعب عالي يقترب في الممر واختبأت من وراء الستار الغامق الكبير الذي تنفست من ورائه بصعوبة. فتح الباب فكانت أدا التي هبت مستلقية فور ولوجها، نبشت في حقيبتها لتخرج شيئا ما لم تكن تستطيع المحققة النظر جيدا لكنها تكهنت بأنّها شربت شيئا عندما سمعت صوت الكأس وهو يحط فوق الطاولة الجانبية وهذا ما تأكّدت منه بعد

دخول أدا للاستحمام وسط شرشرة المياه. تنهدت آخذة زفير عميق وهي تحس بالهواء يدخل ويخرج من صدرها دفعة واحدة كأنها كانت صائمة عن التنفس. التقطت أنفاسها واتجهت حيث الحقيبة المستقرة على السرير ولم تستطيع إلجام يديها من تفتيشه، تفاجأت عندما وجدت علبة حبوب تشهد نقصا في عددها أخذت قرص واحد لتتعرف عليه لاحقا وانسحبت إلى قاعة الشاي وهي تفكر في أنها لم تكن لتحلم حتى في خيالها أنها ستنزل في قصر أسطوري كهذا وتجلس في طاولة فخمة ترتشف أغلى أنواع القهوة ليس في الجزائر فحسب بل في العالم، لكن لم تكن لتسمح لشعور الزهو أن يزيحها عن المهمة التي أتت من أجلها، انضمت إليها أدا بعد نصف ساعة وهي تشعر بضيق غريب فهذه المرة الأولى التي تسأل عنها المحققة، وحضورها كان سببا في ترك مريم بودي لقدح القهوة الثمينة من يديها، دعتها للجلوس بابتسامة خفيفة ثم استطردت في الكلام:

- أريد أن اعلم إن كنت مطلعة على وضعية زوجك المالية؟

سألتها وهي تحاول إخفاء ارتباكها:

- وضعية زوجي المالية؟ عن ماذا تتحدثين؟
- اذا لست مطلعة على الأمر؟ أسفة لأنني من سينقل لك الخبر.

استفسرت وتغير لون وجهها الذي كان يخالط الحمرة قليلا ليصبح أصفر مثل صفار البيض:

- ماذا هناك؟
- إن زوجك يعاني من ضائقة مالية أدت به إلى الاستدانة من أشخاص سيئي السمعة

قالت فور سماعها للكلام رافضتا التصديق:

- ماذا دانييال؟ زوجي؟ هذا غير معقول.
- للأسف انه كذلك.

رعشة من الانفعال سرت في جسدها وصمتت في شيء من الاستغراب:

- كم اشعر بالخجل لم تكن لدي أي فكرة حول هذا الموضوع ! هل تعتقدين بأنّه متورط مع هؤلاء الفاسدين؟
- أميل في الظن إلى ذلك على الأرجح قد تعرض لتهديد لعدم تمكنه من تسديد الدين ما قد يقوده إلى ممارسة نشاط إجرامي.

اخفت وجهها بين يديها المرتعشتان وهمت بالقول:

- يا للعار !
- اذا كنتِ غير مطلعة على هذا الشيء ادعوكِ للتكلم معه حول الأمر بصراحة حتى نستطيع أن نعرف ما إن كان يتعرض للتهديد أو انه قام بشيء سيء كسرقة اللوحات مثلا، حينئذ يمكننا حل الأمر بيننا مادام لم يتصرف بعد باللوحات. هناك أحداث خفية أريد كشفها لكنه يأبى أن يتكلم معي حول الموضوع.

لقد رأتها تتحول من إمراه على شكل ملاك إلى امرأة بلا روح ارتفع صوتها وخبئت تحت جفونها شلالات من الدموع التي لم تسمح لها بالنزول لتقول:

- هذا الأمر قد فاق كل توقعاتي، لم اعد اعرف الرجل الذي تزوجته أيتها المحققة. الرجال يصنعون الأمور الفظيعة ويجب على النساء تحمل أخطائهم، أفضل أن يموت على أن يجعلني أشعر بالخزي والعار وهذا الشعور الفظيع.

- الخبز المأكول ينسى بسرعة عزيزتي، إن كنت تعتقدين بأن الرجل سيتذكر التضحيات التي قمتي بها من أجله فهذا ضرب من الخيال، خصوصا اذا كان العطاء لمجرد العطاء فقط. على أي حال ربما يجدر بك أن تخوضي في هذه المسألة معه اكثر مني.

طأطأت رأسها بأسف وعندما رفعته من جديد لم تكن المرأة نفسها، لقد ضاع البريق الذي كان يزين عينيها. نهضت وهي تقول في نظرة جوفاء وابتسامة باهتة:

- يمكنك الاعتماد علي.

استأذنت بالانصراف وهي تمشي كأنها ميتة أو كإمراه مريضة محمومة، حاولت استيعاب ما جرى، حركاتها بدت مضطربة كأنها جولييت فقدت للتو روميو خاصتها. وراحت مريم بودي تفكر وهي تنظر إليها في عظمة النساء فالمرأة اذا أحبتك جعلتك تتربع على عرش الكون وإن كرهتك ستشعر بأن الجحيم ارحم منها وما كان ينتظر دانييل في هذه اللحظة هو الهاوية. شعرت بالسوء لأنها كانت هي السبب في شعورها بالاستياء وقد أرادت مواساتها ببعض الكلمات، لكن تبا كم أن الممثلين يجيدون أدوار الحزن، عندما ينهمك ذهننا في الأحاسيس والأفكار والذكريات يجب أن نخضع له. قطع سيل أفكارها هو الظل الذي تحرك بمجرد وصول أدا إلى الباب، ما جعلها تقول في قرارة نفسها أن استراق الحديث هو العمل المفضل للخدم في هذا القصر. وزعت نظرها نحو النافذة لترى الطقس المستقر كأنّه الهدوء قبل العاصفة، أوشك النهار أن ينصرم وقد بدأ ضوء الغسق الباهت في الظهور وفجأة انبثق رعد من السماء.

في نفس اللحظة كان مارشملو يطالع المطر الرقيق الذي بدء يتسرب على زجاج سيارته الأمامية وعلى أغلبية أوراق الأشجار حيث غدت جميع الطرقات تفترش كمية معتبرة منه، كانت عتمة الليالي الشتوية حالكة اكثر من أمسيات الفصول الأخرى كأنّه ينبئنا بغهب على وشك الحدوث لكن لا نستطيع إنكار أنه وقت مثالي للقيادة للأشخاص الحالمين والذين يبحثون عن الاسترخاء وتصفية أذهانهم، ما عليهم سوى القيادة إلى اقرب تلة تطل على المدينة ليراها في اجمل حلة كالجوهرة التي تحيط بها أنوار النجوم، غير كونه أيضا الوقت الذي يفضله الأشقياء لممارسة الأعمال الإجرامية تحت هدوءه، فبعدما حاز على معلومات مكنته من معرفة ساعة ومكان لقاء العصابة التي أرقته عبر أشهر من المراقبة والترصد وتتبع كل الحركات، وصل أخيرا إلى النقطة الفاصلة في القضية وها هو الموعد المتفق عليه، اليوم سيتسنى له أخيرا التعرف على الزعماء والعقول المدبرة التي يستمد منها المهربون والمروجون الأوامر. كان ينظر في الأرجاء ناحية زجاجات الخمر الخضراء الفارغة، المرمية والسيارات القديمة المتهالكة والتي لم تعد تصلح للخدمة والنفايات المبعثرة في كل مكان، وهو يفكر لطالما كان هذا النوع من الأماكن الهادئة والنائية مرتعا خصبا للمجرمين واللصوص، مكان بعيد عن الأعين كمستودع البضائع المهجور الذي يقابله في الجهة الأخرى المملوء بالركام. كانت الأوصاف متطابقة تماما للوصف الذي حاز عليه من طرف مخبره بدأت الطريق المظلمة تكشف عن أصوات احتكاك عجلات السيارات السريعة والضخمة بالأرض، ما جعله يفيق من تأملاته، اصطفت اربع سيارات أمام المستودع ونزل منها مجموعة من الحراس يلتفتون يمينا وشمالا ككلاب صيد تشتم أي خطر محدق حتى تفسح المجال لزعمائها بلعبور، احنى رأسه قليلا حتى لا يتسنى للحراس رؤيته، وأخيرا اللحظة التي كان ينتظرها أين تأتي الطيور إلى أعشاشها، نزل الرجال الثلاثة في نفس

الوقت، الأول متوسط الطول والاثنين آخرين ذو بنية ضخمة، ينتعلون قبعات ومعاطف لم يتمكن من تحديد لونها نظرا للظلام. قد أحس بالخطر للمرة الأولى في حياته، تريث قليلا عندما تسلل إلى الداخل من دون أن يلحظه أحد تبعهم واهتدى إلى طريقة ذكية تمكنه من تسلق السطح، بمجرد أن رآهم مجتمعين في طاولة واحدة جفل وتصلبت عضلاته. أحس بالخطر القادم عندما استطاع تمييز احدهم ومن بدون أن يفكر فتح آلة التصوير وضغط على الزر لترتسم في تلك اللحظة بداية النهاية. سرت في جسده قشعريرة، لم يتبين صوتهم جيدا نظرا للمسافة التي يتشاركها معهم لحسن الحظ دورة قراءة الشفاه التي قام بها مؤخرا، قد خدمته أخيرا وقد تمكن من فهم ما يقولون وكان حوارهم كما يلي..

قال الرجل الأول صاحب الجفون الداكنة وهو يتناول كأسه متمهلا ليرتمي على الكرسي:

- يجب أن نخفف من وطئة العمل هذه الأيام فوجود تلك المحققة في المنطقة سيضيق الخناق علينا.

همهم الرجل الثاني بوجهه الحجري ورأسه المحني تحت قبعته:

- شيء معقول، لا يجب أن نلفت الأنظار أو نعطي للشرطة الحق في ملاحقتنا.. نقل بصره بين الاثنين مقترحا:
- فلنأجل كل شيء بعد حفل التنصيب ما رأيكم؟

قال الرجل الأول وهو يتحسس عنقه بيده:

- هذا عين الصواب.

ساد صمت عميق في الغرفة ليقاطعهم الرجل الثالث وهو يلقى كوبه الشبه فارغ على الطاولة العالية، بينما قال بين أسنانه المصطكّة ووجهه المتجهم:

- لكننا سنخسر الكثير من الأموال، ومنذ متى نهتم بأمر الشرطة؟ كل شيء تحت أيدينا.

قال الرجل الأول كختام وهو ينهض:

- افضل خسارة المال ولا خسارة حريتي واسمي هذه المحققة أجنبية بالنسبة لنا ليس علينا المغامرة بكل شيء بسبب هفوة صغيرة.

لقد استطاع مارشملو في الجهة المقابلة بدل مجهودا يائس ليخلص رجله التي دعست على شظية زجاجية لكنه لم يستطع كتم الصيحة الخافتة التي خرجت من فمه، استطاع احد الحراس لمحه سمع وقع أقدام تقترب بسرعة لكنه سرعان ما استدار وصار يجري، شعر بالرهبة من الملاحقة فقد ظن إن تم القبض عليه سيلاقي حتفه لا محالة فهكذا ناس لم تكن الأخطاء بشيء يغتفر في قاعدتهم. أرعبته فكرة الموت في منطقة نائية أو على طريق جبلي نائي لحسن حظه كان قصير الحجم ما سهل سرعته، استطاع الوصول إلى السيارة قبل أن يفر منطلقا كالإعصار الذي لا يخلف وراءه شيء سوى الفوضى المرورية التي أعاقت الآخرين من اللحاق به، وأصبح الطريق المظلم الخالي ممتلئ بالحركة من جديد، قابلته لافتة جانبية تعلن عن خروجه من بلدة بريزبنة التابعة إداريا إلى مقاطعة جيريفيل.

شهد القصر بعد تلك الليلة سلسلة من الجدالات والمشادات الكلامية التي لم تكن تنتهي بين الزوجين، فقد كان ارتفاع أصواتهم هو السمة البارزة في تلك الأيام العصيبة التي عصفت بهم. كل من في القصر استطاع سماع صراخهم ومجادلاتهم حتى العصافير التي كانت تحط في الأرجاء، فضلا عن انهم لم يعودا يتقاسمان نفس الفراش والغرفة. في الصباح الباكر تفاجأت مريم بودي وارتفع حاجباها في عجب عندما سمعت عدة طرقات على الباب، لم يكن ذلك الشخص سوى دانييل الذي قرر التكلم حول حقيقة ما حدث وعن الاستدانة التي كانت السبب الرئيسي في ذب الخلافات بينه وبين زوجته وتؤزم وضعهم. كان يتألم من أجلها لم يكن يريد خسارة أو تحطيم زواجه، لهذا أتى كي يصلح ما يمكن إصلاحه. استمعت له المحققة بانتباه وبدون أن تقاطعه، لم يكن لها ادنى شك في أنه يقول الحقيقة وها هي الآن واقفة أمام سبب كل هذه المشاكل، مهدي فيتكورين رأس الأفعى. قال مُرحِبا بها بابتسامة وهو يتأملها باحترام:

- ما هذه الزيارة المفاجئة أيتها المحققة إنه شرف لي أن ألقاك في مكتبي.

بينما استقبلته هي مقطبة الجبين:

- ليتني استطيع أن أقول نفس الشيء عنك أو أشاركك نفس الشعور.

ألقت البصر حولها فشد انتباهها جريدة محلية مفتوحة على الصفحة الثانية، موضوعة على الطاولة بينما كان المكتب منزه عن التقليد أو الاستنساخ، إلا أنه يشبه الشقة الصغيرة المكتظة بالأثاث ووسائل الترفيه، كالتلفاز ورقعة صغيرة للشطرنج، وطاولة للبلياردو وبار صغير موجود في

الزاوية، أما الامتلاك الفني المميز هو لوحة معركة الجزائر التي كانت ممتدة على طول الجدار الخلفي. كان كل شيء فاخر فمعروف عن الأثرياء تذوقهم للفـن والأشـياء الثمينـة، كـانوا لا يجـدون مناسـبة إلا للافتخـار ببـذخهم وثروتهم الوافرة. أعادت الأنظار إليه فوجدته رجل حسن الهيئة أما المقاعد التي كانت خلفها فمن أجود أنواع القماش.

اختفت ابتسامته ليحل محلها الدهشة، قطب جبهته وظهرت بعض الخطوط البغيضة على انفه المعوج:

- ما سبب هذه العدوانية المفاجئة؟
- تحطيم حياة الناس وجعلهم مقامرين والحرص على إغراقهم في الديون فقط لتتحكم فيهم وتهددهم تصرف جبان، هذا لا يجعل منك سوى نذل حقير.

رمقها بعينيه القاسيتان وبنظرات غاضبة:

- انتبهي لألفاظك أنا سيد محترم ولا أسمح لأحد مخاطبتي بهذا الأسلوب.

أطلقت ضحكة كبيرة لتقول بعدها بصوت ضاحك:

- المعذرة، لدي آراء قوية لا أستطيع الاحتفاظ بها لنفسي، ماذا كنت تقول؟ شخص محترم؟ أنت؟ ألا تخجل من نفسك؟
- حسنا، ماذا تريدين؟ اخبريني بغرض زيارتك بلا لف أو دوران هل جئتي لتدافعي على احد المقامرين؟ لأنني لن استمع لك.
- أريد أن تسقط الدين عن دانييل مايكي.

ز فر ولوى يديه بعصبية ثم قال في استنكار:

- إذا أصبحت الآن محاميته، كنت أراك شخصا مغاير لما أنظر إليه، كنت اعتقد بأنّك محققة مستقلة ولست تابعة.

- أنا لست تابعة لكن هذا لا يمنع إن رأيت شيء خاطئ لا أتدخل لإصلاحه.

اطلق ضحكة عالية تعبر عن نظرة الرثاء والحسرة في كلامه:

- تصلحين؟ هذه المدينة كعلبة أسرار بحد ذاتها لا تحتاج إلى إصلاح بل إلى معجزة، لا أريد أن احبط أمالك الواسعة لكن جل محاولاتك ستكون يائسة ومن غير جدوى وفي مهب الريح. أنت لا تعرفين أي شيء عن هذه المقاطعة ولا عن أهلها ولا حتى عن هؤلاء النبلاء الماكرين، جئتِ لتؤدي رسالتك وهي التحقيق لا تتجاوزي حدود عملك ولا تتدخلي في حياة الناس، لسنا من الأشخاص الذين يقبلون التدخل في حياتهم.

لم تعد تحتمل عجرفته الزائدة فقد تأكدت بأنّه رجل صعب المراس نظرت له بحدة لتقول في إصرار:

- أنا امرأة لا تود العبث معها صدقني، ربما ستغير رايك بعد هذا.. أوضحت قولها بتمرير ملف يحوز على وثائق مهمة، التقطه، طالعه وهو يحتقن.. اعقب ذلك فترة من الصمت لتنطق باستفسار..قل لي كيف ستختار أن تعيش بقية حياتك في البذخ كرجل أعمال ناجح وغني، مال بدون حساب أم في السجن كالمجرمين واللصوص؟

- أنت تلعبين لعبة خطرة لا تعرفين إلى أين ستقودك لا يمكنك دخول لعبة بدون أن تعلمي قواعدها.

- هذه حلبتي.

وقف ضاحكا وقد تبينت قامته الطويلة ليجيب على الفور:

- هذه ليست حلبتك بل ملعبهم.
- لا تقلق علي أنا جيدة في الألعاب... أكملت في شيء من العزم.. اعتبر هذه المدينة كلغز اطمح لاستكشافه.

حاول تخفيف غضبه عندما صب لنفسه كأس من الخمر وراح يتحدث في هدوء:

- خذيها كنصيحة، هنا جيريفيل معقل النبلاء ومركز قوتهم وأصل كلّ الشرور والمؤامرات، ليس المكان الذي يمكنك النجاة فيه، ليست المدينة الفاضلة مدينة المثل العليا والمعالم السياحية التي تستهوي الناس في العطلات الصيفية ووجهت اهم المتاحف والفنون، أو المجتمع المستقر الذي يعمه الود، إنه مجرد ستار للفظائع التي تحدث هنا لا تتوغلي اكثر لأنك ستنصدمين.

- و أنا الذي ظننت بأن النساء تبالغن في الكلام.. استطردت في صوت خفيض.. أنت لا تختلف عنهم كثيرا هؤلاء النبلاء لأنك شخص سيء أيضا مثلهم.

هز رأسه بابتسامة ساخرة كأنّه يسخر من كلامها واستطرد بنبرة غريبة في صوته:

- عندما تنشئين محرومة عليكِ أن تواصلي الكفاح كالكابوس الذي تودين الاستيقاظ منه لكنه ليس كذلك، عليكِ معايشته كل يوم، لديك احتمالية أن تموتي أو تعيشي ولكي تعيشي سيتوجب عليك تحسين أحوالك المالية وأسلوب معيشتك اذا لم يكن هناك طريق حسنة لذلك فلا ضرر بعدها أن ننظر إلى الجهة الأخرى، الجهة السيئة، التجارة تبقى تجارة سوى كانت نزيهة أم لا.

وجهت له نظرات عاتبة بينما قال وهو يحني رأسه:

- لا يمكنك أن تحكمي عليّ لأنه لا يوجد شيء يسمى الاختيار الخاطئ عندما تكونين في القاع فأنا لم اختر المحيط الذي نشأتُ فيه أو الطريقة التي أتيت بها.

أردفت في صوت متسامح:

- لا تنبش في الماضي أو تزيح عنه الغبار فهذا سيضرك.

تنهد في عمق وهو يهز رأسه:

- ليت الأمر كذلك، مجرد ماضي، لكنه غير صحيح انه يمتد للحاضر وإلى المستقبل
- أنت صريح في كراهيتك لماذا تكرههم كل هذا الكره؟ ماذا حدث؟.. كانت لهجتها تنم عن أسئلة أخرى.

اضطجع في مقعده إلى الخلف بينما استرخت جفونه ورأسه الطويل الذي بدا يخف فيه الشعر، فكر لحظة ثم قال:

- عندما تنمين في بيئة ترين بأن جميع خيراتك مستغلقة من طرف جهة معينة أجنبية بينما أنت ومن مثلك أصحاب الأرض تقاسين الدواهي كي تعيشي. ستنشئين مطبوعة على الكره ولا يمكنك سوى أن تزدادي كرها لهم. الفقر والحرمان هي الصفتان الرئيسيتان التي يتشارك فيهما أصحاب الأرض، مجبرين على العيش في ذلك الذل طوال الحياة، يقتاتون على الصدقات والفتات التي يقدمها لهم هؤلاء الشياطين.. كان يتكلم كطفل وحيد ويتيم لا يريده احد.

- أنت تتحدث عنهم كأنهم بعبع، لا يمكنك أن تنكر بأن النبلاء قد خانوا بلدانهم ليساعدوا الثورة التي أقيمت هنا، هناك حتى من ضحى بحياته لأجل هذا البلد.

عبس لدى سماعه جملتها الأخير وقال بينما بدء يفقد أعصابه والكراهية بادية في عينيه:

- أنت ترددين فقط ما تسمعين حسب الروايات التاريخية المتداولة في المنطقة، تبقى مجرد روايات يتداولها الناس لا يمكن أن تعرفي صحتها من عدمها، لقد قلتِ بأم لسانك لقد خانوا وطنهم لأجل مصالحهم ولا يستطيعون خيانة وطن أخر؟ انهم أذكياء لقد استطاعوا أن يروا أن مصالحهم هنا اكبر من وطنهم انظري كيف يراهم الناس ويقدرونهم اصبحوا الآمر الناهي في المنطقة والمقاطعات الأخرى يتلاعبون بالناس كالبيادق، حتى الدولة أعطتهم مكانة مشرفة لم يكونوا ليحلموا بها، حتى الاسم تلاعبوا به اسمهم الحقيقي هو الأقدام السوداء وليس النبلاء، لا تدعي المناصب تخدعك أيتها المحققة فالثعالب كثيرا ما تملك اكثر من مخبأ فاذا انكشف واحد اختبأت في آخر، هل تعتقدين بأن اللوحة الفنية المسروقة سرقت من طرف لص؟ ضحك ليكمل.. هيا أيتها المحققة أكاد اجزم بأن لكِ شكوك حول المضوع من يستطيع الدخول إلى ملعبهم ويسرقهم وينجوا؟ لعمري إن لهم يد في الموضوع، انه ليس تراث بلادهم ليحافظوا عليه بل يرون كل شيء بعين المال، المدينة تحت أيديهم لا اعلم لما السكان لازالوا يغمضون أعينهم عن هذه الحقيقة، حتى أنت أصبحت تدافعين عنهم لقد غسلوا دماغك لانهم سادة التلاعب والكيد بالعقول.

انحنت إلى الأمام قليلا وهي تشبك يديها فوق المكتب:

- تعجبني هذه التسمية الأقدام السوداء.. همهمت.. لست امرأة تردد الشائعات أو الروايات صدقني، لا انكر بوجود فوارق طبقية الكل يستطيع تمييز ذلك لكن لا يمكنك اتهام الناس جزافا وتوزيع التهم. لنفترض أن كلامك صحيح فهل من الغباء استدعاء شخص مثلي للتحقيقات اذا كانوا أذكياء كما تدعي كانوا سينكشف أمرهم لا محال، هذا هراء. أنا أبني تحرياتي على الدلائل وليس الأقاويل والتكهنات، والتلميحات أين هو الدليل لصحة كلامك ولما لم تفضحهم؟ ربما يجد ربي الشك بك أنت الذي تريد إسقاطهم، من يعلم ربما تكون أنت وراء قضية السرقة.

فرغ من كأسه واستطرد:

- لا يكن تفكيرك محدود أيتها المحققة لا يمكنني أن أجابِه أشخاص بهذا المكر وحدي، إنهم سادة التلاعب، كانوا سيقضون علي لا محالة يمكنك تصديقي إذا أردت، لكنني لا استطيع إجبارك، تذكري بأنّه من غير الممكن أن أبسط كل أوراقي أمامك، هناك حروب مكشوفة للعلن وأخرى لا نراها.. سكت لحظة ليتنهد في اسف ثم اعقب يقول وقد تغيرت نبرت صوته.. يمكنك استثناء السيدة أدا فقط لأنها امرأة طيبة وعظيمة.

لقد رأت الإعجاب في عينيه وهو يتحدث عنها، لن تلومه فالمرأة الجميلة مطمع لكل رجل.

خفض عينيه عندما رأها تنظر له بطريقة غريبة، شهدت هروب نظراته ثم رضخ لها:

- يمكنك اعتبار الدين قد مسح هذه المرة فقط لأجلك، سأعتبرها صدقة مالية.

نهضت تبغي الانصراف وهي تقول:

- شكرا اقدر هذا.
- سأعمل دائما على حسن ظنك وتغيير رايك بي.
- أشك في ذلك.

قال بلهجة المتفائل:

- أرجو من الله أن يرزقك صحة النظر كي تستطيعي التمييز بين الصديق من العدو، وأن تتمكني من قطع دابر الشجرة التي عجزنا عنها نحن، من يدري ربما ستكون نهايتهم على يدك وأنّ مجيئك هنا ليس صدفة، آمل فقط ألا تستغرقي وقتا طويلا لاستنتاج ذلك لأنك ستكونين في سباق مع الزمن.

تساءلت:

- هل أنت إنسان مؤمن؟
- اعتبر نفسي كذلك.

قالت في لهجة صريحة وهي تغلق الباب:

- هذا جيدا لأننا نحتاج الكثير من الدعاء لننجح اذا كان كلامك صحيحا.
- لا نعرف ماذا يخبئ لنا الغد أيتها المحققة.

في الأيام التي تلت انجلت معطيات جديدة مثل الاتصال الذي ورد للشرطة مخبرا عن سائق الشاحنة الذي وجد على قارعة الطريق المؤدي إلى النهر، كان مغيبا عن الوعي في ظروف اقل ما يقل عنها سيئة، وكان هو نفس

السائق الذي كلف بنقل اللوحة المسروقة إلى العاصمة وبطبيعة الحال وجدوا الجزء الأمامي للشاحنة ملقا داخل النهر. بعد تقديم الإسعافات الطبية وإجراء الشرطة بعض التحاليل عليه، تبين انه حقن بمخدر الباربتيورات وهو نفس المخدر الذي اكتشف لدى داني ما يؤجج صحة قول الأخير أنه خالي من الإدمان. لكن السؤال الذي كان يأرِق المحققة حقا هو من المسؤول على كل هذه الأفعال وما هدفه؟ أيا كان فهو بالتأكيد نفس الشخص، لما يريد توريط داني؟ هل الذي يقوم بهذا الشيء هو مايز براون نظرا لتلاعبه بأشرطة الفيديو؟ لكن المشكلة أن مايز في الوقت الذي كانت تسرق فيه اللوحة كان في المتحف يقوم ببعض الأعمال وهذا ما كشفته كاميرات المراقبة هل يعقل انه استعان بشخص ثالث ليقوم بالأمر نيابة عنه؟ أم أن هناك شخص ثالث يريد توريط الاثنان معا؟ أفاقها من تفكيرها الضابط دان وهو يقدم لها كوبا من القهوة الساخنة قائلا:

- في ماذا تفكرين؟
- حول ما سأرتديه في السهرة، إن خيارات المرأة دائما ما تكون متشعبة وتدعونا لتفكير معمق.

أومأ لها بعدم اقتناع حتى أذن رئيس الشرطة لهم بالمرور لغرفة الشاهد، القت نظرة سريعة عليه فقد كان شارد النظرات، أصبح وجهه يعج بالحياة اكثر من المرة الأولى التي رأته فيها لكن ذلك الخوف والارتباك لازال يطل في زاوية من عينيه منتظر أحدا ما ليذكره بما طرأ عليه كي يعود للواجهة من جديد، وهذا ما حدث تماما عندما رأى أعوان الشرطة أمامه. نظرت إليه مريم بودي باستعطاف، لم ترد المحققة إضافة حمل الأسئلة إلى رأسه ربما كان هذا أسوأ شيء يسيئها في عملها وهو استجواب الشاهدين المصابين بصدمة. الأسئلة التي طرحتها كانت جد بسيطة وغير حادة سوى السؤال

الأخير الذي طلبت منه أن يصف لها الشخص الذي تسبب في حالته فكان جوابه صادما اكثر مما تخيلت، فحسب ما ذكر الشاهد قبل أن يتم حقنه من طرف اللص قد رأى ملامحه جيدا وكان شخصا مطابقا له حتى في الهيئة، استفسرت المحققة إن كان له أخ توأم لكنه نفى الأمر، نظرت إلى عينيه محاولة معرفة إن كان يكذب أو يقول الحقيقة:

- هذا يعني انه متنكر؟

أومأ الشاهد في تفكير بينما ابتسمت في شرود قائلة:

- اذا لا بد أن يكون صاحب تنكر متقن.

ألقى الضابط بنظرة استغراب إلى زميله رئيس الشرطة ليقول الأخير وقد بدا عليه الذهول:

- متنكر؟ حتى لو استطاع أن يتنكر في الثياب فمن المستحيل أن يستطيع التنكر في ملامح الوجه أو الطول.

هزت رأسها في عنف لتنقل بصرها بين الاثنين:

- لكن المستحيل عند المجرمين غير موجود نحن أمام متنكر بارع ومحتال ذكي.

- اتفق معك أيتها المحققة انه رهيب.

خفضت بصرها إلى الأرض وهي تضع يديها بأحكام حول خصرها:

- نحن أمام أحجية غير مألوفة تتطلب براعة كبيرة لفكها لهذا أريد تغطية أمنية واسعة خلال حفل الليلة.

خرجت بعدها مباشرة من المستشفى ما جعل حديثا آخر يفتح مع الشرطيين، قال رئيس الشرطة بانفعال ظاهر:

- تملقك قد زاد عن حده أيها الضابط، أذكرك بأنني رئيسك الفعلي ومني تستمد الأوامر وليس منها.
- سيدي إنني لا أبغي سوى رضاك كل ما أقوم به هو في صالحنا.

نظر له بارتباك واستفسر حول قصده، شرح الضابط بشكل موجز وهو ينظر حوله بتحفظ:

- كل ما أقوم به مجرد تمويه لنيل ثقتها كي استطيع كسب المعلومات منها، تخيل السمعة التي ستكتسبها شرطتنا المحلية لو استطعنا حل اللغز قبل اشهر محققة في الجزائر، سنبتعد عنها بخطوات وسنرتقي في سلم الأمن الإقليمي كأفضل شرطة في الجزائر.

بدا لعابه يسيل مما سمع واستطرد قائلا وهو يربت على كتفه:

- لم أعهدك بمثل هذه الحيلة والذكاء أيها الضابط أحسنت.

ابتسم بدوره قائلا في مباهاة:

- شكرا أيها الرئيس.

طالعها من النافذة بنظرات عميقة مليئة بالخبث وهي تخرج متجهة إلى موقف المستشفى، أين كانت السيارة السوداء المركونة في انتظارها.

المجرم يضرب من جديد

كانت الليلة هي اليوم الموعود الذي ستقام فيه حفلة تنصيب العمدة الجديد، والتي كان ينتظرها كل قاطني جيريفيل. بينما راحت الشرطة تتوزع خارجا لدواعي أمنية مشددة ولاتخاذ الحيطة اللازمة لإنجاح الحفل، توافد الكثير من الحضور على المبنى الأبيض الكبير المؤلف من طابقين والمنتهي بقبة، مبنى مجلس المدينة الذي يقع وسطها، تطوقه حديقة صغيرة تزخر بالورود البيضاء لإضافة المزيد من الشاعرية على المكان، حيث لم يختلف الديكور الداخلي عن الخارجي من حيث اللون، بل العكس ساهم اللون الأبيض على زيادة شساعة المكان خصوصا إذا أخذنا في الاعتبار أن القاعات الكبرى تفتقر إلى المزيد من الإضاءة. وزعت على طول الجدران خطوط ذهبية مزركشة تمتد من السقف إلى الأرض كلمسة من الديكور الفرنسي الحديث بينما السقف كان مزين برسومات من الجبس الأبيض. أما الثريات الكريستالية العملاقة التي تلمع في الأعين كانت من أترف الأثاث في القاعة، بينما الديكور بصفة عامة يجعلك تشعر انك متواجد في احد قصور الملوك الفرنسيين نظرا لأنّ معظم المقتنيات قد تم التبرع بها من طرف النبلاء لمجلس المدينة. وبالعودة إلى النبلاء كانت أدا التي تبدو أنيقة جدا بثوبها الأحمر وبروش الشعر الذي اتخذ شكل أوراق البلوط الشجرة التي يستمد منها شعب جيريفيل الحظ مميزة جدا، وزوجها دانييل في الصف الأمامي عند الباب للترحيب بالضيوف، وبالرغم من العلاقة الشائكة التي تتشاركها مع زوجها إلا أن الثنائي قد اظهر الجانب المثالي من زواجهم أمام الزوار، وبينما راح النادل يدور بكؤوس الكوكتيل والشراب على جميع الضيوف اتخذت مريم بودي أول خطواتها باتجاه الداخل. كانت في كامل أناقتها بشعرها القصير الذي يصل إلى رقبتها وثوبها الأسود الطويل بفتحة

للفخذ الذي كشف عن دقة خصرها، مسك عنها احد الخدم معطفها الواقي من البرودة لتنكشف بداعة محاسنها وقوامها المتناسق، فأصبح بريق حضورها يشد أعين الصحافة التي أخذت لها بعض الصور النادرة والحصرية، كانت جميلة لدرجة تكفي بأن تحوز على جميع الأنظار. أخرجت من حقيبتها النبيذية مرآة صغيرة لإصلاح الزينة لكن الغرض منها هو التلصص على الحضور بدون جذب الأنظار، كانت القاعة مليئة بأصحاب السلطة والثروة والمركز الاجتماعي رأت أيضا مهدي فتكورين الذي لوح لها بكأسه، أغلقت مرآتها بسرعة وهي تخفض بصرها نحو الموائد الطويلة التي تغري الشهية، حيث توزعت فيها الأطعمة بشكل متناسق. تناولت البعض منها بلا شهية فقط لأنها جميلة كالملفوف الذي كان عبارة عن قطع من الكبد تلف مع الشحم وتحمل على أعواد حطب، أصبحت هذه الوجبة من الأكلات الشعبية المشهورة في المنطقة مع مرور الوقت. بينما كانت الأنوار الساطعة التي تصيبك بالدوار والموسيقية الكلاسيكية التي تعزف من طرف جوق سمفوني والأصوات الدافئة عنوان الترف، كان أوسكار نيرو الذي ينتعل بذلة متناغمة مع حذائه لم يحول نظراته عنها، احمرت وجنتاه وأظهر رقة كبيرة بينما يقترب منها قائلا:

- آنسة مريم إنّك تخطفين الأنفاس.

ابتسمت ببراءة وهي تلف خصلة من شعرها على إصبعها قال بسرعة بينما راحت تشيحه بنظرة طفولية:

- أرجو أنّني لم أزعجك بمكالماتي فمنذ يوم السرقة لم نتكلم.
- لم آتِ هنا لتكوين صدقات بل للعمل.

رأت وقع دهشته من كلامها تداركت نفسها قائلة في هدوء:

- أنت تدرك تعقيد القضية التي نعمل عليها حاليا لم يصح لي مجال حتى للنوم أعدك بمجرد توفر بعض الوقت سنتكلم.

أومأ بتفهم هاتفا:

- أبغي طمأنتك، كنت احسن كاتم في الأيام الأخيرة لم أتطرق حول الموضوع لأي أحد.
- هذا جيد، أشكرك لكتمانك. أعلم بأني استطيع الاعتماد عليك لكن الليلة دعنا ننسى كل شيء يتعلق بالعمل ولنستمتع بأجواء الاحتفال.
- كنت أود أن ادعوك.. لم تدعه يكمل كلامه وهربت منه بلباقة وهي تغير مجرى الحديث.. انظر انه الكونت أنا بحاجة للتحدث إليه.

تحركت بسرعة وخفة ما جعله يوماً كالأبله بابتسامة ليظهر السرور المفاجئ على معالم وجه الكونت بعد أن قضى الأمسية مكشرا لسبب تجهله لولا أن العمدة من أصدقائه لقالت انه لم يفرح لتنصيبه. حياها في حرارته المعهودة ودعاها لمشاركته الكلام وراح يهتف عندما رآها:

- أنا مسرور لأنك استطعت المجيئ.
- ما كنت لأفوت الاحتفال.

قدمها للسادة على أنها المحققة المكلفة بقضية سرقة لوحة الأمير، احنى أحد الرجال قامته وتناول يدها ليقبلها وهو يقول بابتسامة لعوب:

- قليلا ما تحوز النساء على الذكاء والجمال نحن محظوظون لأننا برفقة امرأة استثنائية مثلك.

كان يتحدث الفرنسية بطلاقة ما جعلها توقن بأنّه من النبلاء تجاهلت نفورها منه وأعطته نظرة متكلفه، رأت الساعة الماسية التي تعانق رسغه

وفكرت في أن الساعة وحدها يمكن أن تغير حياة احد الناس الفقراء لأنها تساوي ثروة. عرفه الكونت باسم الجنرال المتقاعد بيرن، كان مظهره مرتب بعناية واهتمام، وذقنه الحليق يتميز بآثار دم رقيقة نتيجة لشفرة الحلاقة الحادة، أما البارون ثيوني الذي بسط لها يده بكل احترام فكان متحدثا لبقا جدا وكثافة شعره الناعم المسحوب للخلف أعطته شكلا وملامح أرستقراطية اكثر، بالإضافة إلى رئيس الشرطة فيثنيث لوني الذي يحمل في يده كاسا من الشراب ويتحرك بضيق بسبب بذلته الضيقة، التي انحشر لحمه فيها، خصوصا من جهة البطن. اصبح مظهره يشبه النقانق التي تحضرها الجدات في المنزل، المعبئة كثيرا باللحم وعلى وشك التمزق. حضر أيضا الشيخ طيب رئيس مجلس المدينة، وكان رجلا مهيب الطلعة، صاحب لحية ضخمة بيضاء وعمامة. بعد نصف ساعة من سرد قصص بطولات الجنرال بيرن وهي نفس قصص رجال الجيش المتقاعدين التي يقصونها بغرض الإشادة والفخفخة والتي كانت مملة لدرجة فظيعة، وبعد التعليقات من هنا وهناك قام البارون بتغيير دفة الحديث مناديا الساقي لإحضار كاس آخر. استفسر حول سيران القضية لتقول مريم بودي بأنّها تسير كأغلب القضايا باتجاهات متفرعة لكن نحو هدف واحد.

هتف الجنرال بيرن في انبساط:

- نحن لا نشك في مدى احترافك.
- اذا ادعوك للشك أيها الجنرال فالكل يكذب هنا، المشتبه فيهم يكذبون كي يبعدوا الشبهة عنهم، المذنبون يكذبون للمماطلة، الناس العادية والبريئة تكذب للتغطية على أشخاص أخرين، حتى العينين تكذب وترينا أشياء غير حقيقية، أما المحققون فيكذبون كي يكسبوا بعضا من الوقت.
- و هل هذا شيء يفوق طاقتك؟

ردت عليه بالنفي هازة كتفيها:

- أنا لست صاحبة قدرات خارقة بل شخص عملي يأتي دوري بأن اكشف الحقيقة، البريء من المذنب والصادق من الكاذب. لكن أتعرف ما هو اصعب شيء؟ استفسر لتكمل.. انك تتعامل مع فنانين ومتنكرين بارعين لا أحد يشك في الفنان عندما يتقمص دورا ما. خصوصا اذا انكشف دوره أو حقيقته لن يتوانى عن تمثيل أي دور.

نظر إليها رئيس مجلس المدينة مفكرا برهة لينطق سائلا:

- هل تعتقدين بأن المذنب فنان؟

مضت تجيب في هدوء:

- بنسبة كبيرة، تخيل بأن يكون اللص هنا يجوب المكان متنكرا بينما نحن نتحدث.

دفع بنظارته إلى أعلى أنفه بينما راح يطالع الناس حوله بنظرات تدل على التشكك الشديد، تكلمت المحققة في شيء من الارتياب:

- يستطيع أن يكون أي احد، الساقي الذي يصب الشراب، أو النادل الذي يحوم حول الناس محملا بالمشروبات، احد أعضاء الفرقة الموسيقية أو احد أعوان الأمن الواقفين أمام الأبواب. أو حتى فرد من الشخصيات الهامة الموجودة هنا.

استأذن الكونت عندما تلقى مكالمة ليغيب ثلاث دقائق ولما عاد بأن السرور على وجهه. تحدث البارون ثيوني وهو يناولها كأس الخمر لكنها أبت

تناوله واكتفت بكوكتيل التفاح الذي اقترحه عليها الجنرال بيرن، لأنّ التفاح من إنتاج بساتينه:

- اعتقد أن امرأة مثلك لديها أساليبها الخاصة في اكتشاف الحقيقة.

ابتسمت بدهاء وقالت في هدوء ورقة وهي تتناول كأس العصير:

- هذا ما أردده دائما أيها البارون.

فرغت من الرشفة الأولى وهي تبدي إعجابها بالرائحة العطرية الذي يتميز بها المشروب

هتف الجنرال في ثناء:

- هذا لأنّ التفاح يدخل في تكوينه مزيج من ستة وعشرين عنصر كيميائي، لهذا رائحته نفاذة.

فرغ رئيس الشرطة من المشروب واردف يقول معتدا بنفسه:

- أيها السادة القبض على المجرمين في وقتنا الحالي امر سهل جدا بتوفر الوسائل المتاحة للشرطة كالكاميرات وتقنية التعرف على البصمات المختلفة وحتى التكنولوجيا الحديثة كلها أشياء جعلت من مهام الشرطة اقل صعوبة.

قلبت مريم بودي عيناها لدى سماعها كلام البدين المزعج، أشعرها بالغثيان كلامه هو نفس كلام أفراد الأمن الفاسدين، يقطر نفاقا. قال رئيس مجلس المدينة وهو يمسح زجاج نظاراته قبل أن يعيدها إلى مكانها:

- و هل تعتقدين كذلك أيتها المحققة؟

قالت وهي تزمر شفتها برتابة وهدوء:

- في الحقيقة أنا اعتقد عكس ذلك.. استغرب الكل لتكمل.. خطئنا هو باعتقادنا أن المجرمين كالتمارين الرياضية اذا اتبعنا قانون مسألة حللنا التمرين، لكن الحقيقة هي أن المجرمين أناس ارتجاليين في أغلب الأحيان، لهذا يصعب على الشرطة الإمساك بهم والتعامل معهم.

عاد يسألها البارون مرة أخرى في فضول وقد ازدادت عيناه ضيقا وهو يمرر أصابعه فوق ذقنه:

- هل تقترحين بأنّه يجب أن نفكر بنفس عقل المجرمين كي نمسك بهم؟ اذا هذا يسمى خضوع، خضوع لرغباتهم.

راحت تشرح ما يجب فعله بصوت يشع ثقة وكبرياء:

- أنا لا أخضع لأحد ما أردت إيصاله هو أن نقلب الأدوار وان نصبح لاعبين وليس أهل قانون، فالمجرم بالأخير يريد خصم ينافسه ويلعب معه. يريدونك أن تلعب لعبتهم حتى النهاية كي يكشفوا لك انفسهم في الأخير، لكن يمكنك اختصار الأمر والاستعانة بطبيب نفسي.

راح الجنرال بيرن ينظر لها بإعجاب وخاطبها بصوته الأجش:

- اعتقد بأنّها مناورة رائعة.

أما رئيس الشرطة فتكلم ساخطا:

- هذا شيء بعيد عن الحكمة.

اردف البارون وعينيه تتقدان ذكاء:

- ليس كل النهايات ربح هناك نهايات خاسرة، فاشلة، تجعل الموت من نصيبك.

قالت بابتسامة خفيفة:

- بصفتي امرأة عايشت لحظات الخطر المحفوفة في حياتها، أؤكد لك بأن الموت ليس نهاية حزينة أو فضيعة كما يعتقد الكثيرون بل ولادة من جديد.

بهت الجنرال ثم استطردا في حماس:

- احترم كلامك كثيرا من يعايش الموت مرات عديدة لا يحفل بسلامته الشخصية لأنّ حياته مهددة طوال الوقت.

قطب الكونت حاجبيه مفكرا ليقول في تعجب:

- أيعقل بأنّي الوحيد الذي لا يفقه ما تقولون؟

أومأت برأسها بكل ثقة وراحت تشرح له:

- ما ألمح له هو بالرغم من توفر الوسائل التكنولوجية الحديثة والجبارة المتاحة للشرطة مازالوا لا يستطيعون الإمساك بمجرم، في حين أن الأمر يتطلب طبيب نفس فقط، لأنه هو الوحيد الذي يعرف حقيقة الناس وكيف يفكر المجرمون فبإمكانه إعطائك العديد من صفات المجرم فقط عندما ينظر إلى مسرح الجريمة، فما فائدة التقنيات المتطورة حاليا اذا لم يكن هناك عقل جبار لكي يستعملهم.

أصبح الجميع يضحك في تهكم بينما طالعها رئيس الشرطة بحنق والعرق البارد يتصبب من جبهته ويديه. صعب جدا أن تصبح مادة للضحك في

مجالك، لم تخفي المحققة ضحكتها هي الأخرى وطالعته بنظرة ساخرة. تحدث الكونت بحماسة مخاطبا الجماعة:

- لقد قلت لكم بأن مجالسها وحديثها يفبض بهجة، أنت تهرينني في كل مرة، فمك يحوي بين طياته الفصاحة والذكاء، أما رأسك فمسبح للحكم.

رفع البارون رأسه قليلا واستطاعت ملاحظة عنقه الغليظ ليقول بابتسامة غامضة:

- معك حق، إنها شخصية عجيبة.

بينما اكتفت هي بشكرهم بابتسامة عذبة تشبه براءة أطفال. كانت السهرة تمر بهدوء لحين لحظة الإعلان عن نتائج التصويت، أوقف العازفون آلاتهم الموسيقية وانخفضت الإضاءة حول القاعة وأصبح الفضول والانتباه هو كل ما يسيطر على الجماهير، في حين أن الفائز سيكون احد من النبلاء بطبيعة الحال وهذا ما تأكدت منه لاحقا. اعتلى رئيس مجلس المدينة الخشبة ببنيته الرقيقة وراح يعرض مباشرة أمام الكل فرز الأصوات، حينها رمقها مهدي فتكورين بنبرة غريبة. رأت أدا التي أزاحت يد زوجها بحركة سريعة عندما استقرت على خصرها فما كان منه إلا الانسحاب دون جدال أو صراخ، غاضبا، مطرق الرأس. شعر بالاختناق وهو يخفف من ربطة عنقه، ترك الحفل ربما ليقلل من ذهنه وطأة التوتر والتفكير. الاحتفالية جذبت جميع أنظار الصحافة فالمكان ليس مثالي للشجار مجرد خطأ صغير سيكون في واجهة الصحف اليومية الكبرى يوم غد، اشعل سيجارة بمجرد عبوره من البوابة، كانت المراسيم تحقق نجاحا عظيما حتى هذه اللحظة، وقفت تتأمل طويلا الحضور لتلمح مايلز وهو يدخن التبغ في الشرفة الموصدة إلى الخلف ربما طمعا في السكينة من هذا

الجـو المشـحون. لـم تكـن هنـاك نسـمة هـواء تلـك الليلـة وبمجـرد وصـولها ناحيته أخرجت علبة السجائر التي اشترتها، أدنت سيجارتها منه لتتساءل بصوت رقيق:

- هل تريد صحبة؟

استدار بعد أن أفاق من تأملاته فجأة قائلا في صوت خجول:

- أين أخلاقي تفضلي.. راح يلهب دخانها ليردف.. اذا أنت أيضا لا تهوين الحفلات؟
- ليس جلها فقط المليئة بالنفاق والتملق.

تحـول عنهـا إلى المكان الـذي كان يشـد نظـره، تنهـد واسـتطرد في هـدوء متجاهلا الصخب الذي وراءه:

- يجب أن تعتادي على الكثير من الأمور في الحياة منها التظاهر.
- ادرك ذلك.

اخـذ كل منهمـا وقتـا مسـتغرقا في سـيجارته لـم يتبـادلا الحـديث خلالـه، لاحظت السـيارات السـوداء الفخمـة تتصـدر المكان كأنهـا في معـرض عـام، اللـون الأسـود الـذي كان يكتسـحها هـو احسـن لـون يسـتطيع أن يعبر عـن السـلطة. هنـا أيـن رائحـة الفقـر غير موجـودة، سـوى الأشـياء البراقـة التي تصيبك بالانبهار والدوار، حيث الرجال ينتقون نساءهم كما ينتقون بذلاتهم بفخامـة وعنايـة، هنـا الجميـع يتمتـع بـالأخلاق الكريمـة والنبيلـة، ويتصـف بالفضـيلة والأقـوال المسـتملحة، راحـت النسـاء تتحلـى بـأجود وأغلـى المجـوهرات، مثل الزمرد والزبرجد والألماس، لكن مهما كشف هذا العالم

عن دلائل الثراء هي تدرك بأنّه مزيف. استطردت في اقتضاب وبدون أي مقدمات:

- أدرك بأن لك يد في السرقات.

انعقد لسانه في فمه بينما ارتفع حاجباه في دهشة كأنّه أحس بوخزة غريبة:

- ما الذي يحملك على هذا القول؟

طالعته بنظرة عابرة:

- لقد درست حالتك عن كثب وأنت تعرف بأن شكوكي دائما تبنى على أدلة، لدي من الإثباتات ما يكفي لتوريطك. إنك في مأزق شديد كل شيء يشير إلى أن السارق من أهل الفن، من يستطيع أن يتقن التنكر اكثر من فنان، من يفهم الأدب اكثر من فنان، إنها جريمة فنية لكن ما لا أفهمه ما هو دافعك؟

سكت وتجاهل الإجابة لكنه غير رأيه وقال بغير اهتمام:

- لا تنقصك سعة الخيال مادموزيل مريم.. كان ردا يفتقر للباقة.

تشجعت قائلة وهي تشمخ برأسها عاليا:

- الاعتراف خير رد هل تعتقد أن افضل طريقة للفت نظر المرأة التي تحبها هي عن طريق سرقة عائلتها؟ ترقبت بأمل إجابته.

طالعها باستغراب مؤكد ولم يزيد عنه، إمارات الشك ارتسمت على وجهه بينما راح صدره يدق كنقار خشب، ظن بأنّه لم يسمع جيدا ما قالته:

- أنا بحاجة لتوضيح!

تخلصت من غليونها ملتفتة له وفي افتخار استطردت:

- أنا اعرف حزنك السري الذي يركن في قلبك، نقطة ضعفك، حب طفولتك.

طالعها بنظرات لم تفهمها ثم أشاح برأسه إلى السماء وأجاب بابتسامة خافتة:

- عندما يكون لدى الشخص أحلام عديدة ستصدمه الحياة بأن لا تحققها كلها ولكن ماذا لو كان الحلم الذي تريده بشدة تحرمك منه الحياة وهو أمام ناظريك كل يوم ولا تستطيع الوصول إليه.

مضت في حديثها قائلة بصراحة تامة:

- يجب أن تعزو الأمر للقدر كي لا تدخل في صراع بين عقلك وقلبك، عليك أن تختار الأحلام المعقولة والتي يمكن تحقيقها أعني الأشياء التي تستحق فعلا الحفاظ عليها. الطمع والطموح المبالغ فيه هو شيء سيء وعاقبته وخيمة.

تغيرت ملامح وجهه وبدا السرور عليه، هتف بنبرة خيالية وعميقة كأنه يهذي:

- إنها تستحق كل شيء حتى حياتي.

طالعته باستغراب وقطبت حاجبيها وكأنها تفكر، بدى مفتونا بها لكن ذلك لم يدم طويلا، غمرها تخوف مفاجئ وراحت تطرح العديد من الأسئلة في سريرتها، إلى أي مدى يمكن أن يذهب المحب لكسب قلب محبوبته، هل

يسرق لأجلها أو يقتل؟ نعم يستطيع خصوصا اذا كان رجلا مفطور الفؤاد فالعاشق يكتسب مشاعر جياشة تترجم إلى شجاعة كبيرة حتى وإن كانت في موضعها الخاطئ. وهذا ما تبينته من كلامه عندما قذف سيجارته ودعسها تحت رجليه. كانت المشاجرات التي تحدث بين الزوجين شيء يخدمه وحده وربما هذا ما كان يحاول فعله منذ البداية تفريقهم.

هَمَ في الذهاب لكنه توقف بدون أن يستدير حيث ابقى ظهره ثابتا لها دون أن ينظر يمينه أو يسراه وهتف بعزيمة:

- أي شيء لا يستحق جهدا منك لا يستحق الحفاظ عليه.

لزمت الصمت، كان غرور الرجال قاتلا. تقتلها إزدواجية الناس المبهمة، هذا ما تتشاركه الناس العادية مع المجرمين الشخصية المزدوجة، كانت تهوى مشاهدة ومراقبة أوجه الناس والمارة أكثر من مشاهدة ضوء القمر أو السماء الصافية التي تقبع فوقها. أطلت برأسها للشرفة وبهذا استطاعت رؤية إحدى السيارات التي اصطفت تحتها، ترجل منها احد الرجال واضعا نضارة سوداء غطت تفاصيل وجهه بينما بقي الآخر في الداخل لم يوقف المحرك بل انتظر دقيقتين ليسبق الآخر، غابا لمدة أربع دقائق ليعودا ووضعا شيئا في صندوق السيارة، كانا يلتفتان يمينا وشمالا بريبة شعرت بأن هناك شيئا مشبوه. خرجت من الشرفة كي تتفقد الأمر، كان رئيس مجلس المدينة في هذه الأثناء يعلن عمن سيشغل منصب العمدة الجديد قائلا بصوته الثقيل:

- باسم جيريفيل نعلن أن العمدة الجديد من نصيب.. البارون ثيوني.

بمجرد صعود البارون على المسرح وسط تصفيقات الحضور للإدلاء بكلمته شرعت احد اللافتات البيضاء فوقه احتفالا به لكنها كانت بدون أي

كتابة وبعد دقيقة أصبح المسرح يتعرض لزخات من الماء التي كانت تصب بعشوائية فوق اللافتة وفوقه، لكنه لم يكن مجرد ماء ولم تكن مجرد لافتة، هذا ما عنونت به الصحف المحلية أخبارها للواقعة التي حدثت بالأمس.. "المجرم الذي يرهب جيريفيل يضرب من جديد".. وراحت تشرح ما حدث، كان حمض الكبريتيك الذي صب فوق اللافتة قد كشف عن رسالة كانت متخفية بينما عانى البارون ثيوني من حروق حادة من الدرجة الثالثة أدت لوفاته على الحال نتيجة لتلف الأعصاب وهكذا خسرت مدينة جيريفيل العريقة ثاني اعرق النبلاء من بعد مسيو جونز، الذين كانوا لهم دور كبير في تاريخ المدينة.

بالعودة إلى أحداث الليلة الماضية.. فغرت أفواه الحضور من فرط الدهشة برؤيتهم للوحة البيضاء التي ظهرت فيها كتابة غير مرئية، كالسحر، ساد صمت يشوبه ذهول كبير ثم احترقت كلها بفعل الحمض، ولما فطنوا للأصوات الأليمة التي كان يصدرها البارون وقد اصبح وجهه غير معروفا نتيجة للحروق التي عصفت بجلده قبل أن ينهار ميتا، أصيب الناس بهستيرية جماعية قبل أن يركضوا فارين بجلودهم في كل اتجاه. أما مريم بودي فكانت تكتب الرسالة التي وقعها المجرم في الجدار بأحمر الشفاه قبل أن يفتك الحمض بالورق كله قرأتها بسرعة "كل الشياطين هنا الجحيم خالي "، راحت تلتفت حول نفسها بشك كبير ليأتي أحد أعوان الشرطة وهو يجري، لم تسمع ندائه المتكرر من هول الحدث وكأن الصدمة أفقدتها القدرة على الإحساس أو الشعور، أحست بيد تلتمس كتفها لتدير رأسها بسرعة، نطق الشرطي بلهثة نتيجة لضرابات قلبه المتسارعة والفزع يطل من عينيه:

- أيتها المحققة يجدر بكي أن تأتي.

اندفعت خارجة بينما استجمعت كل شجاعتها للصدمة التالية..

ارتمت أدا على صدر أمينة كأنها الملجأ الحنين الذي يحميها من هذا العالم وراحت تبكي بحرقة، كان وقع موت دانييال عليها ليس بالأمر اليسير، أصبح منظرها وهيئتها التعيسة تشق على الجميع وبعد لحظات طويلة رقدت على تأثير المهدئ، فبعد مقتل دانييل تعقدت الأمور أكثر فاكثر، تشكل الحزن والغضب وعدم الأمان كالإعصار الذي يعصف بقلوب الجميع. عندما ناداها الشرطي في الليلة الماضية ليريها جثة دانييل التي كانت ممددة في احدى الغرف الجانبية للمبنى، كانت بقع الدم لاتزال حمراء فيما يعني أن الجريمة لم تحدث إلا قبل دقائق. طالعت مريم بودي الجثة برثاء وحسرة، كانت عيناه مشخصة بطريقة مرعبة سارعت الشرطة بتطويق مسرح الجريمة تجنبا للفضوليين وسمع دوي صفارات سيارة الإسعاف القادمة. قفز الطبيب الشرعي وهو يرتدي قفازه المطاطي حاملا حقيبة صغيرة بيده اليمنى، اندفع فوق شريط الشرطة وأول ما فعله عندما اجتثا على الأرض هو فحص عينا الضحية، هز رأسه في تفكير وهو يكتب شيء فوق اللوحة البيضاء التي أخرجها من حقيبته ثم صوب نظره باتجاه المحققة وقال بلهجة تدل على التأكيد:

- أنظري، العينان مفتوحة كلية دليل على أنه لم يكن مستعدا للموت، على الأرجح أن القاتل قد أتاه على حين غرة، أو ربما كان يعرف الذي اطلق عليه لهذا لا نرى أي أثار للمقاومة أو الدفاع عن النفس.

راح يعاين الطلقات النارية ثم قال بنفس النبرة بدون أن يزحزح عيناه عن مكان الجرح:

- أكاد أجزم بأن هذه الرصاصة المطاطية الصفراء حديثة لأنني لم أشاهدها في هذه الأنحاء، ونظرا لعدم سماع أي احد كان بالقرب منه لصوت الرصاصة فهذا يعني أن المسدس كان ملحق بكاتم للصوت.

هزت رأسها في عدم اقتناع وخاطبته قائلة:

- كيف يمكنك التأكد؟

نظر إليها رأسا على عقب وهز رأسه في تفاخر:

- لدي من المهارة ما يكفي لأعرف السلاح التي أطلقت منه الطلقة فقط عندما انظر إليها وأؤكد لكِ بأنّها مبتكرة حديثا.

سألته متعجبة:

- لم أكن اعلم بأن هناك طلقات تخترق الدروع.

- كل شيء يتطور أيتها المحققة والأسلحة لا تسير عكس التطور التكنولوجي، لكني مندهش أيضا لم أطلِع على أن هذه الطلقات قد وصلت لجيريفيل لأنّ ثمنها يكون غالي عادة نظرا لحداثتها فلن يقتنيها إلا شخص مكتفي ماديا.. هز كتفيه وتابع.. نظرا لأنّ قانون الولاية يمنع حيازة الأسلحة النارية من طرف المواطنين أو اقتنائها ويجرم هذا الفعل.. اختتم كلامه قائلا.. المثير للدهشة أن حتى القوات الأمنية لم تحز على هذا النوع من الطلقات قد يشترك في الأمر مهربي الأسلحة، لا يجب أن تستبعدي هذا الافتراض.

هزت رأسها بتفهم وخاطبته بلباقة:

- لقد فهمت شكرا لمعلوماتك.

أومأ لها الطبيب ونهض من الأرض منسحبا بخطى واسعة ليترك المجال لمرضي الإسعاف اللذين كانوا ينتظرون في الزاوية لحين انتهائه. تحولت المحققة ومعها رئيس الشرطة إلى أعوان البوليس وبنبرة حازمة هتفت:

- انتبهوا للمدنيين فالمكان لازال خطرا عليهم.

شهدت الشرطة استنفار امني كبير اضطرت من خلاله إلى التخلص من الحشود الغفيرة الفضولية التي أصبحت تتساءل عما حدث وكيف حدث. أضحى المطر الذي يصب بغزارة والظلام المترامي في الأرجاء ورائحة الدم يهيمنان على تلك البقعة، جلب أحد الأعوان معطف المحققة فقامت بشق الجزء السفلي من فستانها لكي يعطها الحرية اكثر في المشي كل هذا تحت أنظار رجال الشرطة، وما إن تحولت لهم حتى أداروا رؤوسهم أخرجت حلوى المصاصة اللولبية وقالت باحتقار وهي تضعها في فمها:

- أوغاد!

سُمِع صوت رئيس الشرطة متوعدا المجرم عبر وسائل الإعلام التي كانت حوله، وقال بأنفاس لاهثة ووجه متجهم:

- ذلك المجرم قد تخطى حدوده وسنكون له بالمرصاد.

بعد أن أدلى بكلمته للصحافة لمح مريم بودي التي كانت تعطي التعليمات لأعوان الأمن الجنائي وقد ثارت ثائرته لهب بعينين يتطاير منهما الشرر قائلا في عنف:

- هؤلاء رجالي وهذه مقاطعتي لست مخولة بإصدار الأوامر لاي احد، رجالي ليسوا سلة نفايات ترمين فيها ترهاتك وأوامرك.

أدارت جسدها ناحيته وهمت تقول بجفاء:

- إذا كنت تريد لوم شخص منا هنا فالأصح لوم نفسك لأنك لم تستطع تأمين حماية لائقة لمقاطعتك ولا لقاطنيها ما رأيك إن ذهبت الآن للصحافة وقلت أن السبب الرئيس للمجازر التي وقعت اليوم هو بسببك وبسبب الذين تشرف عليهم.. بقي مبهور الأنفس.. ماذا ستكون ردة فعل رؤسائك إن علموا بأنّك لم تستطع توفير درع واقٍ للرصاص حديث يتماشى مع تطور الأسلحة، سيبدؤون تحقيقا من الأعلى إلى الأسفل وتكون آخرتها طردك كالجرو، لأنك تهاونت وقصرت في حماية مواطنيك وماذا ستكون ردة فعل الصحافة، ستبدأ بالنبش ورائك وربما تجد بأن هناك أموال كانت ستذهب لتطوير المعدات الأمنية لحماية الناس والشرطة إلا أنها تختلس من طرفك لينتهي بك الأمر في السجن، مثل هؤلاء المجرمين. فعوض لومي ومحاولة عرقلة العدالة أنا التي أحاول تصحيح هفواتك، يجدر بك أن تعمل اكثر لحماية مدينتك عوض النوم فوق المكتب طوال اليوم وتزويد دهون بطنك بالوجبات السريعة المرمية فوق مكتبك ! يستحسن أن تشكرني لأني لحد الساعة لم اكتب تقريرا لكل ما رأيته لرؤسائك.

كان ينظر في شيء من الذهول لأعوان الشرطة اللذين كانوا ورائها وسمعوا كل شيء، احمرت وجنتاه من الخجل الذي يصاحب الاشمئزاز ثم حدق فيها وقد انعقدت حاجباه من فرط الحنق والغضب، غادر بصمت لتتحول ناحية رجال الأمن المصدومين. أخذت نفسا طويلا وقالت بوجه بشوش:

- أه، كم من الجيد التكلم لم اصدق اني كتمت كل هذا الكلام طوال الوقت من الجيد التحدث، يجب أن تجربوه من وقت لآخر.

انفرجت شفاه بعضهم بابتسامة بينما بقي الآخرون مندهشين، أمست تعابير وجهها جامدة فيما تكلمت وهي تتفرس كل واحد فيهم:

- انتهى المزاح حان وقت اللعب بجدية، هل استطاعت الكاميرات تحديد هوية الاثنين اللذين أعطيت مواصفاتهم؟

قال المراقب آسفا:

- الكاميرات المغروسة في المبنى لم تستطع للأسف لكن أحد شرطة الدورية قد نقل لنا نفس الأوصاف التي أعطيتها لقد شاهد نفس السيارة تنطلق في الطريق العمومي بسرعة صارخة وبقي يقتفي اثرها كي يزودها بمخالفة مرورية، لكنهم استطاعوا أن يفلتوا عند احد المنعرجات في الطريق الجبلي.

أطلعت صرخة امتعاض خافتة وطالبتهم بالانصراف. شعرت بأن لهم علاقة بالقتل فقط لو لم تتأخر قليلا لكان كل هذا ما حدث ولكن ما فائدة الأسف بعد القضاء والقدر لا يمكن المعاندة أو التغيير.

بالعودة إلى الحاضر...

ازداد عدد المشتبه بهم حاليا ليصبحوا أربعة، مهدي فتكورين ومايز براون، والكونت وأدا. فمن يعد أفضل مشتبه من رجل حقود؟ ومن المستفيد من الجريمة أكثر من مايز، نعم الأمور تعقدت اكثر فاكثر حتى الكونت لم يُكِنَ الود لصهره وأدا التي عبرت عن نيتها بتفضيل موته على إلحاق العار بعائلتها، لكن هل يعقل أن تقتل الرجل الذي أحبته ويتحول كلامها إلى أفعال؟ نعم، خصوصا اذا كانت تحت تأثير المهدئات لكن المشكلة انهم كانوا متواجدين في الحدث طوال السهرة هناك إشكالية أخرى هل

قاتل البارون ودانييل هو نفس الشخص؟ لكن الجريمتان لا تتشابهان! أيعقل وجود أعداء أخرين لا تعرف عنهم؟ بدا عليها التوتر وكان ذهنها يحتاج إلى الصفاء من هذا الجو الكئيب كي تستطيع التركيز في خطوتها القادمة التقطت سترتها الرمادية لتذهب لكن الكونت ناداها، كان يتصرف مثل الرجل المحكوم عليه بالإعدام وخاطبها كأنّه متيقن من ملاقاة حتفه:

- ماذا الآن أيتها المحققة البارحة البارون ثيوني ودانييل وغدا أنا؟ هل ننتظر إلى أن يصل المجرم إلي؟

نظرت إليه في دهشة وحيرة، لم تتطلع إلى هكذا سؤال، فتحت فمها وقالت أي كلام متاح:

- نحن نعمل ما في استطاعتنا أيها الكونت.. قاطعها صارخا وهو يمسك بلحيته الرمادية بعنف.. إن المجرم لن ينتظر.. لن ينتظر.

تحركت ببطء ناحيته وتكلمت بصوت هادئ:

- أعِي انك خائف على حياتك فأي عاقل سيتحدث بنفس الأسلوب ولطمأنتك سأقوم بإرسال دورية للقصر للمراقبة والحماية.

رفع رأسه ونظر إليها ثم صاح قائلا:

- لا أريد حماية لدي رجالي أريد القبض على المجرم.

أومأت برأسها مطمئنة إياه:

- و هذا ما سيكون أعدك بذلك.

في طريقها للمغادرة لمحت الحراس الشخصيين للكونت الذين يتوزعون حول القصر كالتماثيل بنفس البدلات ونفس الضخامة ونفس النظارات السوداء، التمعت عيناها حين أطبقت في جهة السيارات المصطفة بينما ارتسم بريق وشبه ابتسامة على شفتيها، أزاح بعضهم الطريق لها لتمر، صعدت السيارة بينما الشيء الذي رسخ انتباهها في هؤلاء الرجال لا يمكن تجاهله. أما في المكتب فقد اطلعت على نتيجة تشريح دانييل وكما قال المحضر فقد قتل عن طريق مسدس كاتم للصوت بطلقتين اخترقت صدره لتحدث الوفاة عقبه مباشرة. لم تكن الإشكالية في كيف مات بل من الفاعل، أرادت استبعاد المجرم صاحب السرقات لأنّ الأخير يقوم بجرائمه بتباهي وإبداع كلوحة فنية ولن يقبل بقتل شخص ما بطلقة نارية لهذا استبعدته، هناك شخص أخر استغل ما كان يحدث في الحفل ليتخلص منه ربما، هل هو مايز ومهدي فتكورين؟ كلامهما مرشحين مثاليين لكن في جريمة القتل من الغباء أن نستبعد أشخاصا أخرين يجب أن يكون المحقق منفتح على جميع الاحتمالات. أوقف شرودها الضابط دان وهو يعيد قراءة رسالة المجرم، تنبه لشيء ما، نظر في تفكير بدون أن يزحزح عينيه عن الورقة التي أمامه وبدأ يتمتم:

- هذه مقوله مشهورة لشكسبير لكنها مقلوبة.

نظرت لوجهه وعبست قبل أن ترد:

- الرسالة المعكوسة هي بحد ذاتها رسالة أخرى لشيء ما.. فكرت دقيقة ثم أردفت.. عندما نطلق على مادة ما اسم السم الأبيض فماذا سيأتي في بالك؟

قال ببساطة:

- المخدّرات.
- تماما لكن لن يخطر في بالك انه يمكن أن يكون السكر لأنه مادة غذائية.

قال في اهتمام:

- هذا صحيح.
- وعندما أقول مشروب الشيطان ماذا ستعتقد؟

قال في لهفة:

- الخمر؟

قالت بصوت رصين:

- القهوة.. أكملت في إسهاب.. هذا ما أردت توضيحه فمثالا عندما يصف الناس النبلاء سيقولون انهم أشخاص راقيين مؤدبين محبين للصدقة ويمتلكون اغلب الجمعيات الخيرية في المقاطعة لكن لن يظن احد بأنّهم أشخاص سيئين أو يمارسون أشياء يجرمها القانون.. غمزت له وأكملت.. أغلب الظن أنّه أراد أن يتهم الحضور لهذا استعان بكلمة إبليسية ولا نوصف شخصا ما على انه شيطان إلا اذا كانت أعماله من أفعال أصحاب النار، صرخ بحماس من فائض الإثارة:
- عبقرية، من أين تأتين بهذه التحليلات؟

أخذت نفسا عميقا ثم استطردت:

- إنّها الخبرة.
- تتكلمين كأنك في نهاية الشيخوخة بينما أنت على أبواب الثلاثين.

تحدثت بصوت جاد بعد ما نظرت له مطولا:

- الخبرة لا تكتسب بطول السنوات بل بالدروس التي تعلمتها والمصاعب التي خضتها

هز رأسه في بطئ وقال:

- أيتها المحققة إذا كان كلامك صحيحا فالسارق كان يقصد بكلامه البارون لهذا تخلص منه فعلى الأرجح كان يعتبره شخصا مشينا أو ربما بينهما عداوة.

- بل أراد التأكيد على كلماته لهذا تبعها بفعل، غير أن هناك شيء يحدث في المدينة شيء سيء جدا يجب أن نعرف ما هو، فالمغزى كله يتلخص في الرسائل الأدبية التي يتركها خلفه، هي عبارة عن نقاط يجب أن نبدأ البحث منها.

عقب الضابط خلفها:

- نعم لكن لا يجب أن ننسى بأنّه مجرم بعد قتل البارون بالحمض وليس شخصا يريد أن يندد عن وجود الفساد في المدينة.

أصرت على موقفها:

- لا أقول عكس ذلك، لكن اعتقد أن مشكلته مع النبلاء وليس مع المدينة جلها، السرقات حدثت في المتحف الذي يشرف عليه نبيل وهو الكونت والقتل أيضا طال نبيلا أخر وهو البارون ولن يكتفي بهذا القدر ما لم نتحرك، أعتقد بأن هذه هي النقطة التي يجب أن ننطلق منها، النبلاء، وعلى ما يبدو فإنه يراهم أشخاص سيئين وعلينا أن نكتشف لماذا.

تماما كما كانت تقول لي جدتي:

- القدر المغطى لا يسقط فيه الذباب.

نطقت مريم بودي بنبرة آمرة وهي تبتعد عنه:

- أطلب دورية لحراسة القصر وأريدك أن تذهب إلى منزل الجنرال بيرن للاستجواب وانا بدوري سأمر على القصر لأتحدث مع الكونت. سيكون الكونت والجنرال، احدهما أو كلاهما الطعم الثاني الذي ستطاله صنارة مجرمنا على الأرجح.

بعد الظهيرة في مخبر التحاليل..

قالت المحققة بخيبة وهي ترتشف قهوة مكتب الشرطة السيئة بمرارة:

- ما الفائدة اذا كانت بصمات البارون فوق الصنارة وهو ميت لن نعرف أبدا الحقيقة، إن كان هو القاتل أو لا.

تنحنحت طبيبة الأمصال ثم أردفت:

- بلا نستطيع لقد رتبت لك موعدا مع السيدة جونز في تمام الخامسة.

نظرت مريم بودي متسائلة لتردف الأخرى:

- المرأة علبة أسرار الرجل.. أعقبت موضحة.. أفضل مصدر لتقصي حقائق وأسرار الرجل هي امرأته.

هتفت المحققة بإعجاب:

- كم أحبّ الأشخاص العملين.. أعطتها حضن ما جعل الثانية تقهقه ثم توقفت وسألتها.. إن أفلت مجرم ما من العقاب اقصد انه توفي ولم ينل نصيبه من العقاب ماذا برايك سيفعل المحقق كي يقيم عليه العدل؟

- أن يسيء لذكراه، يعمل الرجل تقريبا كل شيء في الحياة كي يضمن سمعة واسما نظيفا يدوم حتى من بعد وفاته، وافضل عقاب لهكذا شخص هو أن تشوهِ سمعته.

هزت رأسها بإعجاب وهي تشق طريقها في ممر قسم الشرطة، كانت المكاتب التي تصادفها في سيرها مكتظة بالشهود وأعوان البوليس الذين يقومون بأخذ إفادات الحضور الذين شاركوا في الحفل، تصادفت بمهدي فتكورين وهو يلج لأحد الأقسام وقد لاحظت لأول مرة شعر رأسه الذي بدا يخف والفراغات التي تتخلله. حدقت فيه بطريقة جعلته يعقد حاجباه وضعت السيجارة في فمها وقالت بصوت غامض ونظرة محيرة:

- أرى بأن أمنياتك بدأت بالتحقق فالنبلاء يسقطون واحدا تلو الآخر.. يا لها من مصادفة رائعة.

سألها بعبوس:

- إلى ماذا تشيرين؟

أشارت له بذقنها بينما تنفث الدخان من شفاهها المقوسة:

- لطالما أحببت فيك صراحتك يجدر بك البقاء فيها فالتلميح غير لائق بك.. طالعته بسخرية قبل أن يضيف قائلا.. اتهاماتك عارية من الحقيقة الجميع يعلم بأن لدى هؤلاء الناس أعداء اكثر من النمل.

- من بينهم أنت !

قال بعد تردد:

- الله اعلم بخبايا النفوس وما تضرمه لبعضها البعض.
- لم يكشف لي احد عن كرهه لهم سواك.
- لهـذا سـيكون مـن الغبـاء أن أقـوم بقتـل أي احـد فـيهم فالشـبهة ستطالني.

هزت كتفيها مبتسمة وهتفت قبل أن ترحل تاركتا إياه يطالع في ظهرها بحاجبين مقرونين:

- صراحة اقتنعت !

السيدة جونز

كانت تصرفات غالدي غريبة بشكل ملحوظ عندما طلبت منه إيصالها لمنزل السيدة جونز ولم تستطع غض النظر عنها. فأول شيء قامت به لحظة ترجلها من السيارة هو تعمدها إسقاط قبعتها لهب كرجل محترم ومؤدب ويلتقطها بيديه، " وقع الفأر في المصيدة " قالت في نفسها، ابتسمت له بامتنان وسارت تحت سماء الجو الرطب بخطوات مسموعة فوق خشب السلالم البلوطي المؤدي للباب، صوت حفيف الأشجار الخريفية قد تخلل مسامعها بينما ساهمت الرياح على قذف القليل من التراب على الدرج. كان المنزل بعيدا عن العمران ويجاور بأميال نادي الفروسية لجيريفيل. وفي تمام الخامسة تماما أصبحت مريم بودي تدق باب السيدة جونز التي قابلتها بوجه مشرق نظرت إليها متفحصة وكانت أولى انطباعاتها عنها أنها سيدة رزينة شديدة التواضع متسمة بالنبل ومن تلك النساء اللاتي نشأن بتربية جيدة، فتحت لها بعد أن تعرفت عليها، دعتها للدخول في أدب ناحية غرفة الضيوف المترفة وقالت بمجرد أن استقرت فوق الكنبة الجلدية المشدودة بشكل جيد:

- آمل ألا يضايقك قدومي.

كانت السيدة جونز تهم بإعداد القهوة وقد ظنت المحققة بأنها لم تسمعها لهذا اكتفت بالصمت ريثما تعود وأخذت وقتها في فحص الغرفة الفسيحة بدقة. كان المنزل مريح يشيع الدفء والسرور ويبعث الطمأنينة في النفس، أما رائحة الورود المقطوفة والموضوعة فوق المزهرية الكريستالية تشعرك بالانتعاش، كان من نوع البيوت التي يحلم بها الفرد في منامه انخفضت عيناها نحو المجلات التي تُعنى بالفلاحة والبستنة، موضوعة

واحدة على الأخرى بعناية، تفقدت واحدة منهم بلا اهتمام وقرأت أول جملة وقعت عيناها عليها وكانت تناقش أصل ومفهوم البستان الذي يعود أصله إلى اللغة البهلوية وتعني موضع الرائحة الطيبة. لم يكن في استطاعة مريم بودي سوى أن تتفق على هذه الكلمات، فقد كانت الحديقة الكبيرة والأنيقة المحاطة بالمنزل تأكد هذا الشيء، حيث وجدت أزهار الطماطم الصفراء الجو المناسب لإطلاق عبقها الذي يدغدغ الأنف ولم تكن هناك زهرة واحدة ذابلة، والعشب الأخضر الطري قد جز حديثا، أما اليرقات الهشة التي اتخذت لها بيتا آمنا على أوراق البعض منها أظهر أن السيدة شغوفة فعلا بالبستنة وتجيد الاعتناء بحديقتها، بعد برهة عادت وفي يدها صينية القهوة وبعض من الكعك منزلي الصنع، بادرتها قائلة وهي تمشي إلى الداخل مخرجتا صوتا يدل على السخرية:

- هل ذكرت بأن وجودك قد يزعجني؟

هزت المحققة رأسها كعلامة على الإيجاب لتبتسم السيدة ابتسامة تشريع قبل أن تحس وكأن سهما أو أداة حادة اخترقت صدرها:

- مطلقا، لم يعد أحد يزورني حتى أولادي كنت وحيدة والداي ولم أظن بتاتا بأن الأيام الباقية من حياتي سأقضيها وحيدة مجددا.. أردفت بعد تردد قصير.. تصوري صادفت ابني في المدينة منذ أسبوع ولم يزورني قط تعجبت للأمر.

لقد كانت الحياة صعبة دوما خصوصا للأشخاص الطيبين.. فكرت المحققة في نفسها بأن إمراه كالسيدة جونز لبقة وذات شمائل مليحة كانت في يوم من الأيام تحيا في عائلة كبيرة محاطة بأطفالها وزوجها ثم على حين غرة افترق شمل الجميع لتصبح منعزلة عن الجميع يبدو أنها دورة الحياة.

- هذا أمر مؤسف؟ جميع العائلات لديها طفل ضال.

أومأت السيدة جونز رأسها بشدة ما جعل المحققة تشيحها بنظرات حزينة ثم سألتها حول مكان إقامة ابنها في البلدة، غطت فمها بيديها لتكبح الدموع ثم تحدثت بأنفاس مثقلة:

- في الفندق.. ازدادت التجاعيد حول جبينها لما عقدت حاجبها وتابعت.. أنا أدرك بأن جيمس إنسان حساس اكثر من اخوه لهذا السبب وجدت صعوبة أكثر في التعامل معه خصيصا بعد وفاة والده قد اثر الأمر عليه لدرجة أنه سافر بعد الجنازة مباشرة، لقد قال بأنّه وجد عملا ما في ولاية أخرى لكنني لم أقتنع، لم يستطع البكاء أو التعبير عن حزنه بل انزوى حول نفسه واكتفى بالهروب، هذا ما أتحسر عليه كثيرا أنني لم أمسك يداه وأحضنه أو أحاول أن أملأ الفراغ الذي تركه والده.. سكتت وأخذت نفسا طويلا لتكمل بعده.. لكن لا استطيع أن ألومه.. انحدرت الدموع من عينيها واصبح صوتها مخنوقا.. حتى أنا دخلت في عزلة اجتماعية لم أغادر البيت إلا نادرا لقد تغير كل شيء منذ أن فقدناه الحياة بعده ثقيلة تصدع النفس.

جففت الدموع بطرف ثوبها الرمادي المزين بأشكال الأزهار أما المحققة فقد أمسكت بقدح القهوة وهمت تتحدث بلهجة آسفة:

- قد يكون موت السند افظع شيء يخوضه الأبناء في الحياة لكن في مرحلة ما يتعين على الجميع أن يفقدوا أحباءهم.

كانت السيدة جونز بطيئة الكلام ربما نظرا لسنها الذي تجاوز الستين عاما لكنها تملك صوتا محببا في الآذان، وافقتها القول:

- فراق الأب لا يعوض غير أن هذه هي قوانين الحياة دائما ما نفارق الأشخاص اللذين نحبهم.

آثرت مريم بودي أن تخرج السيدة من إطار التعاسة الذي يخفي ابتسامتها وأبدت إعجابها بالمكتبة التي تتفرع على طول الحائط الخلفي ووصفتها بالأنيقة مما أدى بالسيدة جونز للابتسام ابتسامة صادقة، مجيبة بأن زوجها كان إنسان مثقفا يهوى المطالعة وكان دائما يقول بأن المنزل سيغدو كالمقبرة إذا لم توجد فيه مكتبة فالكتب هي روح المنازل، غير أن سؤال المحققة حول إن فكرت بإمكانية التبرع بالمكتبة لمجلس المدينة قد فاجأها نوعا ما وهذا ما أبدته تعابير وجهها فكرت بروية قبل أن تجيب وهي تعقد يديها حول خصرها:

- فكرت جديا بأن أقيم مزادا للمكتبة فهي تحتوي على كتب قيمة فعلا حول تاريخ المدينة ونشأتها بغرض التبرع بالنقود للجمعيات التي تنشط في المجال الخيري ورعاية الأيتام، لقد كنت ممرضة بدوري فيما مضى وكنت أساعد من حين لآخر في المنظمات الغير حكومية وأجمع لهم الأموال عندما كنت أنظم حفلات في صالحهم، إلا أن الوقت لم يسعفني بعد لأحقق كل ما أتمنى إلا أني أنوي فعلا عمل ما أقوله عسى وأن يخلد ذلك ذكراه.

أومئت المحققة برأسها إيجابا أثناء قيام السيدة من مكانها متجهة إلى النافذة التي تطل على الأراضي الشاسعة المنتهية عند بداية الغابة الجنوبية، وقد بانت قامتها الطويلة وشعرها الرمادي الذي تتخلله خصلات سوداء، ظهر مَجدولا بإتقان كأنّه محبوك بإبرة. نطقت وهي تطرق برأسها في محاولة لإخفاء الدموع التي اغرورقت في عينيها:

- لقد ترك لي عزيزي جونز ثروة معقوله وتستطيعين رؤية بأني أعيش في بحبوحة مالية لا باس بها، إلا أنني لست من هواة التبذير فنفقاتي دائما ما تكون متوازنة. أقضي جل وقتي في الاعتناء ببساتيني أو الجلوس إلى المدفأة مرفوقة بكتاب أو جريدة، واحتساء النبيذ أو قراءة البريد الذي يرسله لي إبني من حين لآخر، ليطلعني عن مستجداته. أنت تعرفين الروتين الذي نتجرع منه جميعا لكنني أستطيع القول باني أتمتع بحياة هادئة.

- لقد لاحظت ذلك حديقتك رائعة ومجلات الفلاحة تغزو الحجرة.

اقتربت السيدة جونز وهي تقول في سرور:

- هذا لطف منك فأنا أبذل مجهودا كبيرا للاعتناء بها وأخاف إن وافتني المنية سيهملها أولادي من بعدي، لكن المجلات ليست لي بل تعود لإبني جيمس فهو المهتم بالفلاحة والنباتات فقد تخرج منذ اربع سنوات في مجال الكيمياء النباتية.

نظرت إليها بدهشة وبقليل من الشك لأنّ عقل المحقق دائما ما يكون مترابط بالأدلة فيحاول وصلها بكل شيء يراه، ولكن هذا لا يعني بأنّه يكون صائبا باستمرار، المصطلحات كالبستنة والكيمياء النباتية والعفص والبردي كلها مصطلحات تشير إلى العالم الأخضر، لم تكن بالصدفة ولكن سيدة عجوز؟ اعتقدت في نفسها بأنّه مجرد ارتياب فقد كان عقلها يشبه الدوامة حينما يكون تدفق المعطيات هائلا جدا سيذهب العقل معه غير أن هذه السيدة لها سبب قوي كي يجعلها مشتبه به مثالي، الإنتقام لزوجها، لكن هل يعقل أن نقوم بسجن عجوز في أواخر العمر وأين سيكون تقديرنا لجلالة الشيخوخة؟ ثم كيف ستعرف بأن زوجها قد قتل، فالجميع يعلم بأنّه توفي نتيجة للغرق. أبعدت الارتياب إلى مؤخرة رأسها وتكلمت بنبرة رقيقة:

- أنت في أوج عطائك.

رمقتها السيدة جونز بابتسامة علقت عليها:

- أنا ممتنة لاستطاعتي العيش حتى هذا السن فأغلب الناس يتمنون العيش الطويل لكنهم يجهلون بأن العيش الطويل قد يكون شيء سيئ، يهربون من مملكة الموت لكن مآلهم إلى التراب على الدوام.

اعتدلت المحققة في مقعدها ودخلت صوب الموضوع مباشرة:

- في الحقيقة أنا هنا سيدة جونز لكي أناقش معك قضية مقتل زوجك.

قالت متسائلة وكأنها تذكرت فجأة:

- مقتل زوجي؟ لقد كان تقرير الطب الشرعي أنه غرق وليس قتل.
- أدرك ذلك وأسفة إن ذكرتك بالحادثة.

هزت كتفيها وأجابت:

- كان موته مفاجئ لقد خطفه الموت منا بأسوأ طريقة لم انسى الأمر حتى البلدة مازالت تتذكر ذلك الحادث الذي بقى راسخا في الأذهان.

قالت المحققة بصراحة تامة:

- أردت إعلامك بأنّه منذ تولينا قضية السرقات التي عصفت بالمدينة اكتشفنا أشياء كثيرة نظرا لتطور التحقيق، وأهم الاكتشافات هي أن زوجك لم يغرق قد يكون قتل ولكي أتأكد جئت للقائك.

وراحت تقص عليها كل ما حدث عن انتشال الصنارة إلى حين اكتشاف بصمة أصابع البارون ثيوني وكانت ردة فعلها عكس ما كانت مريم بودي

تتوقعه، تطلعت إلى أنها ستدخل في نوبة بكاء هستيرية لكنها حبست أنفاسها لفترة ثم أجابت وهي تضغط بشدة على يديها:

- هو إذا، لقد كنت دائما أشك فيهم لقد أدركت ذلك منذ الحادثة لكن لم أعلم من فيهم قد فعلها.

قطبت مريم بودي حاجبيها وهي تقول:

- من هم؟ هل تقصدين النبلاء؟ ما الذي يجعلك تشكين فيهم قبلا؟

أمطرتها بسلسلة من الأسئلة لم تكن تعرف الأخيرة كيف تجيب عليها اطرقت المحققة إطراقه طويلة لتقول بعدها:

- أنا هنا في زيارة غير رسمية ومحادثتنا لن تعتب باب المنزل تأكدي بأني سأخص حوارنا بالسرية التامة.

هتفت في اقتضاب بينما بدا عليها الارتباك:

- في الأيام الأخيرة من حياة جونز كان قلقا دائما لأنه اكتشف حقيقتهم هؤلاء من يسمون انفسهم بالنبلاء، النبيل الحقيقي هو من يسعى إلى نبذ الشر وبث الخير في شوارع مدينته وليس العكس.
- هل تعرفين شيئا لا أعرفه؟

التهبت الدماء في عروقها كالنار واستولى عليها الغضب:

- إن زوجي لم يغرق البصمات لم تكذب لقد قتل غالبا لأنه إنسان صالح محب للخير، لا أنكر أن لديه آراء صريحة جدا وقوية لكن لم يكن ليؤذي ذبابة عكسهم هؤلاء المتلاعبين الأدناس الذين يتصفون بأحط الصفات، لقد عاثوا في المدينة فسادا كبيرا وكان جونز دائما ينبههم بأن

الأشياء التي يقومون بها خطيرة خصوصا في المجتمع الذي مازال حديثا كي يتأقلم ويندمج مع بعضه البعض. لم تشفى الأرض بعد ولم تكن مستعدة لحرب ثانية بين أصحاب الأرض والأقدام السوداء لقد كانت لنا الحرية في الاختيار بين جنسية بلدنا الأم أو جنسية البلد التي ولدنا فيها فيما اختار آخرون الجنسية الأجنبية اختار بعضنا البقاء هنا لكن على ما يبدو ليس جميع من نوى البقاء لأنه يحب البلد وينوي تطويره بل كانت لأفراد آخرين أغراض أخرى بشعة.

تساءلت المحققة في جدية:

- تقصدين استغلال ثروات البلد؟
- كان الشعب إبان التحرير يعاني ارتفاع كبير في نسبة الأمية ما أدى بالبعض إلى استغلال الفرصة ليستولوا على أهم المراكز في البلاد، من جهة أخرى ساعدتهم الدولة كثيرا أكثر من أصحاب الأرض لم تعاملهم على انهم جزء من عامة الشعب بل من النخبة والأفضلية، تعاملت مع تضحياتهم وتعاونهم مع الثورة على أنها مِنة قاموا بها وليس لانهم يعتبرونها بلدهم التي ولدوا بها. لذا هذه العقلية ساهمت في تكوين الأنا والغرور والتعالي عند الكثيرين فأصبح يطلق عليهم لقب النبلاء لكن ما يفعلونه حاليا يهدد سمعة شعب بأكمله، مجرد ذكرهم يصيبني بالغثيان هم من يجدر أن يكون الموت من نصيبهم وليس عزيزي جونز فقد أحب الجزائر وأحب جيريفيل كثيرا وشارك في تأسيسها وكان من أعمدتها.

أردفت ببراءة:

- هوني عليك سيدتي العيش مع الكراهية امر لا يطاق ربما يجدر بك أن تمنحي لقلبك فرصة للشفاء وتسامحي؟

انفجرت صارخة:

- التسامح؟ ربما يستحسن أن تخصي نصحك للشخص الذي يقوم بكل هذا النهب والقتل وليس أنا، هل تعتقدين بأن التصفية التي تجري في حقهم مجرد صدفة؟ لا إنها من نتائج أفعالهم التي لا طالما نصحهم جونز بالتخلي عنها، وأنظري في الأخير إنهم يستحقون ما آلوا له إنهم يشبهون الثعابين لن تأمني غدرهم.

كانت التلميحات التي يدل عليها حديثها تظهر حقدها الدفين نحوهم من ناحية أخرى لا نستطيع لوم امرأة تكن الكره للأشخاص الذين تسببوا في وفاة زوجها. رفعت مريم بودي حاجبيها تعجبا وتبعته بسؤال:

- هل تمانعين من أن تذكري لي هذه الأفعال؟

احمر وجهها وترددت في الإجابة ثم ضمت شفتيها كي تمنع نفسها من الكلام. رن هاتف المحققة لتجيب بسرعة وهي تضح قدحها الفارغ:

- هل حصلت على إفادة الشهود؟ ثم رفعت حاجبيها بدهشة وتعجب.. ماذا تسمم؟

قال الصوت على الهاتف:

- لا يمكنني أن اشرح لك المزيد على الهاتف.

أعادت الهاتف إلى الحقيبة ثم تحولت إلى العجوز التي كانت تترقب الموقف بحذر وصمت:

- يجب أن اذهب لكن موضوعنا لم ينتهي هنا.

أومأت رأسها ببطء:

- بابي سيكون دائما مفتوحا لمن يريدون معرفة الحقيقة.

شكرتها على القهوة اللذيذة وهمت بالانصراف بعد أن جمعت حاجياتها لكنها توقفت في منتصف الممر وأبدت قلقها من نسيانها لأحمر الشفاه في الحجرة، عادت العجوز للغرفة لتفقده ما أعطى الوقت للمحققة كي تتمعن الصور العائلية والميداليات الذهبية الرياضية التي تزين الجدار. توقفت أمام إحدى الصور وتفحصت ذلك الرجل الواقف في الصورة وحاملا في كلتا يديه شهادة تخرجه وعندما عادت العجوز لتخبرها بعدم وجوده كان الممر فارغا.

الأعداء القدماء هم نفسهم الأعداء الجدد

قـد يكـون الوقـت تجـاوز السـابعة مسـاءا لمـا اتجهـت على عجـل إلى المستشـفى، مكثت تنتظر الطبيب المكلف بحالة المريض وهي تضع قبضة يدها على جانب خدها بعدما طلبت منها ممرضة الاستقبال انتظاره في الصالة. تمللت في مكانها واتجهت ناحية النافذة الزجاجية التي تطل على غرفة الجنرال، كان في حالة سيئة معصوب الرأس وقد استعاد وعيه منذ ثلاث ثواني وراح يسأل الممرضة عما يفعله في المستشفى. انعطفت باتجاه آلـة بيـع القهـوة والمشـروبات الغازيـة، وضـعت بعـض النقـود لملئ الكـوب، شردت في لون الخزامى الذي يكتسي به المستشفى أما النوافذ الكبيرة ذات الزجاج الخارجي المتوهج فتطل على مشاهد طبيعية أقل ما يقال عنها فاتنة. كان الليل قد غطى السماء النهارية ذات الأزرق الباهت بالأسود فكان المنظر يشبه لوحة ليلة النجوم لفان غوخ. من الجانب الآخر للجمال والمعاكس له يوجـد الضـجيج الـذي لا ينتهي وجريـان الممرضـات بـين الممـرات للحـاق بمرضاهم، أما بعض الناس فمذعورين وعلى أعصابهم، تستطيع رؤية عمال النظافة وهم يقومون بإزالة قطرات الدماء على الأرض أما الأطباء فتجدهم بزيهم الجراحي وملحقاتهم الطبية يسارعون في كل مكان لإنقاذ حياة شخص ما على أعتـاب الموت أو الخطر. غرقت في تأملاتها لمدة قاربت الـدقيقتين، أبصرت من خلالها شخص يشبه مارشملو آتيا نحوها في الرواق الطويل، إنها أحلام اليقظة أو هذا ما كانت تظنه في قرارة نفسها غير أنه لم يكن حلما بل يقظة نطقت مستغربة كأنها تهذي:

- مارشملو؟
- لا فقط شبحي.

نظرت إليه في ذهول وسألته دهشة:

- أنت هنا؟ متى جئت؟
- أنا هنا لأنك علمتني شيئا مهما.

استفسرت ليجيب في هدوء:

- لا تلتقط البندقية كي تقتل الفراشة. [14]

تنهدت طويلا وهي تلتقط القهوة ثم راحت تجلس على الكرسي المواجه له وأردفت ببرود:

- أنت تتكلم كرجل شرطة.. هات ما عندك.

ضبط أعصابه وهو يقول:

- انه ذلك الأقرع الذي استدعاك.

حملقت فيه كما يحملق الناس في الشخص المختل:

- أقرع؟ من تقصد.
- الكونت رينارد لومير.
- الكونت أصلع وليس أقرع.

قال بلهجة الاحتجاج وهو يفرك جبينه المصطح بإعياء:

- و هل هناك فرق؟

---

14 - مثل صيني.

أكدت له ذلك وأردفت تشرح بأن الأقرع هو الشخص الذي سقط كل شعره بينما الأصلع هو الذي فقد جزء منه فقط.

تأفف مارشملو لكلامها فهي تحب دائما معاندته وتجعله يظهر بمظهر الغبي زفرت بدورها وقالت بحزم:

- لقد فرغ صبري ستتكلم أو تخرج من هنا.

دار ببصره حول المكان قبل أن يخرج رسالة صغيرة الحجم فضها بثانية مخرجا مجموعة من الصور، سلمها للمحققة، كانت الصور تجمع الكونت والبارون والجنرال يوم لقائهم في المكان المهجور، اضطجعت في كرسيها إلى الوراء وسكنت حركاتها قبل أن تردف بغير اهتمام:

- إنها صور تجمع نبلاء المنطقة لماذا تريني إياها لم أفهم.

أجاب في إصرار وبصوت خافت:

- إنهم الرؤوس الكبار لعصابة الكأس الحمراء، شبكة المخدرات التي أرقتنا لمدة شهور.

نظرت إليه فاغرة الفم شعرت بالقشعريرة تمشي في جسدها وماتت الكلمات في شفتها

تبادلا نظرات القلق ثم قال بعد تفكير:

- أعتقد بأن استدعاءك لم يكن صدفة لقد كانوا يعلمون بأنّك المحققة الرئيسية المشرفة على تلك القضية ربما أرادوا ربح المزيد من الوقت لتمرير أعمالهم لهذا اخترعوا قضية السرقات، هل يعقل بأن أشخاص بهذا النفوذ كله لم يتمكنوا من اكتشاف سارق يحوز لوحات تقدر بالمليارات؟

فمن سيملك الجرأة للوقوف ضدهم وفي مدينتهم كل هذا عبارة عن تمثيل لقد خدعوك أيتها المحققة.

صعقت من هذا الخبر المفاجئ وهمت تقول بصوت ضعيف:

- سيهيج الناس عندما يعرفون بأن السرقات مفتعلة لا تكفيني صدمة قتل دانييل والان جاء هذا الخبر القوي.

تساءل عن أمر دانييال وعن سبب موته لتقول مستنكرة:

- إنه صهر الكونت مات ليلة تنصيب العمدة الجديد بطلقات نارية خارقة للدروع.

أجاب مارشملو بشك:

- أينما توجد مخدرات يوجد سلاح، ثم ما أدراك بأنّه يسعى خلفهم وهل تأكدت بأن الجثث حقيقية؟

استفسرت عن قصده ليرد بصوت غريب:

- أقصد كل شيء هذه الأيام قابل للتنكر والتزييف حتى الموت والأعداء القدماء هم نفسهم الأعداء الجدد فقط يرتدون أقنعة مختلفة.

قطبت حاجبيها قبل أن تجيب بعبوس:

- أكره عندما تشيع في نفسي الشك والغموض حول كل شيء.

كان سيعقب على كلامها إلا أن مجيئ الطبيب حال دون ذلك.

- أيتها المحققة هل طلبتني؟ سأل الطبيب الذي كان مظهره يوحي بالجدية وبشرته السمراء ساهمت في إظهار عوده الصلب.

- نعم، أردت معرفة حالة وطبيعة تسمم الجنرال بيرن.

وقفوا في شبه دائرة وشرع الطبيب في الكلام بينما أصغت له بانتباه ومن دون أن تغفل على كلمة واحدة:

- سيفاجئكم ما سأقول لكن الجنرال قد تسمم بحمض البروسيك أو كما يطلق عليه حديثا سيانيد الهيدروجين وقلما يأتينا هذا النوع من الحالات، إنه حمض قوي ومميت لهذا ذهلت.

- هل يمكن أن نلمح إلى أنه قد تسمم من طرف شخص ما؟

أكد قولها في حزم:

- يمكن ذلك أجل لأنه صعب التركيب ويحتاج إلى كيميائي مؤهل للقيام بعملية استخراجه لكن من جهة أخرى يسهل الحصول عليه لأنه يباع كمبيد للحشرات ويسحب أيضا من بذور بعض الفصائل النباتية ونواة بعض الفواكه، إلا أن اغلب الناس لا يعرفون كيف يستخرجونه بحيث يجب عزله من النباتات لأنه يظهر مع السكريات لكن الأمر يحتاج أيضا إلى شخص خبير في علم النبات.

- دائما ما تجد النباتات والحشائش طريقها نحوي.. قالت بتمتمة وهي تهز رأسها قليلا، فكرت في أن التسميم سهل جدا كطريقة قد يقدم عليها المجرم وهو الذي ألف الصعوبة والإبداع في جرمه، هل تملل وأصابه الإرهاق أم هناك تغيير في الخطط !

تساءلت بتقطع:

- هل تعتقد بأنّه قد دس في الأكل أو استنشق؟
- يبدو بأنّه هضم ولم يستنشق.

قالت مندهشة:

- كيف عرفت؟ هل باستطاعتك تأكيد ذلك؟

شرح الطبيب في هدوء وهو يقوم بلمس ذقنه الحليق:

- إن التسمم بالسيانيد يكون حاد عندما يتناول بكثرة يبدأ بآلام في رأس أو الصداع وهبوط في ضغط الدم والقيئ وتنتهي بالموت في اغلب الأحيان، وليس في حالتنا اليوم لأنّ من قرر التخلص منه فلن يستطيع ذلك بسهولة.

هتفت في تساءل متعجبة:

- لماذا؟
- لأنّ السم لم يتمكن منه تماما لقد وجد معدة مقاومة جدا وهذا ما أعتبره شيئا مدهشا لشخص في عمره، أردت اكتشاف السبب وقمت شخصيا ببعض التحاليل لأجد نسبة الفركتوز والبكتين جد مرتفعة لديه، ربما لهذا السبب تأخر مفعول السم وقلّت أعراضه..

قاطعه مارشملو بسرعة:

- هل قلت بكتين؟

أومأ الطبيب صاحب الأنف المكتنز بالإيجاب بينما أخرج مارشملو دفتر ملاحظاته، قلب في أوراقه بسرعة وما هي إلا ثواني نظر بنظرة الواثق وقال:

- اعتقد انه من التفاح فهو الذي يحوز على نسبة كبيرة من البكتين وهذه المادة بالذات لها القدرة على سحب السموم كالمعادن الثقيلة من الجسم بحيث يمتصها ويتخلص منها بالإضافة لتقوية جهاز المناعة.

وافقته مريم بودي بدورها وأردفت بصوت المتأكد:

- هذا صحيح لقد تذكرت، عرض الجنرال علي في الحفلة لارتشاف كأس من عصير التفاح الذي يصنعه كان طيبا بحق، حيث أضحت حدائقه تنتج التفاح في المنطقة وتصدره خارجها لجودته الجيدة.

تبسم الطبيب ابتسامة ساحرة وهز كتفيه بتفهم وبمجرد انصرافه تحول مارشملو إليها متمتما في سخرية:

- لو مات بالسم أفضل بكثير من أن يقضي باقي أيامه في الحبس.

التفتت إليه وردت عليه ببرود:

- احتفظ بوقاحتك لنفسك لا احد يريد سماعها.. فكرت قليلا ثم قالت.. وأنت من أين أتيت بكل هذه المعلومات؟
- هنا تكمن فائدة مطالعة المجلات العلمية الشهرية.

ردت عليه بسخرية:

- هل يجد ربي اكل التفاح كثيرا لأتجنب التسمم؟
- و من ذا الذي يريد تسميمك؟

هزت كتفيها بعدم اهتمام وأجابت:

- من يعلم!

أجاب بنبرة التعجب:

- النساء لديهن نفس أرواح القطط لا يمتن بسهولة.

فتحت عينيها في دهشة:

- ماذا تعني؟
- لا شيء.
- اذا توقف عن النعيق كالبومة فوق راسي.

أجابها برد طريف:

- شكرا لتشبيهي بأذكى أنواع الطيور تشبيه في محله ولا يمكنني الاعتراض عليه.
- لقد نسيت كم أنت ثرثار.

قال في لهجة جادة:

- تتكلم المرأة في المتوسط حوالي 7000 كلمة في اليوم بينما الرجل 3000 كلمة هذا يعني بأنك تتكلمين اكثر مني.
- احفظ لسانك الغليظ.
- لا يعجبك كلامي لكن يعجبك دماغي الوافر لأنك تحتاجينه.

كان جوابه دائما حاضر مما أدى إلى نفاذ صبرها:

- ستدفعني للجنون.
- هرموناتك هي الكفيلة بذلك ولست أنا.

و بقيا على هذه الحالة..

بعد نحو ساعة، وقف مارشملو يتفحص القصر بإعجاب لكنه لم يعلم بأنّه قصر الكونت رينارد لومير إلا عندما قرأ بعينيه اسمه منقوشا أمام البوابة. تكلم وهو يقف أمام القصر بإحباط:

- لا أصدق بأنّك أتيتي بي لقصر بارون مخدرات، أتدركين الخطر الذي تضعيننا فيه؟

أجابت ببساطة وهي ترش العطر حولها لإزاحة رائحة المستشفى التي علقت بها:

- كان يجب أن أزوره، هناك أمور بيننا يجب أن نتكلم عنها.
- لم اكن مطمئنا لذهابك منذ البداية هل تذكرين؟ أنت تعرفين رأي فيه من الأول، لذا لن أغير رأي. إنني أؤيد سياسة عدم التدخل، لذا لن أدخل.

هزت كتفيها وردت غير مكترثة:

- حسنا لك ذلك.
- بعد عناء السفر الطويل شخص مثلي يريد التماس قسط من الراحة.

بصوت خافت قالت في حزم:

- لسوء حضك لن يحدث هذا، لقد صرفت السائق بإمكانك طلب سيارة أجرة أو أطلب من أحد الحراس أن يقلك إلى مكتب مقاطعة الشرطة.

نطق مستغربا:

- لماذا؟

ناولته قبعتها وهي تتحدث:

- أريد رفع البصمات عن قبعتي اذهب واسأل عن الطبيبة ناشا بيجي.
- هل تشكين في أمر أحدٍ ما؟
- إنه مجرد ارتياب أريد التحقق منه.

عندما طلبت المحققة الكونت قيل بأنّه في مكتبته كالعادة، بعد عدة طرقات على الباب وجدته يحاوط وجهه بيديه وبمجرد أن رآها استفهم عن حالة الجنرال، لتقول بأنّه يتعافى

تحدث وهو يعتدل في كرسيه:

- هذا جيد.

فوجئ بها تسأل:

- هل تذكر السؤال الذي طرحته علي قبلا، عن سر امتلاكي لعزيمة كالفولاذ؟

أجاب في هدوء تام:

- لازلت انتظر الإجابة دائما.. رمقها بنظرة تأنيب.
- لقد قلت لك انه سؤال صعب قبلا لكنني سأجيبك عليه، أعتقد أن السر كله يكمن في الاعتياد، الاعتياد على التظاهر بالقوة حتى تمتلكها، الاعتياد على الفرح حتى تجعله أساسي في حياتك، الاعتياد على الألم حتى لا يؤلمك مرة أخرى وهكذا.. اعتقد بأنّه لم يكن يوما في قاموسي شيء يسمى الخوف، لأنّ الخوف يعني بداية الخسارة.

تنهد تنهيدة عميقة وهتف بنبرة إعجاب:

- رائعة.
- أنا ادرك بأنّك من وراء قتل صهرك لكن لما أيها الكونت؟ هل هي الكراهية أم سمعة؟

تنهد:

- يمكنك أن تقولي الاثنين معا فالإنسان الذي لا يحب شخصا ما يبقى يترصد له حتى يخطئ كي يتخلص منه وهذا ما حصل.
- لما تقولها بهذه البساطة ألست نادم؟
- لست كذلك وأتحسر أني لم أفعلها من قبل.

حملقت فيه بنظرة مجردة ثم سألته في حيرة:

- كيف علمت، هل هو مهدي فتكورين من أخبرك؟

تنهد مرة أخرى:

- لا، لم يكن هو.
- لقد علمت أيضا أنك.. قاطعها بشيء من خيبة الأمل.. أدرك بأني ارتكبت خطئ فادح وبشع لكن في مرحلة ما يجب أن تبني ولائك لجهة معينة ولم يكن لي خيار آخر، لا يمكنني حتى مجابهة عائلتي إن علموا بالأشياء البشعة التي قمت بها إنهم يعتبرونني قدوة لا يمكن أن أنظر إلى وجههم مرة أخرى، لا أستطيع.

تكلمت ناصحة بصوت هادئ:

- الخطأ جزء من الطبيعة البشرية، المهم أن نتعلم كيف نصححه فقط والتغيير يصنع الأبطال.

سرت في بدنه قشعريرة وأجاب وهو ينهض واقفا:

- ليس كل الأخطاء تصحح عندما تنهمك في الشر كثيرا سيصعب عليك انتشال نفسك من بقعة القذارة.
- إن كنت تعتقد ذلك فأحترم رايك، لكن لا يجب أن تكون كالنسر الذي يبدو قويا من الخارج لكنه ينتحر بمجرد إصابته بالمرض. أراك شخص قوي جدا ولا أتوقع منك غير أن تكون على نفس القوة لتحمل مسؤولية أفعالك.

أخذت عيناه تضيقان أكثر وتحدث بنبرات يبدو فيها الارتباك:

- سأرافقك لمركز الشرطة ولكن أريد دقيقة وحدي.
- حسنا، سأنتظرك خارجا.

كانت مريم بودي تمشي في الممر وهي تستذكر نظرات الكونت الخائفة والمرتبكة قبل أن تسمع صوتا غريبا جعلها هي ومن في المنزل كلهم يركضون لمعرفة مصدره، فتحت باب المكتبة بسرعة جنونية لتجده ساكن الحركة، خلف كرسيه.. لقد انتحر.. وهكذا رحل الكونت كالطيف إلى براثين الموت فبالأخير الموت لا يحتاج الاستئذان كي يطرق بابنا.

كان القصر قد خفت منه حركة رجال البوليس وقد عاد هدوئه المعهود، لكن لم يعد كل شيء كما كان بعد تلك الليلة. أدا المسكينة كانت منهارة لا تكاد تكف عن البكاء، كانت تبكي زوجها وأباها، جرح موت زوجها لم يندمل بعد لينبش من جديد بعد موت والدها. ازدادت حالتها سوءا ولم ترغب المحققة بأن تزيد الطين بلة وتخبرها بأن والدها من كان وراء مقتل زوجها. حتى الابنة الصغرى سكيل، كانت مصعوقة ولازمت المنزل طويلا بعد تلك الحادثة. وبعد حادثة انتحار الكونت بثلاثة أيام شيعت جنازة مشتركة لدانييل والكونت والبارون ثيوني في كنيسة المدينة. ولم يحضر الجنازة الكثير من السكان لأنهم عرفوا بأن هؤلاء النبلاء بالإضافة إلى الجنرال المتقاعد بيرن الذي يقبع في الحبس الاحتياطي كانوا على رأس أكبر شبكة للمخدرات في المدينة، فقدوا هيبتهم ولم تكن الجنازة مهيبة كما كانوا سيتصورونها لو كانوا على قيد الحياة. بدت المدينة أشد غضبا من أي وقت مضى ضد النبلاء وكان هناك الكثير من أرضاهم هذا الغضب من أمثال مهدي فتكورين. والوحيد في العائلة التي لم يحضر الجنازة هو مايز، فبعد حادثة انتحار الكونت سلم مايلز نفسه معترفا بأنّه اللص الذي أرعب جيريفيل طوال هذه المدة، لقد شعر الجميع بالصدمة لم يفهموا سببه الذي لم يكن منطقيا ومازالت دوافعه الحقيقية مجهولة عند البعض، فقد رجح علماء النفس وأخصائي علوم الاجتماع الذين حللوا حالته في البرامج التلفزيونية إلى أن السبب في حالته هي أن الفنان عندما يصل لمرحلة ما من عمله الإبداعي لن تكفيه الرسومات في إخراج إبداعه إلى الواقع، بل سينحرف بعقله إلى العالم الخارجي ويجسد فيه ما لم يستطع أن يجسده في خياله، فحسبهم كانت السرقة وجرائم القتل هي متنفسه نظرا لأنه لم

يتمكن من راسم أي شيء جديد منذ مدة. لم تكن المحققة مقتنعة تماما من إدانته ولم تفهم السبب الحقيقي من وراء اعترافه بجرائم لم يثبت أنه ارتكبها سوى من كلامه الذي يعزز ما يقول. لقد نصحته وقالت له بأن الطموح المفرط دائما ما يؤدي إلى الهاوية ولكن على من تتلو زابورك يا داوود، لم يمتثل إلى توجيهاتها بل اكتفى بذكر أن اللوحات قد دمرت من طرفه بمجرد سرقتها.. نعم إن الأمر جنوني وغير قابل للتصديق لا يحدث في الواقع بل في القصص البوليسية فقط. وهكذا أغلقت جيريفيل هذه القضية التي عصفت بها نهائيا وسحبت الملف إلى الأدراج. طلبت أدا من الكنيسة أن لا تتم عملية الدفن كما هو متعارف عليه بل فضلت حرق الجثث والإبقاء على الرماد كتذكار خشية نبش القبور وانتهاك حرمتهم من طرف الأهالي الغاضبين، وقد عملت مريم بودي على إرسال برقية إلى رئيس المحكمة العليا لمدينة جيريفيل كي يقوم بغلق جميع الجمعيات الخيرية التي كانوا يترأسونها نهائيا والتي كانوا يمررون من خلالها أعمالهم المشبوهة، والآن أصبح كل ركن وكل حي في المقاطعة على علم بفضيحة النبلاء، وقد عمدت السلطات المحلية والوطنية على تجريدهم من جميع الأوسمة التي قدمت لهم من طرف الجهات الحكومية والوزارية. كانت المحققة بجانب التوابيت مرتدية ثياب الحداد برفقة أدا تواسيها كل ما سنحت لها الفرصة بذلك، بينما كانت الأخيرة رزينة في حدادها تماما كما في عقلها. أتى مارشملو ليقدم تعازيه وطلب بحديث جانبي مع المحققة. رمقته الأخيرة بنظرات استنكار، قالت بنفاذ صبر وبحاجبين مقطبين:

- ماذا الآن ألا يمكنك إبقاء ثرثرتك لوقت أخر.
- ستصعقين مما ستعرفين، قال مبتسما.
- ماذا هناك لا تختبر صبري، تكلم.

أراها إحدى الصور وأعقب في فخر:

- هذا هو مجرمنا الحقيقي.

شحب وجهها وتحلى باللون الأبيض، نفس لون بشرة مارشملو التي تشبه قطعة صابون:

- كيف عرفت ذلك؟، ردت عليه بصوت غريب.
- لقد كان مخبري الذي كشف عن موعد لقاء العصابة فيما مضى، لقد كان هو الذي فضحهم. قمت بإرسال أحد عيوني من وراءه ليتبين بأنّه يعيش في الفندق وسط المدينة. لكن بعدما طلبتي مني القيام بتحليل البصمات من قبعتك تبين بأنّه نفس المخبر. غير أن الشيء الممتع في الأمر أنه ليس كما يدعي اسمه غالدي بل اسمه الحقيقي هو جيمس جونز.

نظرت المحققة بشيء من الدهشة ناحية الصورة وذكرت بصوت خافت لا يكاد يسمع بأنّها قد سبق وشاهدت صوره من قبل. تساءل مارشملو أين لتخبره في منزل والدته.

تحدث بإعجاب وهو يومأ برأسه في قوة:

- بجدية، إنه عبقري انظري كيف خدع الجميع ألا تعتقدين ذلك؟
- أعتقد أني سأتقاسم معك النصف هذه المرة، نطقت بعبارة سريعة.
- من أين ستأتين بالمال؟ الكونت الذي استأجرك قد توفي، تساءل بلهجة بجدية.
- لا تقلق المال دائما ما يجد طريقه نحوي.

أعطاها الملف المحشو بالأوراق وهمت ذاهبة، حملق فيها ببلاهة:

- إلى أين أنت ذاهبة.
- لأتحقَق من الأمر بنفسي.

استأذنت من أدا وطلبت من غالدي أن يقلها لإحدى المقاهي الراقية، وعندما ترجلت من السيارة وطلبت منه أن يقاسمها القهوة ما كان منه إلا القبول، أعطت طلباتها للنادلة والتي كانت عبارة عن كأسين من القهوة وما إن جلسا أخرجت الملف الأصفر ووضعته أمامه. استفسر لتطلب منه أن يتفحصه، تغير وجهه إلى البياض، أما شفتاه فاكتسبت اللون الأزرق الداكن عند كل سطر وصورة يمر به. حدق بها بفزع وهلع بينما راحت تشكر هي النادلة بابتسامة لطيفة، وما إن وضعت الأخيرة الطلبيات ورحلت قال بعد أن استغرق وقتا في التفكير:

- كيف عرفتي؟

تكلمت في دهاء وهي ترتشف من كوب القهوة:

- لا يجدر بك سؤال شخص مثلي هكذا سؤال، دعنا نقول بأن حدس المرأة أقوى من ذكاء الرجل.

أطال النظر إليها ثم ضحك ضحكة أظهرت أنيابه:

- القبعة.
- القبعة، صورك عند والدتك، بالإضافة إلى تنكرك الرائع كالعامل في المتحف ورئيس مسرح الجريمة في مركز الشرطة، والنادل في حفلة التنصيب، ثم غالدي، بالمناسبة أين هو غالدي الحقيقي؟

تكلم بلهجة الرجل الحليم:

- أنا لست قاسي القلب أيتها المحققة، إنه مخدر في مكان ما لا تخافي لم اقتله، لن أقتل شخصا برينا.

راحت تشرح له معترفة وهي تنظر إليه مليا:

- أنت الشخص الوحيد الذي لم أقم باستجوابه أو الشك فيه، صدقني هذا ليس من شيمي أو عادتي لكن غالدي الحقيقي كان شخصا لطيفا، مرحا وهذه الأشياء لا يمكن أن نزيفها أو نصطنعها وبمجرد تغير أفعاله إلى أفعالك استطعت التنبه، فالتغير المفاجئ يثير الريبة فمثلا هو كان يقود ويضع يده دوما على المقبض حتى عندما يتحدث، عكسك أنت لأنه كان يعمل سائق فيما مضى قبل أن يصبح المساعد الشخصي للكونت، لذا يحترم قانون المرور أكثر من أي شخص أخر. وقوانين المرور في جيريفيل تمنع على السائقين أكل الطعام ورفع اليدين أثناء القيادة ومن يخالف ذلك يتعرض إلى غرامة مالية باهظة، لهذا لم تستطع التقيد للقانون لأنك مثلنا جميعا شخص عادي لا يعبأ بقانون المرور ولست سائق مهني، أما قطعة القماش التي علقت في غصن الثقب الموجود في جدار صور الحديقة تعود لزيك هذا، بكل هذه الأشياء التي ذكرتها بدأ اللغز يتضح قليلا لكن ما لا أفهمه هو لماذا كنت تدخل للقصر عبر الفتحة الموجودة في الجدار وباستطاعتك الولوج عبر البوابة مثل الناس العادية ولن يشك أحد فيك؟ كان ينظر لها بانبهار وارتباك في نفس الوقت لم يجب عن تساءلها واكتفى بوضع يده حول فمه كمن جف حلقه، ألقت ببصرها إلى الخارج لثواني ثم أعادته إليه. تنهدت في عمق وقالت بهدوء.. أترى بجميع الأقنعة التي كنت ترتديها لم تستطيع حجب الحقيقة بالأخير. أعلم بأن قضيتك الأساسية هي مع النبلاء وليست مع غيرهم، أردت الثأر منهم أليس كذلك؟ لما فعلوه لوالدك.

حك رأسه وهزه نفيا ثم قال بعد أن تمالك نفسه:

- إنها جزء من الحقيقة وليست الحقيقة الكاملة.
- و ما هي الحقيقة الكاملة؟، تساءلت باندفاع.

تحركت شفتاه وتغيرت نبرة صوته:

- أنا بطبعي إنسان إصلاحي، أظنك تستطيعين فهم الأشخاص مثلي الذين لا يريدون إلا إصلاح كل شيء حولهم، إنها نزعة المثالية التي تؤرقنا أيتها المحققة، حاول أن يبرر موقفه.
- الإصلاح؟ إصلاح ماذا؟ أنت في مجتمع يعج بالطبقية لا يمكن لشخص واحد إصلاحه بين يوم وليلة وبالتأكيد لا نصلح شيء بالقتل وتفعيل الجريمة وسرقة تراث البلاد والمتاجرة به هذا يعد تخريبا وليس إصلاحا.. هتفت بحنق وعنف.
- لكلٍ منا طريقته وأساليبه في تحقيق ما يريد وانا لا أختلف عنك، إذا كانت لديك كل الأدلة والبراهين لتوريطي لما لم تقدميني إلى العدالة حتى الآن.. زفر في آخر جملته.

قالت وهي تنظر إليه في خبث:

- لأننا سنعقد اتفاقا.

لزم الصمت عندما مرت النادلة أمام طاولتهم ثم عاد يتكلم بمجرد رحيلها:

- ستتعرض سمعتك للتشوه إن علم الناس بأنّك تخالفين القانون. المحققة المشهورة مريم بودي أصبحت الآن تعقد الاتفاقيات مع المجرمين.

أشعلت سيجارة وجذبت نفسا عميقا منها مجلية الطرف حولها واستطردت بحسم:

- أنا القانون عزيزي، لا تخاف لن يعلم أي شخص سوانا.

سألها في فضول:

- و المقابل؟
- المقابل هو حريتك، سأتركك ترحل بمجرد تحقيق الاتفاق.
- هكذا بهذه البساطة؟، قال في تفكير.
- ليس بهذه البساطة قلت لك بأن بيننا اتفاق فالعدالة لها ثمنها.
- ماذا تريدين؟ تكلم بإيجاز.
- استعادة اللوحات، ردت مبتسمة.
- هذا غباء ومستحيل، قال في حدة وعنف.

هزت رأسها بالنفي واستمرت تقول بصوت واثق:

- لن يستحيل عليك شيء خصوصا لعبقري مثلك، إضافةً أريد خمسين مليون أورو كحقي للتكتم عنك، لأنني امرأة، والمرأة لا تعرف متى يمكن أن يفتح فمها وتقول شيء لا يجب قولة، خصوصا إذا كان سرا كبيرا سيصعب الاحتفاظ به، لذا يجب إغلاقه بالنقود.

رد باستياء ظاهر وهو يشيحها بنظرات باردة:

- هذا كثير.
- خلايا عقلك التي تهدر وتموت كل دقيقة لمجرد التفكير في الخطط والمال الذي تحصل عليه بسهولة عبر السرقة لا تراه شيئا عظيما أما عند إعطائي القليل منه تراه كثيرا؟ وكأن الاختيار لديك.

مرت دقيقة أو دقيقتان قبل أن يجيب باستسلام:

- حسنا لنقل إني استطعت أن أعطيك المال هذا لا يعني بأني سأتمكن من استعادة اللوحات لأنني بعتها للدولة الجارة.
- أعتقد بأن شخصا مثلك لن يواجه صعوبة في تحقيق شيء يريده، كما استطعت سرقت اللوحات من المتحف بدون أن يرك أحد ستستطيع أن تسرقهم من جديد وتعيدهم، تكلمت متهكمة قبل أن تودعه.

بقي يرمقها بنظرات حادة وأخرى ذات مغزى بطرف عينيه إلى أن غابت.

بعد مرور بضعة أيام...

أقيم حفل افتتاح متحف باردو بعد بضعة أيام على المحادثة التي جرت بين المحققة وجيمس جونز، وقد كان أضخم حفل افتتاح لمتحف أقيم في الجزائر بالمزامنة مع المعرض السنوي لتراث المنطقة. كانت السعادة تطرح أوجه الجميع إلا مارشملو الذي راح يشبك أصابع يديه في شعره بعصبية وهم يقول بسخط والغضب يملأ وجهه:

- ماذا ! تركتِه يذهب هل أصبحت تقفين في صفوف المجرمين بعد أن كنت تلاحقينهم، هل حلت القيامة بهذه السرعة؟

راحت تتصرف بأسلوب طبيعي مشعلة سيجارة:

- لما لا تصمت وتجلس بأدب لتستمتع بحفل الافتتاح مثل الناس العادية، أذكرك لولا مجهودي لكانت اللوحات لحد الآن مفقودة ولم أكن لأسمح بحدوث شيء مثل هذا في بلدي.

احمر وجهه وراح يقول في قمة الغضب:

- من استرعى الذئب ظلم، [15] أنت تَرْتَدِين عن القانون وتجندين المجرمين كي يعملوا عملك.

- لما الجميع يتحدث عن القانون كأنّه مستقل عنا، نحن القانون لأننا الأشخاص الذي نُفَعِلُه ونطبقه، نحن رجاله وأدواته، لهذا كف عن مثاليتك الزائدة ثم من قال لك بأني سأتركه يرحل بمجرد استعادة اللوحات؟، قالت باستخفاف وهي تشرب ما بقي من الكوكتيل.

قطب حاجبيه متسائلا في تعجب:

- ألم تقولي أنت هذا الآن؟

ابتسمت بمكر:

- أنا أقول الكثير من الأشياء عزيزي وهذا لا يعني بأني أقصدها حقا، سأقول لك حكمة من ذهب، هناك شخصان لا تصدق كل كلامهم الطفل الصغير لأنه يكذب للحصول على الألعاب والحلوى التي يريدها والمرأة لأنها تغير رأيها كل دقيقة.

قال بنبرة مصعوقة:

- أنت شديدة المكر.

ابتسمت ثم قالت وهي تلوي شفتيها بخبث:

- بالإضافة إلى اللوحات هناك خمسون مليون أورو في رصيدي كضمان على تكتمي عن أمره.

---

15 - قول لعمر ابن الخطاب.

- هل أخذت منه نقود! هذه رشوة! نطق بنبرة إتهام.

- أذكرك بأن من استدعاني قد مات، من سيعطيني أتعابي؟ هذا لا يدعو للاستغراب فمن المعروف عن المحققين أنهم يأخذون الرشوة لن أكون الأخيرة أو الأولى بالإضافة إلى أنني امرأة والنساء لديهم نقطة ضعف أمام النقود. لكنني أفكر جديا في التبرع بجزء منه للمتحف.

رمقها بنظرة قاسية وأردف يقول بأهداب تتحرك بسرعة:

- إنه مال حرام، القانون لا يشترى، ولا يمكنك التكفير عن ذنبك بمجرد التبرع به.

هتفت بلهجة محتجة وهي تشيح بالكأس في يديها:

- بلا حتى القانون له ثمن لكن ليس في حالتي، أنا تعبت عليه فأصبح من حقي، ثم هناك الحياة الواقعية وهناك الخيال وفي الحياة الواقعية تحتاج امرأة مثلي للنقود كي تعيش لذا إن كنت لا تريد حصتك سآخذها، ختمت كلامها وهي تزم شفتيها.

أجاب مارشملو بحزم واستنكار شديد:

- لمعلوماتك لن يصبح حلال لمجرد تبريرك.. أخذ دقيقة ليستعيد أنفاسه ثم واصل الحديث بنفس النبرة.. لن أشارك في هذه المهزلة يمكنك الاستغناء عن خدماتي.

- توقف عن ترهاتك أنت تشبه المراهقة التي تركها حبيبها من اجل أخرى خاطبته بنبرة عدم التصديق.

قال في يأس وهو يعدل قميصه:

- أنا إنسان نظامي وأحترم القانون.
- لذا يجدر بك احترامي وإلا سأكتب عنك رسائل توصية سيئة لن يقبل أي أحد بأن يوظفك، ولن تجد عملا. لن تفر مني بسهولة، ختمت كلامها وهي تضحك.

تعجب غير مصدق لما تسمعه أذناه وانتفض متحججا بكلمات غير مفهومة، أمرته بأن يكف عن الهمهمة.

ساد صمت قصير ليتساءل مغيرا مجرى الحديث:

- ماذا كان تبرير المجرم؟

قالت بغير اكتراث وهي تصلح شعرها:

- يقول بأنّه إنسان إصلاحي.
- إصلاحي هبه، قهقه ساخرا.

ارتسمت على وجهها ابتسامة ارتياح وتحدثت بصوت حريص:

- الكثير من المجرمين يعتبرون أنفسهم أبطالا، فلعدل من الفضائل التي يمتدح بها هؤلاء لكن عندما يتعلق الأمر بهم يمكن أن يتخطوا العدالة بدون وخز الضمير.

توافد الكثير من الناس المحليين ومن المناطق الأخرى ليحضروا إعادة الافتتاح من جهة، وليتأكدوا أن القضية التي كانت تمر على وسائل الإعلام صحيحة من جهة أخرى، فلم يعد للمدينة حديث سوى عن هذه القضية بجانب أنهم أرادوا رؤية المحققة المشهورة الموجود في تلك المنطقة. بعد بدء الاحتفالية كانت الصحافة التي تغطي المناسبة تتوقع كلمة من مريم بودي

بصفتها البطلة التي استطاعت إعادة اللوحات وإماطة اللثام عن الخبايا الإجرامية التي ظلت متخفية لفترة طويلة في المدينة، وقد عرضت اللوحات المسروقة لأول مرة للجمهور وهكذا بعد إلحاح منهم أصلحت المحققة زينتها ووقفت أمام مكبر الصوت تتحدث بدون أية مقدمات:

- لا أحبذ الكلام كثيرا لذا سأقول هذه الجملتين وأرحل، الأمة التي لا تحافظ على تراثها هي أمة آيلة للزوال والأمة التي تنسب تراث أمة أخرى إليها هي أمة منبوذة.. أطلق الحضور صيحات الإعجاب لتكمل.. اليوم استرجعنا اللوحات من دولة عكفت في سرقة تراثنا لسنوات طويلة، لم تكن السرقة ستحدث لو لا الخيانة التي أتت من الداخل، واحد منا هو الذي سلمهم تراثنا ونحن نتحمل المسؤولية جميعا، لأننا لم ننجح في جعل شخص أمين وموثوق على رأس الموروث الثقافي للبلد. بهذه المناسبة أطلب من جميع المسؤولين الحاضرين اليوم بأن يبدؤا العمل حول هذه النقطة بالذات، إذا أردتم أن تحافظوا على تراثكم من النهب والسرقة يجب أن تحرسوه وأن تختاروا بحرص من يقوم على حفظه. وبالطبع هذا الجهد لم يكن ليتكلل بالنجاح لو لم يكن جماعيا بفضل تكاثف القوى الأمنية لجيريفيل، لهذا أدعو رئيس شرطة المقاطعة مسيو فينيت لوني لإعطاء كلمته.

كان رئيس الشرطة الذي بدى في قمة السخط وهو يجفف العرق من جبينه قبل لحظات لين الوجه أكثر عند سماعه لكلامها، نظر حوله بذهول ودهشة عندما سلطت أنظار المدعوين عليه بينما همست مريم بودي في أذنه وهي تمر من أمامه:

- إنها لحظتك للإشراق.

و قد حان وقت الذهاب، ودعت المحققة الجميع بامتنان قبل أن تنطلق في السيارة إلى الوجهة الجديدة. هتف مارشملو وهو يفرك عينه بيده ويضع اليد الثانية على المقود:

- ما رأيك بالذهاب إلى المنتجع الجنوبي لقد سمعت بأنّه أفضل منتجع في المنطقة.

راحت تفكر بهدوء لمدة دقيقة ثم هتفت في فرح:

- هذا إغراء لا يمكنني مقاومته.

بينما راح يهز مارشملو رأسه بمرح وهو يردد أغنية بالتزامن مع بثها عبر الراديو أخذت مريم بودي تتفحص هاتفها وبقيت ساكنة للحظات لم يسمع مساعدها أي صوت منها، تكلم معها عدة مرات لكنه لم يلقى أي رد، تفرس فيها بنظرة استفهام لتبادله بنظرة مذعورة ثم نطقت بصدمة وهي تلهث:

- لقد خدعنا لقد كان مجرد تمويه.. قالت آمرة بصوت قوي خائف.. أريد العودة إلى القصر وبسرعة الوقت ضيق، كان الخوف والذعر يطل من عينيها..

بقي مارشملو يلتفت إليها تارة وإلى الطريق تارة أخرى بفزع ودلائل الامتعاض تغزو وجهه، ثم قال صارخا:

- ماذا ! أنظري لقد قطعت أميال كثيرة لما لا يمكنك تحمل أن القضية قد أغلقت واللوحات قد عادت.

لم تسمع كلامه وأدارت المقود بيدها بغرض الالتفاف لكنه صاح بصوت ينم عن الغضب:

- حسنا، حسنا، لك ذلك.

بعد ما يقارب الربع ساعة في القصر..

ارتمت أدا المرهقة على الكرسي وهي تشد رأسها بيدها من فرط التعب، لكن حضور مادلين الخادمة قد أزعجها أكثر، أخبرتها مادلين بأن هناك ضيفا يطمح لرؤيتها، وبالفعل إنها هي سيدة القصر الآن، كان يجب أن تتصرف وفقا لذلك أرادت من الناس أن يحترموها كما فعلوا من قبل مع والدها لهذا لم ترد أن ترفض زيارة الأهالي لها في القصر لكن ما رأته كان مغايرا تماما لما أرادته، سمحت للضيف بالدخول ولما غادرت مادلين انفجرت بغضب في وجهه.

- أميرتي، قال ذاك الشخص بابتسامة ساحرة ورقيقة وهو يقبل يدها.

سحبت يدها بعنف ودفعته عنها باشمئزاز قائلة:

- ماذا تفعل هنا هل جننت، هل تطمح لفضحنا وتدمير كل شيء قمنا به ألم أخبرك بأن تبقى بعيدا في الوقت الحالي إلى حين غلق القضايا نهائيا؟ لا هذا أمر لا يطاق.. ظلت تشيحه بنظرات تنم عن الكراهية لتعود للتكلم من جديد.. لقد أسقطتنا في ورطة كنا في غنا عنها بسرقتك للوحات التي بعناها، والآن الدولة الجارة تعتقد بأننا أقدمنا على خيانتهم.

- آسف لم يكن في مقدوري عمل شيء أخر، رد في تلعثم وبنبرة متوسلة.

الأمر الذي جعلها تصيح في وجهه بحدة وخشونة:

- بلى لو كنت تسمع تعليماتي جيدا لم نكن لنصل إلى هنا الآن، لقد أعماك الإنتقام لوالدك وأسرعت بالذهاب للجنرال ودس السم له ويا للسخرية ذلك العجوز لم يمت حتى، لم تلتزم بالخطة التي عملنا عليها لأشهر وعصيت كلامي لأنك غبي أناني لا تفكر سوى في نفسك. قالتها دفعة واحدة وبنفس واحد ما جعلها تتنفس بصعوبة كبيرة.

- لا داعي للتهكم، معك حق لقد أعماني الانتقام أنا نادم لأني لم أستطع مقاومة نفسي، لكن بوسعنا إصلاح كل شيء. طالعها بنظرات مترجية بعيناه الزرقاوين اللتان تشبهان عينا الجرو الصغير.

تملكها الغضب لدرجة أن فرائصها أصبحت ترتجف وحدها، وأجابت بصوت قوي ومتعجرف:

- لقد أفشلت كل شيء بتسرعك، لقد كنتُ أنا الذي أزودك بكل شيء، الخطط، المعلومات، العبارات والمقولات، الأزياء التمثيلية ومواد الزينة التنكرية، كل شيء كل ما كان عليك فعله هو تطبيق ما أقول لكنك فشلت وأصبحنا الآن في دوامة كبيرة من المشاكل.

ما إن فرغت من كلامها تدخلت المحققة وهي تضع كوب القهوة من يدها:

- يمكنك دائما الاتصال بي ربما أستطيع حل هذه المشكلة أيضا.

شحبت وجوههما وأصبحوا كالموتى، قالت أدا بعدما تمالكت نفسها تماما:

- أيتها المحققة أقدم لكِ وكيلي الفني، هتفت بصوت مرتعش مبتلعة ريقها.
- توقفي عن المماطلة، خاطبتها مريم بودي بنبرة جافة.
- منذ متى وأنتِ هنا؟ همت تسأل بصوت منخفض وأتبعته بتنهيدة محتبسه.
- لمدة تكفي لسماع كل حديثكما.

تفاجأ ونظرا لبعضهما البعض، أصفر لون جيمس تماما كلون شعره، بينما راحت المحققة تقول في اندهاش:

- لا أصدق بأنَك قبلتي مني المال وأنت تعلمين بأني أخذته من شريكك.

نطق الآخر وهو يمسح فمه بظهر يده وكأنه على حافة اليأس:

- ماذا ! أعطتك المال؟ لما لم تقولي لي؟
- أصمت، أصمت لقد انهار كل شيء.. أصيبت ببعض الرعشة وعلقت بصوت محشرج.. اذا أنتِ سمعت كل شيء؟

قالت المحققة بنبرات تشيع ثقة:

- من الصعب خداعي أو اصطيادي لأني أشتم رائحة النذالة على مسافة كيلومترات.. نقلت بصرها ناحية جيمس ونظرت له مطولا نظرة

فاحصة، كان متوسط الطول ذو أنف مستقيم يشبه أنف والدته، ومهتدل الكتفين. عندما تنظر له للوهلة الأولى تستطيع أن تميز بأنّه من النوع الهادئ الذي لا يفتقر للذكاء، لكن لن تتمكن من معرفة حقيقته وأنه ذو شخصية متلونه، لهذا يقال المظاهر خداعة. وجهت له المحققة الكلام وهي تهز رأسها بصوت جاف مقطوبة الحاجبين.. لا تفهم كلامي على أنه تبخيس لكن لطالما اعتقدت أن جرائم النساء أكثر عقلانية من جرائم الرجال والذي كان يحدث يؤكد ما أقول. الخطط الإجرامية التي حدثت كان لها عقل مدبر نسوي وليس ذكوري، فالنساء تعشق فنون الخداع وممارسة الحيل. خذ مثلا قطعة الملكة في لعبة الشطرنج، تعد من أقوى القطع والوحيدة التي تتحرك في كل الاتجاهات، يمكنها أن تلعب الدفاع أو الهجوم وإن خسرتها فستخسر اللعبة أما القطع الأخرى عبارة عن بيادق في يدها كما كنت أنت، الشخص الذي يجسد خططها على أرض الواقع، الممثل في لعبتها، كان يجب أن أعرف الجهة الحقيقة التي تأتينا منها الضربة لهذا وضعت في جيبك جهاز التعقب الذي أوصلني في الأخير إلى هنا وهذا ما أحب أن أطلق عليه اسم التمريرة العمياء.

أخرجت أدا حبوبها الطبية وتجرعت بعضها بكوب ماء:

- غبي، لا يجب أن تعتمد المرأة على الرجل أبدا للقيام بعملها، تكلمت بصوت مضطرب.
- إنه ذوقك، أعني أنت من اخترته ليكون شريكك.

تهالكت على أقرب مقعد وأجابت بنبرة مثيرة للشفقة:

- معك حق لطالما كان لي ذوق سيء في الرجال.. عبثت بخاتمها وهي تفكر ثم خاطبت المحققة من جديد بدون أن يرف لها جفن.. هل أعجبتك الخطة التي قمت بها؟

- ليس تماما، لقد خططت لكل شيء تقريبا إلا عندما تسوء الأمور في هكذا أوقات مثلا، عندما يفتضح أمرك. يجب أن ندرس أولا أحسن طريقة للفرار قبل أن نبدأ في التخطيط للجرم وإلا سنلاقي نهاية سيئة ونخرج منها صفر اليدين، هذا ما كان ينقص في سلسلة الكتب الإجرامية التي كنت تطالعينها. تفتقرين للخبرة لكن لا تنقصك الموهبة، ابتسمت المحققة في كلمتها الأخيرة.

بادلتها الابتسامة ثم رمت برأسها للخلف بينما تُحرك خاتمها في إصبعها:

- إذا اعتبريها زلة قدم لأنني وبتواضع أعتبر نفسي خزان مواهب.. ضحكت ضحكة خبيثة بدون أن تطرف وأكملت حديثها.. تريدين معرفة السبب، حسنا، سأقول لك. الرفاهية والبذخ لها ثمنها، تعتقد النساء مثلي أن العائلة والحب والصداقة يمكن أن تكفيها لتكبح داخلها حب السلطة والنفوذ لكن هذا غير صحيح ستنصدم في النهاية أن الجميع سيخيبونك والمال وحده من سيعطيها القيمة وكل ما تستحق. امرأة مثلي لن تستطيع حب شيء سوى المال فهو الجدير بكل شيء، كنت سأحوز على كل شيء أخيرا، لقد أزحت الجميع من طريقي، كنت لأصبح الوارثة الوحيدة لجميع الممتلكات والأملاك لولا هذا الغبي.

- يا لوقاحتك جميع الناس يحبون المال لكن لا يمكننا القيام بالقتل أو السرقة بغرض الحصول إليه.. أكملت المحققة وإمارات التقزز بارزة على وجهها.. هنالك العامل الأخلاقي الذي لا تحوزينه أنت وأمثالك ولحد الآن لستِ واعية بفداحة جرائمك، السرقة والقتل واستغلال الرجال السذج.

لم يستطع الرجل القابع في الوسط كالتمثال إخفاء دهشته من الكلام الذي سمعه، عاتبها في مرارة وحزن، واندفع نحوها وهو يشدها من ذراعها:

- لقد خاطرت بكل شيء من أجلك كل شيء كنت كالدمية.

ابتسمت برثاء ناحيته وقالت بوحشية:

- حتى أنتَ كنت مجرد بيدق في يدي ألعب به كما أشاء وكي أحقق مصالح شخصية وثروة، لقد كنت أمثل فأنا ممثلة بالأخير، رتبت لكل شيء بمجرد إعجاب مصطنع لأنك في حقيقة الأمر لن تحلم بالحصول على امرأة مثلي ولا حتى في افضل أحلامك.

كان يصغي بعينين متسعتين انهارت أعصابه، صاح قائلا وهو يهجم عليها، كان صوته مهولا بشكل عجيب يشبه صوت أخيل بطل حرب طروادة.

- فلتصبك اللعنة أيتها الحقيرة ستموتين على يدي.

هم بهياج كالمجنون محاولا خنقها في محاولة للقضاء عليها غير أن المحققة أطلقت رصاصة استقرت في السقف ليبتعد عنها:

- لا تقلقوا أيها الأولاد لقد حان وقت حصاد زرعكم السيئ، سيكون لكل أحد فيكم الفرصة للتعفن في السجن.. والأن ضعوا أيديكم فوق رؤوسكم والتفوا للحائط.. وأي شيء ستقولونه سيستخدم ضدكم في المحكمة أوه كم احب هذا الجزء..

كانت الشرطة قد اعتقلت كلاهما وهاهما يتقدمان أمام مرأى الجميع وبدون أن ينطقا بأي كلمة والأصفاد تلف أيديهما حُبِسا في انتظار التحقيق معهم ومحاكمتهم، أما القصر فتحول إلى حلقة مطوقة بالشرطة كان

الجميع في حالة صدمة، كانت مريم بودي بصدد إبداء التعليمات لأعوان الشرطة بمداهمة الفندق الذي كان يقبع فيه السارق وكان من أرقى الفنادق بحيث لم يشك أي أحد بأن مجرما كان يقبع فيه ويقوم بتجاربه وأعماله الإجرامية هناك. كان الجناح الذي يقيم فيه يقع في الطابق الرابع على اليمين ذو غرفتين متصلتين ويطل على الشارع الرئيسي وعند مداهمة الغرف وجدوها تعج بالفوضى. الملاءات القذرة، الملابس التنكرية مبعثرة في الأرجاء والسجادات الفندقية المكومة في الزاوية في جهة، والأكل المترامي في جميع الأنحاء. أما حوض الاستحمام فمملوء عن آخره بأنابيب التحليلات وأنواع مختلفة من النباتات والأعشاب الجافة، والبذور والمصول، ومساحيق التجميل. تمكنت الشرطة من إيجاد غالدي الحقيقي الذي نقله المجرم عبر حقيبة، واستطاعت الشرطة أن ترى ذلك في كاميرات الفندق.

قالت سكيل وهي تجهش بالبكاء:

- لا أصدق بأني أصبحت يتيمة الجميع ذهب وتركني وحدي.

أرهفت مريم بودي أذنيها ناحية الحديث الذي دار أمامها بين المحامي المسؤول عن إدارة الأملاك والوصي على التركة وبين سكيل:

- لست وحيدة أيتها الفتاة فعمتك إليونورا قادمة للعيش معك بصفتها الآن الوصية الرئيسية عليك وعلى أملاكك ريثما تبلغين السن القانونية للتصرف في الثروة.

كان المحامي صديق العائلة لهذا كان يعرف وضعهم الحالي جيدا، شعرت سكيل بالرعب وقالت في شيء من الضيق:

- هـذا أسـوء خبر سـمعته في حيـاتي تلـك العجـوز الشـمطاء سـتأتي للإقامة معي.

قالت مريم بودي وهي تأخذها بين ذراعها:

- هذا ما تحتاجينه حاليا كي توقفي سهراتك الليلية.

تطلعت فيها بخوف وهتفت:

- كيف عرفتِ؟
- لا يهـم كيـف علمـت المهـم الآن هـو أنّـك سـتتمكنين مـن التركيـز في دراسـتك أكثر وربمـا عنـدما تبلغـين السـن القانونيـة سـتتمكين مـن عمـل مشروع تطمحين إليه، استطردت وهي تبتسم.
- لطالمـا أردت فـتح سلسـلة مـن الإسـطبلات للخيـل فهـذا شـغفي، الأحصنة.

أجابت بابتسامة رقيقة تعلو شفتيها:

- أنا متأكدة أنك ستنجحين في ذلك.
- شكرا أيتها المحققة سأحاول أن أطلعك على أخباري من حين لحين أخر.

لم تستطع المحققة حجب ابتسامتها:

- أرحب بذلك من كل قلبي.

و قد حـان وقـت الـذهاب مـرة أخـرى ولكـن هـذه المـرة هي الأخيـرة فليسـت هناك عودة. قال مارشملو وهو يشعر بالحيرة منطلقا بالسيارة:

- أنا مصدوم، لما امرأة مثلها لديها كل شيء قد يحسد المرء عليه، الجمال، المال، حب الناس ومع ذلك تُقدِم على مثل هذه المؤامرة والمخاطرة الكبيرة لتخسر كل شيء بعدها، ماذا كان الحافز هذه المرة؟

- لقد كانت تصطنع الرزانة والنبل بينما كانت العقل المدبر لكل شيء. يفعل المال بالمرأة ما تفعله هي بالرجل.

كانت زهور الأقحوان الصفراء أو كما يسميها عموم الشعب بزهرة الذهب تزين الطريق المحاذي للبحر، ما جعل المشهد يبدو كأنّه من فيلم سينمائي.

بادر مارشملو بالقول بحماسة:

- المال يتلاعب بالمرأة وهي بدورها تتلاعب بالرجل كي تحصل على المال، لكن في حالتها تلاعبت برجلين في نفس الوقت. الأول كان يمسح كل شيء من ورائها كالمنظف والثاني عبارة عن دمية لتنفيذ خططها، لكن كيف استطاعت إقناع الأخر بنسب كل الجرائم له؟

أصغى إليها باهتمام بينما راحت تقول:

- لقد كانت هي تسرق اللوحات وهو يمحي أشرطة الفيديو التي تُظهرها، لهذا السبب لم تستطع الشرطة كشف أي شيء لأنّ المؤامرة كانت من الداخل، ولأن العمال لن يشتبهوا في مدرائهم لهذا لن يكشفوا لك بانهم كانوا يتجولون ليلا هناك. أما الأخر فاستغلت دافع الانتقام لوالده وأججته ليعمل في صالحها. عندما يقع الفأر في المصيدة يحاول بشتى الطريق التخلص من سجنه. إنها امرأة جميلة لدرجة قد تأسر قلب الزاهد وكلنا نعرف بأن متعة الرجال هي النساء سيسيل لعابهم بالقليل من الإغراء والقليل من الدموع السهلة والتي لن تكلف الكثير لكن مفعولها كبير جدا.

لقد صورت نفسها لهم كالجائزة التي يحلم الكثيرون في الحصول عليها لكن أحلامهم سرعان ما تتبدد لأنّ أغلبها موجود في خيال الإنسان. ومن أفضل طعم من رجل مفتون بك وأخر يحبك حد العبادة لاستغلالهم؟ الرجال في الجوهر كلهم متشابهون، بينما النساء تردن الرجال الأغنياء وأصحاب النفوذ، الرجال بدورهم يفضلون النساء الجميلات وذوات المكانة والصيت. لقد كانت ممثلة وقد مثلت دورها بإتقان وبراعة خالصة. وأنا التي ظننت بأنّها تركت خشبة المسرح لتتفرغ لعائلتها بينما جعلت حياتها عبارة عن مسرح كبير وتمثيلية كبيرة. حتى زوجها الذي كنت أظن بأنّها تحبه، هي التي كانت السبب من وراء وفاته، كنت اعتقد بأن أمينة هي التي أخبرت الكونت بأن دانييل يدين بالنقود لمهدي فتكورين لأنها هي التي كانت تتنصت على المحادثة التي جرت بيني وبين مايز، غير أن الحقيقة عكس ذلك لقد بت متيقنة بأنّها هي من أبلغت عنه.

التفت مارشملو إليها قائلا:

- مثل سر انجذاب البعض إلى رائحة الوقود لأنها تضغط على مركز المتعة في العقل.. لبث يفكر لحظة ثم قال وهو يبتسم.. لهذا يقولون بأن أخطر ما يمكن أن يحدث للرجل هو أن يحب امرأة فهي كفيلة بتغيير حياته للأسوأ أو للأفضل. إني آمل فقط أن تكون المحكمة عادلة وغير تحيزية. ختم كلامه راجيا.

- التهمة مثبتة عليهم هذه المرة وقد تأكدت بأنّه لن تكون أي ثغرة قانونية يستطيعون أن ينفذوا منها، لأنني سجلت كل محادثتهم، لن يدحضوا أية حقائق الأدلة تتوالى في صالحنا وكفيلة بجعل حبل المشنقة يلتف حول عنقهم. سأتابع ما ستقوده نتيجة التحقيق في الصحف.

نظر مارشملو إلى وجهها الذي كان يعبر عن الجدية وراح يتساءل قائلا:

- و المتحف من سيديره حاليا؟

- لقد استعادت إدارته وزارة الثقافة وهم يبحثون عن خليفة مؤهل لتنصيبه كمدير وقد رشحت شخصيا أوسكار كي يترأس منصب المدير، أعتقد أنه سينجح في تحقيق ذلك لأنني أعتبره إنسان جدير بالثقة.

- أنت داهية لقد نجحت في حل عقدة هذه القضية أيضا واكتسبتِ قلب الجميع مجددا.

طالعته بطرف عينها ثم أردفت في سخرية:

- ليس الجميع.

- تقصيدين ذلك البدين؟

أومأت برأسها في إيجاب وهزت كتفيها مدركتا قصده، أعقب مارشملو سؤاله بسؤال آخر:

- ما هو استنتاجك حول هذه القضية؟

- لقد كنت انتظر هذا السؤال.. نظرت إليه بشكر وهمت تقول في مرح.. لدي استنتاجين أولهم أن هناك نوعين من المجرمين، المجرمين العشوائيين الذين يولدون كي يصبحوا مجرمين نظرا لبيئتهم السيئة وآخرون يختارون بأن يصبحوا مجرمين بمليء إرادتهم حتى وإن كانوا يتمتعون بنعم الدنيا، إلا أن الجشع في نفوسهم أكبر من أي شيء آخر، أما الاستنتاج الثاني هو أني لا أريد التعامل مرة أخرى مع الممثلين في حياتي كلها لأنهم مخادعون.

أطلق مارشملو ضحكة خشنة واستطرد وهو يشعر بالرضى:

- يقال بأن الفنانين أعداء المحققين.. هزت مريم بودي رأسها في شدة موافقتا على كلامه، بينما استأنف حديثه.. ستحظى المحاكمة بتغطية واسعة إنها فضيحة القرن.
- الفساد كبير جدا للقضاء عليه لكننا سنحاول على الأقل وسنبذل قصار جهدنا، قالت بصوت متفائل.

أمسك بكتفها فجأة وقال في شجاعة:

- إذا فلنستعد للمعركة القادمة.

قالت وهي تخرج مصاصتها:

- هل تعجبك النهاية الآن؟
- أجل أستطيع أن أقول الآن بأن العدالة قد تحققت وانتصرت، لكن انتظري منذ متى تتناولين المصاصات؟ نطق باستفسار.
- منذ عزمت على التقليل من السجائر.
- تريدين التقليل من الدخان الذي يحتوي على 200 مادة كيميائية مضرة وتعوضينها بمصاصة مليئة بالسكريات؟
- و هل لك حل آخر أفدني، انتظرت أجابته.
- أنصحك باللّبان لأنّ مضغه يزيد من الذكاء ويحسن مستوى الغلوكوز المتجه إلى المخ بما يكفي لتحسين وظيفة الإدراك، اقترح ببساطة.

هزت رأسها في شيء من الارتياح ومضت في حديثها:

- ربما سأجربه.
- هل تريدين العودة إلى العاصمة؟

راحت تتمعن في جمال الطبيعة وفي جمال غروب الشمس الذي أسقط نوره على مياه البحر العميقة، ابتسمت ابتسامة مشرقة وقالت باطمئنان:

- من الحكمة أن أجازي نفسي، ربما أود تجربة الينابيع الساخنة الموجود في المنطقة.
- اذا نحو المنتجع.

صرخت في سعادة كالعصفور.

في هذه الأثناء كان الضابط دان يشاهد سيارة المحققة وهي تبتعد، طلب رقما ما وهم يقول في غموض:

- لقد انتهى كل شيء.

سأل الرجل الذي كان يترأس اجتماعا برفقة رجال آخرين بفضول:

- وتلك المدعوة أدا؟

قال الضابط معتذرا:

- تم القبض عليها أيضا.

غمغم الرجل بصوت أجش وهو يهز رأسه في شدة:

- شكرا ستتم مكافئتك.

أغلق الرجل الخط وخاطب الرجال الذين كانوا يحيطون به من كل جهة، مترقبين جوابه:

- للأسف جيريفيل سقطت.

قال أحد الرجال:

- لا يوجد آسف في قاموسنا، سنعطي العدالة بعض الوقت كي تسير بانتظام لنعود من جديد أقوى وأفضل.
- أقترح أن نزيح تجارة المخدرات في جيريفيل ونعوضها بشيء آخر؟

قال احدهم:

- بعد سقوط النبلاء كنا نعول على تلك المدعوة أدا لخلافتهم وبما أنه تم سجنها هي الأخرى من سيكون الخليفة هناك؟

قال الرجل الأول:

- سيكون لنا كل الوقت لنفكر في ذلك.

هتف أحد الجالسين على اليمين:

- لا تقلق أيها المركيز سقطت ولاية واحدة ولازالت 47 ولاية أخرى.
- لست قلقا لدي أشغال أخرى للقلق بشأنها وليس شيئا بسيطا كهذا، نفخ الدخان من غليونه عند انتهائه من الكلام.

قال الأخر مقترحا:

- بوسعنا إسكاتها أو التخلص منها في دقائق لو أردت.

قال الماركيز بسرعة هو ويضرب بقبضة يده على الطاولة في محاولة لإسكاتهم:

- لا، نحن نبلاء لا يجب أن ننسى هذا، ارتباطنا بالنزاهة والشرف ارتباط وثيق. من الجيد وجود شخص يكافح الفساد ولو ظاهريا كي نبين للعالم أننا منفتحون ونمارس الديمقراطية بحق بالإضافة إلى أننا نحترم

حقوق المرأة ولن نقوم بقتل امرأة، فبالأخير تبقى مجرد امرأة، كائن ضعيف رقيق القلب والعواطف، لن تستطيع مجابهتنا حتى وإن كانت ذكية فربما قد نحتاجها في وقت آتي.

- ماذا تخطط أيها الماركيز، قال أحدهم بخبث.

قال الماركيز وعلى شفتيه ابتسامة غامضة:

- .. كلٌ في أوانه جميل.. شرب كأس النبيذ وهو ينظر في صورتها هاتفا.. بصحتكم.

تمت

سرقات متحف باردو

سادة التلاعب

في مجتمع حديث الاستقلال مختلط الأعراق، مليء بالطبقية والصراعات الداخلية، يطلب من المحققة الخاصة "مريم بودي" أشهر مخبرة في الجزائر ، التحري في سلسلة من السرقات التي وقعت في متحف "باردو" الشهير وبالضبط في مقاطعة "جيريفيل" الأرستقراطية، ومعقل النبلاء في الجزائر من طرف الكونت "رينارد لومير". ستتصادم مع لص غير عادي بارع في الاحتيال والتنكر ، يترك وراءه رسائل عند كل سرقة، ويستخدم أدوات مميّزة لجرائمه. سيتعين على المحققة فك مغزى هذه الرسائل وحل القضية في مدة زمنية قصيرة حتى لا يكتشف سكان المدينة سرقة تراثهم، مما قد يؤدي إلى نشوب احتجاجات داخلية كفيلة بإسقاط المكانة الشرفية للنبلاء (الأقدام السوداء). لكن مع تطور التحقيق ستكتشف أسرارا مظلمة عن المدينة الهادئة وعن سكانها، سيقودها الأمر إلى إعادة فتح قضية جريمة قتل أخرى وقعت في فترة زمنية مختلفة ولكنها مترابطة مع سلسلة السرقات وجرائم القتل التي أصبحت تطال النبلاء في الوقت الحالي. وفي الأخير ، ستعرف المحققة على السبب الخطير الذي كانت تحدث بسببه الأفعال الإجرامية، وأن اللص كان مجرد غطاءٍ لشيء أكبر لم تتخيله.

آسيا موهوبي

دار وِمْضة
للنشر
والتوزيع
والترجمة

E-mail: wamdaedition@gmail.com
Tél: 00213657300415
Facebook: Dar wamda
Instagram: Dar wamda

رقم الإيداع: 978-9931-22-222-4

9 789931 222224